الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ؛ سهيل ادريس ؛ بهيج عثمان

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

شكاوى الأدب العربي الحديث

بقلم الدكتور سهيل ادريس

ما هي وجوه الضعف في ادبنا العربي الحديث ؟

هذا موضوع تكتنفه دون ريب كثير من الصعوبات والمحاذير الناشئة عن عاملين : اولهما ان ادبنا العربي الحديث ما زال في طور التكوّن ، فهو لم يستكمل بعدُ اسباب حياته كلها ، وثانيهما ان المعايير والمسابير التي يعتمدها الناقد او المؤرخ الادبي للحكم على اي أثر او انتاج ، بعيدة عن ان تكون نهائية حاسمة ، فضلًا عن انها تظل مرتبطة بمفاهيم خاصة تختلف باختلاف النظريات المعتنقة والاذواق المتباينة .

وهذه الصعوبات هي التي تحرم البحث من ان ينعم بكلّ ما يتطلبه العلم من دقة وعمق ونفاذ . وعلى ذلك يكون قصارى همّنا ، اذ نعالج هذا الموضوع ، ان نسلّط بعض الاضواء الكاشفة على شكاوى ادبنا الحديث ، علّ ذلك يكون تمهيداً او مدخلًا لدراسة كاملة لهذا الموضوع الخطير .

ونحن نقصد بالادب العربي الحديث هذا النتاج الادبي الذي بدأ عصر النهضة العربية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ولا يزال مستمراً حتى يومنا هذا . وبوسع المؤرخ الادبي ان يلاحظ ان الميزة الرئيسية لهذا الادب نزوعه الى الانفصال روحاً واسلوباً عن الادبَ العربي القديم بمعناه الكلاسيكي المعروف ، في سبيل مجاراة تطور البلاد العربية في نهضتها الجديدة . وقد تمكّن هذا الادب ، في فترة قصيرة من الزمن ، من ان يحطم القوالب الجامدة التي كان منحصراً فيها حتى منتصف القرن الماضي ، ويصطنع لنفسه قوالب جديدة تناول لبناتها من احتكاكه بالادب الغربي . ولكن سرعان ما اتجه همّ الادباء الى تحرير هذه القوالب من التأثير الاجنبي ، وإكسابها طابعاً خاصاً مستمداً من الروح العربية والارض العربية ، وبعبارة اخرى اوجز ، اتجه همّهم الى خلق ادب قومي عربي . ولكن هل نجح هؤلاء الادباء في خلق هذا الادب ، والى ايّ مدى كان نجاحهم ؟

★

لقد ألمّت بالبلاد العربية ، خلال قرن من الزمن ، أحداث جسيمة نتجت عن جهادها من اجل استقلالها ، ككفاحها للتحرر من نير السلطنة العثمانية ، واعدام الشهداء ، وقيام الثورة العربية وجهاد مصطفى كامل وسعد زغلول ، وقيام الثورات العراقية والسورية والفلسطينية الخ ...

ولكن الادب لم يكن الا « شاهداً » ضعيفاً جداً على هذا العصر ، فان الصورة التي يقدمها لنا عن هذه الفترة من الزمن صورة باهتة في مواضع منها، ممحوّة في مواضع اخرى . فبالرغم من ان مصر كانت تتجه بكل قواها نحو التحرر من النير العثماني حتى الحرب العالمية الاولى « فقد ظلّ الادب العربي فيها عثمانيّ الروح ... متشبّعاً بروح التشيّع للخلافة والجامعة العثمانية »[1] وكان يمثل هذا الادب الشيخ علي الليثي وعبدالله نديم وعبدالله فكري وشوقي وحافظ ونسيم وصبري والرافعي والبارودي والبكري ... وليس يبرّر موقفهم هذا ، وانما يجرّمه ، ان نِعَمَ السلطان كانت تغدق عليهم . وحتى بعد اعلان الدستور، ظل شعراء مصر، الا قليلين منهم ، يمدحون السلطان عبدالحميد، في حين كان عدد من ادباء لبنان وسوريا والعراق يناوئون سياسته كالكواكبي ومرّاش وحسّون والزهاوي والرصافي . ثم إن اثر هذه الاحداث الجسيمة وما تلاها من اعدام الشهداء وقيام الثورة العربية وانسحاق السكان تحت وطأة الارهاب والجوع ، بدلاً من ان يقوى ويشتد في نتاج الجيل الثاني من الادباء، هذا الذي يؤلف اليوم موكب الذين نصفهم بـ « الادباء الشيوخ » ، ضعف وكاد يزول ؛ وقد ظهر هذا الاثر في بضع قصائد متفرقة ، وعدد قليل من القصص ليس بينها الا رواية واحدة هامة هي « الرغيف » لتوفيق يوسف عواد، لولاها لخيّل الينا ان رصاصة الثورة الاولى لم تكن موجهة الى قلب السلطنة العثمانية ، وانما الى قلب الادب العربي !

ومثل ذلك يُقال في اثر الثورات السورية والعراقية واللبنانية في ادب هذه البلدان : إنه اثر ضعيف لا يعبّر عن مدى حركات عنيفة كانت مصدر تكوّن القومية العربية كلّها . واننا لنتساءل : هل في تاريخ العرب الحديث ما يمجّد البطولة كثورات فلسطين المتتابعة ؟ ومع ذلك ، فهل انتجت هذه الثورات اثراً ادبياً رئيسياً في جميع نتاجنا الحديث؟ ثم نتساءل مرة اخرى : هل في تاريخ العرب الحديث فاجعة اروع وادمى من ضياع فلسطين ومن نكبة لاجئي فلسطين ؟ ومع ذلك ، فهل هناك الا ملحمة او ملحمتان شعريتان قصيرتان ، وبضع قصائد واقاصيص متفرقة في الصحف ، تصوّر هذه النكبة وتلك الفاجعة ؟ انها آثار قليلة ، شظايا كتلك الشظايا التي تناثرت في الفضاء ، ومعها بقايا الاجساد الدامية ... ثم هدأت المعركة ، واقفرت الساحة ، وساد الظلام ، وأصاب الألسنَ البكم !

وإذا استعرضنا الادب الاجتماعي بعد هذا ، طالعتنا هذه الظاهرة نفسها ؛ فان الجيلين الماضيين من الادباء صوّروا دون ريب هذا المجتمع بمظاهر الانحلال والفساد فيه، ولكن تصويرهم كان من الغيبوبة والضعف والحياد بحيث عجز عن إحداث اي أثر . وينبغي لنا ان نستثني من ذلك نتاج عدد قليل من الادباء حمّلوا آثارهم خميرة ثورة في منحى من مناحي المجتمع ، كقاسم امين في دنيا المرأة الشرقية الجامدة ، وطه حسين في ثورته على التقاليد الادبية والظلم الاجتماعي ، وتوفيق الحكيم في بعض آثاره ومسرحياته ، والزهاوي والرصافي والجواهري في دواوينهم ، وذو النون ايوب في مجموعاته القصصية . فاذا عزلنا انتاج هؤلاء الكتاب ، بقي بين ايدينا انتاج عشرات من الادباء في مختلف الاقطار العربية ، وهو من ضعف التعبير والتصوير بحيث يعجز غالباً عن ان يهز في نفسنا اي وتر قومي او اجتماعي او انساني . ولا شك في ان البؤس بجميع مظاهره كان ولا يزال ينخر المجتمع المصري والعربي كلّه؛ فاذا تصفحنا دواوين الشعراء وكتب الادباء رأينا انها تعالج هذا البؤس بلهجة عابرة ليس فيها استنكار ولا ثورة، وانما قد يكون فيها تبرير للوضع وإيمان بالواقع ، واذا تجاوزت ذلك فالى استعطاف الاغنياء على البؤساء ... وفي هذا يكاد يستوي شوقي وحافظ والرافعي والجارم والعقاد وشكري وتيمور . وإذا اتيح لأحدنا ان يدرس دراسة وافية نتاج محمود تيمور خصوصاً ، فلابد له ان يلمس انه يعالج هذا الوضع بتصوير سطحي ليس فيه اي احساس بما يقاسيه الفلاح والعامل والموظف الفقير من بؤس والم وعذاب . ومثل هذا يقال في آثار كرم ملحم كرم اللبناني .

كل هذا يؤدي بنا الى القول إن الادب القومي الذي خلقه لنا ادباؤنا المحدثون ضعيف اجمالاً ، وانه لا يتناسب مع الحركة القومية التي عصفت بالبلاد العربية منذ اوائل هذا القرن ، ولا يصوّر تصويراً فعالاً الآفات التي تنخر هذا المجتمع . وعلى ذلك ظلت العلاقات بين ادبنا ومجتمعنا عقيمة ، وبطل التأثير الذي يتبادله الادب والمجتمع في حياة كل امة .

★

ولعلّ من الطبيعي ان ينتج عن ضعف الادب القومي

---

(١) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . ج ١ ص ١١ وما يليها .

عندما ضعف الأدب الانساني في نتاجنا . فالمعروف ان الفارق بين الادبين القومي والانساني فارق نسبة، لان الادب الانساني اشدّ استيحاء للقيم الانسانية الخالدة من الادب القومي ، ومن ثم فهو اقوى منه على الايحاء . والواقع ان الادب العربي الحديث يكاد يكون خلواً من معالجة القضايا الانسانية الكبرى، كوضع الانسان في عالمه ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقته بالله ، وما يتفرّع عن ذلك من موضوعات ميتافيزيقية انزلها الادباء الاجانب منذ وقت بعيد الى ميدان الادب ، بعد ان ظلت من اختصاص الفلسفة ، لأنهم ادركوا انها تتعلق بحياة الانسان مباشرة ، هذا الانسان الذي لا يستطيع ان يحقق انسانيته بجميع أبعادها إلا إذا عاشها بجميع مشكلاتها .

إن في بعض آثار جبران ونعيمة وتوفيق الحكيم نزعة الى معالجة بعض القضايا الانسانية الكبرى ، ولكنها نزعة سريعة قد لا يكون لها في اعماقهم جذور ثابتة ، لأنها تفتقر الى التركّز والانتظام في هيكل كامل الدعائم . فان احدنا إذا تناول اليوم نتاج اديب غربي ما ، ككامو او سارتر او كافكا او ستاينبك او هكسلي ... لم يصعب عليه ان يميّز فيه نزعة واضحة المعالم ، مكتملة الاجزاء نحو معالجة احدى القضايا الانسانية الكبرى ، كوضع الانسان تجاه الانسان ، ووضعه تجاه حريته ، ووضعه تجاه اخلاقية عمله او لا اخلاقيته ، وثورته على قيود الحياة ، وموقفه من الألم البشري ... وما الى ذلك من القضايا التي تشكل كل منها نظاماً فكرياً — ولا نقول فلسفياً — يعرضه الكاتب في آثاره .

★

هذان هما وجها الضعف الرئيسيان في أدبنا العربي الحديث؛ ولكن هناك وجوهاً اخرى قد تتصل بها او تنفصل عنها. فنحن نشكو من ان جمهورنا لا يقرأ . ولهذا الوضع سببان : اولهما ان درجة العلم في معظم البلاد العربية منخفضة جداً ، ويوم يرتفع مستوى التعليم في هذه الاقطار ، فسترتفع دون ريب نسبة القراءة . ولكن ليس هذا هو وحده السبب في ان الجمهور لا يقرأ ، فان المثقفين في هذا الجمهور لا يقرأون نتاجنا العربي ، وهذا سبب كساد كثير من الآثار الحديثة . ولا شك في ان هؤلاء لا يقرأون ،لأنهم لا يجدون في هذا النتاج ما يصادف هوى في نفوسهم .. ذلك ان مؤلفي هذه الآثار لا يعيشون في واقع مجتمعهم ولا يتحسسون تجاربه ومحنه. وهناك ثمة دليل على ان الادباء القليلين الذين ينتجون من أدب الحياة ويتحسسون واقع المجتمع مقروءون بنسبة ما يتيحه مستوى التعليم في كل بلد .

ولكن هذا لا يعني ان كل كاتب مقروء هو اديب حقاً .. فان في البلاد العربية فئة من الكتّاب لا ينتجون إلا أدباً يتملق القاريء ويستجيب لنزعاته البدائية ولذائذه الحسية .. وغالباً ما يحتل هذا النتاج الصحف والمجلات الاسبوعية المصورة وما اكثرها ! وما اقل الصحف الأدبية الرصينة !

هنا تأتي جناية بعض ألوان الصحافة على أدبنا ، وهذه آفة اخرى يشكو منها هذا الأدب . فلا ريب في ان مثل هذه الصحافة لا تحمل أية رسالة ، لأنها لا تحاول ان ترقى بالقاريء ولا ان توجهه ولا ان تدفعه الى استكمال اسباب ثقافته ... إنها تنحدر الى القاريء ذي الثقافة البدائية والذوق المفتقر الى صقل وإرهاف ، فتلبي جميع أهوائه ، وبذلك يأنس اليها ، وينصرف عن النتاج الأدبي الذي يحتاج اليه .

ومن الطبيعي تجاه هذا الوضع ان يشعر الأديب الحق ، الأديب الذي يحمل رسالة واعية لأمته ، بردّ فعل كثيراً ما ينتهي الى الصمت والانقطاع عن الانتاج . فهو يرى الأدب الرخيص يتعيّش منه اصحابه، بينما لا يستطيع هو ان يعيش من ادبه ، لأنه لا يستطيع دائماً ان ينشر هذا الادب على الناس ، ولأن دور النشر قليلاً ما تنفق على نشر كتاب لا يعود عليها بالربح المادي . فان كان هذا الاديب الواعي ضيّق اليد ، فانه طاوٍ أدبه ولعله منصرف نهائياً عن دنيا الادب ، متجه إلى عمل يؤمن له رغيف خبزه ، وإن ظل يشعر بأمضّ الالم لتخليه عن رسالته تلك .. وهذا وضع عدد من الادباء الواعين في كثير من الاقطار العربية .

هنا تأتي شكوى الادب من السلطات الحكومية . فان الحكومات العربية لا تشجّع الادباء التشجيع الكافي ، وبعضها لا يشجعهم على الاطلاق، كأنها لا تستطيع ان تدرك بان الاديب من النخبة الممتازة التي تتقمّص خير صفات الامة وامكانياتها المعنوية .. وليس معنى هذا اننا نطالب الحكومات بان تؤمن للاديب عيشه ، وإنما نطالبها بان توفر له الظروف والامكانيات التي يستطيع ان يؤمن بها هو نفسه هذا العيش ، كأن تقيم المسابقات الادبية وترصد لها الجوائز المالية المحترمة التي تتناسب وجهود الاديب ، وتعين اصحاب المواهب على إخراج آثارهم

الادبية، وما إلى ذلك من أنواع التشجيع الذي تمارسه كل دولة من الدول الاجنبية ، لانها تؤمن برسالة الادب السامية في توجيه الامة .

★

ولعل من اخطر الشكاوى التي يتبرم منها الأدب العربي الحديث موقف بعض الحكومات العربية من حرية الأديب في التعبير ؛ فعلى الرغم من ان هذه الحكومات تدّعي الحكم الديمقراطي ، فهي تحرم الأديب في كثير من الأحيان من ان ينعم بحريته الكاملة ، فتخضعه للضغط والعسف والملاحقة والاضطهاد . ولا يندر ان تتهم حكومة ما اديباً ما باعتناق مبدأ لا تقرّه لتبرر اضطهاده وخنق حريته ؛ فلا بد لرسالة الأديب يومذاك ، أياً كانت هذه الرسالة ، من ان تتعطل او يلحق بها تشويه كبير يورث في نفس الأديب ألماً وعذاباً شديدين ، فيؤثر احياناً ان يطوي هذه الرسالة التي يعتبرها سبب حياته كلها ، ويعيش في جو يأس وخمول .

ان قضية حرية الأديب قضية جذرية في حياته ولا سيما في هذه الفترة من تاريخ البلاد العربية التي يجد الأديب فيها نفسه مدعواً الى خدمة قومه وأمته بكل حظوظ القوة الفكرية التي يملكها .. فما دامت الرقابة الفعلية قائمة في ظل نظام جائر او نفوذ إقطاعي ، فان رسالة الأدب معطلة ، وبالتالي رسالة قسم هام من حياة الأمة .

ولكننا لا نحب هنا ان ندّعي ان الأديب ليست له في القضية اية مسؤولية . فالواقع ان الأدباء العرب لن ينعموا بحريتهم الكاملة في التعبير عن آرائهم إلا إذا كافحوا وجاهدوا من اجل هذه الحرية وتحملوا الاضطهاد والتضحية ككل صاحب رسالة في هذه الدنيا .

وهنا لا بد لنا من ان نتهم كثيرين من أدبائنا بالجبن والخور والرياء .. تجاه السلطات المسؤولة من جهة ، وتجاه الجماهير من جهة اخرى . فهم يمالئون السلطات خوفاً من ان تقطع نعمة تغدقها عليهم ، ويصمتون تجاه الجماهير عن آفات ينكرونها بكل قواهم ، ولكنهم يخشون ثورة الشارع عليهم.. إن هناك كثيراً من التقاليد البالية تنخر مجتمعنا فتنحط به وتجعل منه موضوع هزء وسخرية . . وليس هناك إلا الأديب ليجاهر بمحاربة هذه الآفات ويحاول القضاء عليها ليحمل حقاً رسالته في مجتمعه . فهو ما دام يطالب بالحرية ، كل الحرية ، فينبغي ان يتحمل واجبه ، كل واجبه . فكما أن لكلمته أثرها وصداها ، فكذلك لصمته . ان الصمت إقرار بالنسبة الى اديب يملك حرية الكلام . فان كان للأديب حق الحرية ، فان عليه واجب النطق .

وهناك لونان آخران من الشكوى قد لا يمتّان الى الشكاوى السابقة ، وانما يتعلقان بضعف الأدب الحديث نفسه . اولاهما تقصير النقد في تقويم هذا الأدب وتوجيهه ومن ثمّ تقصيره في تربية الذائقة الفنية لدى القراء ؛ وقد يكون من اسباب ضعف ادبنا الحديث ان النقد لم يقم برسالته في بث حسّ الأدب والفكرة لدى القراء . اما اولئك الذين يتناولون النتاج بالنقد ، فلا يفهمون من النقد إلا احد امرين : إما هجوم وإما ثناء . اما أنه تقويمٌ وتربية ذوق ودعوة الى الاختيار ، فليس شيء من ذلك يعنيهم .

ومن هنا نشأت الشكوى الثانية ، وهي ان اهتمام الكتّاب ومؤرخي الأدب بالأدب العربي الحديث ضئيل بوجه الاجمال ، فهو لا يُدرس ولا يُبحث فيه إلا قليلاً . والواقع ان دراسة ادبنا الحديث ضرورة حيوية لمعرفة نواقصه ، ومن ثمّ محاولة معالجتها .

★

وبعد ، فانَّ في مصر اليوم معركة بين ادباء الشيوخ وأدباء الشباب أثارها حدث ادبي له قيمته هو احتجاب مجلتي « الرسالة» و « الثقافة » المعروفتين . وقد كتب الأستاذ الزيات صاحب الأولى مقالاً يعلن فيه احتجابها بعد جهاد عشرين عاماً في ميدان الأدب ويحمّل وزارتي المال والمعارف في الحكومة المصرية تبعة هذا الاحتجاب ، لأن الاولى تعسفت في فرض الضرائب، وقطعت الثانية اشتراكات « الرسالة » في مدارسها ..

وقد تكون هذه بعض اسباب احتجاب المجلة لا الاسباب كلها . لقد ادت «الرسالة» دون ريب رسالة في الادب الحديث يوم صدرت ، ولكن الصلة ، ضعفت ، في السنوات الأخيرة ، بينها وبين حياة القارىء الذي كان يبحث عن اقلام تصوّر له مشاكله وتعالج وضعه الاجتماعي والقومي والانساني وترسم له طريقاً يطمئن الى سلوكها ويقضي على قلقه المطرد وآلامه المتراكمة . .

تلك هي محنة الأدب الحقيقية، وهذه هي الشكوى الكبرى. ولكننا لا نريد ان ننساق مع عواطف الشباب ، كما ينساق

مشاركة

« الى التي تعيش هناك وحدها »

انا لستُ وحدي في انتظارك — في الروضِ الفُ فمٍ يبارك
لم يـدُ الا بلبـلٌ — ما كان عنك حديثُ جارك
فمضى يلقنـه الخزامى — في الخميلة حولَ دارك
كم أنبأتْ طرفي الحشائشُ — عن خطاكِ ، فلم أجارك
حتى التفتُّ .. وكان اولَ — مرّةٍ دونَ اختيارك ..
فبدت بطلْعتها كشمسِ — الأمسِ تسطعُ في نهارك
هذا الجمال عهدتُـه — من قبلُ يحرقني بنارك
عطرتِ من ذكرايَ ماضيَ — حُبهـا ، فأتى يُشارك

يا ثغرَ أشبهَ منْ رأيتُ — بها .. فديتُكَ في افترارك
أصغي لسحر حديثهـا — في غيرِ لفظٍ من حوارك
انا لاضطراري قد عرضتُ — مسلِّماً .. لا لاضطرارك
حيِّيتُ فيكَ وميضَهـا — فكأنَّ دُرِيَ من نثارك
يا اختَها ، يا مَنْ تجدَّد — فنُّها لي في اطارك
فلو انني ادعوكِ حُبـاً — باسمها « هي » لم أمارك
أسرى على العشبِ النسيمُ — فمالَ ميلك في نفارك
حسبُ المفجّعِ ان يَراكِ — وان تَمَلْمَلَ في جوارك

البحرين — ابراهيم العويض

كثيرون من أدباء الشباب ، فنتهم جميع أدباء الشيوخ بأن أدبهم قد مات .. ذلك ان بين هؤلاء من عرف كيف يجاري زمانه وينسجم مع عصره ويستشعر قضايا مجتمعه كطه حسين وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمه ومارون عبود وتوفيق عواد — على قلة إنتاجه — والجواهري وايوب وسواهم .. ولكنَّ هؤلاء لا يستطيعون بعد الآن ان يوفروا لنا جميع الخصائص التي يفتقر اليها الأدب الجديد .. إن قصارى ما يفعلون ان يحدوا الركب ويحثوه في سيره المجد السريع !

أما هذا الركب فيقوده ادباء الشباب في مختلف البلاد العربية ،وإن موكبه الذي بدأت طلائعه تظهر في إبان الحرب العالمية الاخيرة ينمو يوماً بعد يوم ويهيء للادب العربي الحديث واقعاً خيراً من ماضيه ، ومستقبلاً خيراً من واقعه .

ذلك ان هـذا الجيل من الادباء الذين ينتجون بغزارة ، يقدّمون مادة حيّة يستمدونها من صميم المجتمع العربي ، ومن اعماق حياته الثائرة الطامحة إلى التحرر ، لانهم يؤمنون بان الادب رسالة وان الاديب الحق هو الذي يعيش واقع مجتمعه ويتحسس بآلام قومه وأمانيهم ، ويحاول ان يصور الواقع لا تصويراً خاماً جامداً ، وإنما تصويراً يستشرف المستقبل وينزع إلى المثال.

هذا الادب الجديد الذي يعمل له هذا الجيل من الادباء هو نتاج الاديب الذي لا يفرّ من الواقع الاجتماعي وانما يحياه ويعانقه ويتغلغل فيه ، مهما كان مؤلماً ، ومهما احدث في جسمه من جراحات ، بل انه من اجل ذلك يحبه ؛ فهو مؤمن بانـه خلق لعصره ، وبان عصره قد خلق له ، وانه يؤثر في هذا العصر بقدر ما يتأثر به ، وهو يتأثر به لا أمنـاص ، لانه يعيشه وهو لذلك اول من يهيء المستقبل ويُعدّ سبابه .

ومن أجل ذلك ، دعونا نحن في هذه المجلة[1] إلى تدعيم هذا الادب وتركيزه وتوضيح اتجاهاته بسلوك سبيل « الالتزام » وربما اتهم البعض هـذا الادب الذي نـدعو اليه بنقيصتين : اولاهمـا انه يحرم الاديب حريتـه ، تلك الحرية التي نعتقد انها اساس حياته ، والثانية انه يضحي بجماليته Esthétique . وفي الرد على ذلك نقول : ان « الالتزام » إذا فُهِمَ على حقيقته ليس إلا عملاً حراً إلى أبعد حدود الحرية ، بمعنى ان الاديب إذا عاش حقاً تجربة عصره ومجتمعه ، فلا بد له من ان يلتزم تصوير هذا العصر والمجتمع . فهذه الضرورة هي حاجة ، وحين يستجيب الانسان لحاجة ما ، فهو حر في استجابته دون ريب ، ومن هنا تمتزج الحرية والالتزام امتزاجاً تاماً لتصبحا حرية فحسب . واما التهمة الثانية فمردودة بان الجماليـة شيء فارغ إذا لم يكن نتيجة حتمية للاثر الادبي ، فما دام الادب صادقاً ، وهذا هو شرطه الاول للحياة ، فلا بد من ان يكون فنياً وان تتوفر له جماليته حتـى ولو كانت في صورة قبح وبشاعة . اما إذا كان كاذباً أو مصطنعاً ، فهو حتماً فاقد فنّيته وجماليته ، حتى ولو كانت في صورة بهاء وجمال .

هذه هي السبيل التي نريدها لادبنا كي يكتسب قيمة ذاتية وعالمية .

سهيل ادريس

(١) راجع افتتاحية العدد الاول من «الآداب» .

نسيب عريضة شاعر الطريق

بقلم ميخائيل نعيمة

اطل القرن العشرون على الديار العربية وهي رازحة تحت اثقال أربعة قرون من الحكم العثماني . يتبختر الفقر في ارجائها ، ويتربع الذل في قلوب بنيها وبناتها ، وتخيّم العتمة على عقول كبارها وصغارها . وليس في تلك العتمة سوى ضباع التعصب الديني وذئابه تسرح وتمرح ، وتنعم من قبل الدولة الحاكمة بعطف عظيم . اما الاقلام حيثما وجدت — إلا القليل منها — فكانت ملجمة ولا عمل لها غير تمجيد الحكام والاسياد ، وغير التلهي بالاحاجي اللغوية والبهرجة البيانية. إن نظمت او نثرت زحل نظمها ونثرها عن صفحات القواميس لا عن صفحات القلوب والافكار، وفاحت من الاثنين روائح التقليد والزلفى والمجاملة والخنوع . فالأدب السائد آنئذ كان في الغالب ادب القصيدة وادب المقالة . والشاعر الشاعر والناثر الناثر من نظم الكثير ونثر الكثير بأقل ما يمكن من الهفوات اللغوية والعروضية ومن غير ان يقول شيئاً حرّياً بالقول .

لقد كان الفكر مغلقاً ، والذوق آسناً ، والارادة الخلاّقة مشلولة. فما يجرؤ شاعر ان يحيد في القصيدة الواحدة عن الرويّ الواحد ، ولا ان يتخطى الابواب التي طرقها الشعراء العرب منذ اقدم الازمنة من فخر وحماسة ، ومدح وهجاء ، وغزل ورثاء وما اليها ، ولا ان ينوّع في الاسلوب والهندسة . فالفخر والحماسة والمدح مغالاة يمجّها الذوق السليم ويعافها القلب الصادق. والهجاء قدح وشتيمة ونميمة ؛ والرثاء تفجّع بغير غصة وبكاء بغير دموع ؛ والغزل وصال وصدّ ، وعتاب وشكوى ، واكباد حرّى ، وأجفان مقرّحة ، وسهاد وقتاد ، وخدود ونهود الى آخر مفاتن الحب ومتاعبه كما تراها عين بدويّ ويحسّها قلب صحراوي .

ذلك الادب بعينه هو الذي حمله المهاجرون الى ديار غربتهم في بدء هجرتهم مثلما حملوا الجو الروحي القاتم الذي نشأوا فيه وترعرعوا. وفي مثل ذلك الجو كان على الحركة الادبية التجديدية ان تشق طريقها . وقد شقته بما يشبه الاعجوبة . إذ ليس في مستطاع اي باحث ان يحلل الظروف الخارقة او ان يعلل العوامل الخفية التي جمعت على صعيد واحد وفي زمان واحد حفنة من الشباب السوري واللبناني فكانت « الرابطة القلمية » . وكان انطلاق في الادب وانعتاق ، وكان شعور حي وفكر ثائر ، وكان صدق واستقلال ، وكانت جرأة وحماسة ، وكان فن وهدف مع الايمان بقدسية الادب ورسالته . وإذا الادب اكثر من قصيدة ومقالة. فهناك القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والملحمة . وهناك النقد الذي ليس للتشفي ولا للتبخير ، بل للتمحيص والتحليل . وهناك اقلام تتغلغل في زوايا النفس فلا تحجم عن نبش مخبآتها وعرضها على الناس .

لقد كان من ثورة « الرابطة القلمية » على التقليد ان خلقت أدباً إنسانياً شاملاً ، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء ، والتسكع في المدح ، والتفجع الكاذب في الرثاء . اما الغزل فقد اقلعت فيه عن اساليب القدامى. واما القوالب الشعرية فقد زاوجت فيها ما بين البحور الكاملة ومجازيئها ، والبحور التي تدانيها في جرسها ، ونوعت القوافي ، فقسمت القصيدة الواحدة الى مقاطع ، جاعلة لكل مقطع قافية غير التي للذي قبله أو بعده . ومن ثم فقد ربطت القصيدة من اولها الى اخرها بفكرة واحدة او قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الاوصال، عديمة الانسجام . ذلك مع الافتنان في تبديل الصور وتلوينها، وفي تزاوج الانغام وتنويعها . وجميع هذه الصفات — وقد باتت اليوم مألوفة — تتجلى على اتم وجه في نتاج شعراء «الرابطة» وعلى الأخص في نتاج نسيب عريضة .

ولد نسيب عريضه من ابوين مسيحيين ، ارثوذكسيين في مدينة حمص عام ١٨٨٧ وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الروسية هناك . ومنها انتقل عام ١٩٠٠ الى دار المعلمين الروسية في ناصرة الجليل . وقد جئتها بعده بعامين . فما لبثت ان انجذبت اليه بفضل ما أنسته فيه من دماثة في الخلق ، واتزان في العقل ، وطهارة في القلب واللسان ، وذكاء في

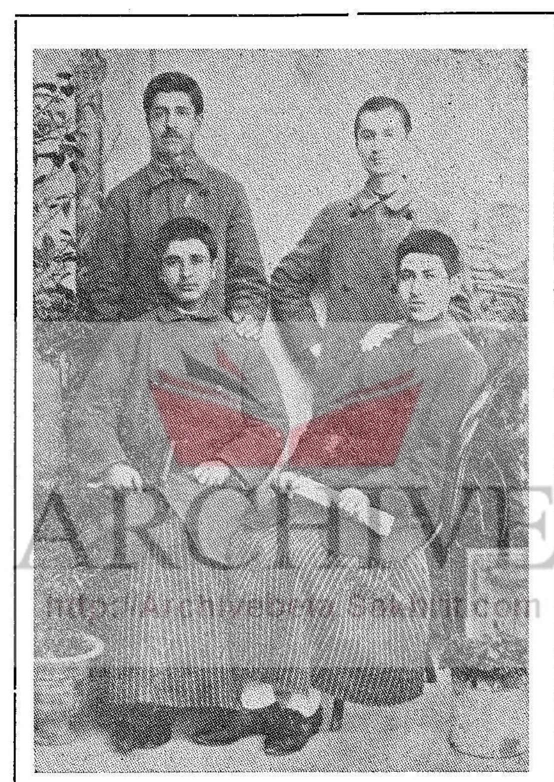
الذهن ، الى وداعة في النفس ، وطبع مسالم يكره الضغينة والخصام وميل فطري الى المطالعة والتحصيل . ولأنه كان كذلك ، وكان الاوّل بين رفاقه في صفّه ، اختارته المدرسة للسفر الى روسيا ومتابعة دروسه هناك على نفقة الجمعية الامبراطورية الفلسطينية .

كان ذلك في العام ١٩٠٤ فحالت الحرب الروسية اليابانية دون سفره . ولذلك عاد الى الناصرة ليمكث في مدرستها سنة اخرى . وفي صيف ١٩٠٥ ودّعناه وودعنا على امل ان يسافر في الخريف الى روسيا .

ولكنه اختار في النهاية ان يسافر الى نيويورك بدلاً من روسيا . اقول « اختار » ولعله من الاصحّ ان اقول « أرغم » ، فقد كان لوالده واعمامه مصنع للنسيج من النوع الذي اشتهرت به حمص حتى الماضي القريب. وكان بعض ابناء عمّه قد سبقوه الى نيويورك فلاقوا في تجارتهم حظاً من النجاح . وشقّ على والد نسيب ، وذهنيّته ذهنية التاجر ، ان لا يكون لابنه من التجارة مثل حظ ابناء عمه ، وان يجازف بمستقبله في بلاد قصيّة كروسيا فيكون نصيبه من علمه نصيب الكثير من قبله — وأعني القلة والحرمان والشقاء . ومن هذا القبيل جنى الوالد على نفسه وعلى ولده من حيث لا يدري فما كان الاول — ولن يكون الاخير — بين الوالدين الذين يختارون لأولادهم طرقاً غير التي اختارتها لهم الحياة . فيشقون ويشقى اولادهم معهم عندما تردّهم الحياة جميعاً الى الطريق القويم .

اشتغل نسيب اول ما اشتغل في مهجره « ماسك دفاتر » عند ابناء عمه . ولكن قلبه وفكره وخياله وإرادته وكل جوارحه كانت تهرب ابداً الى دفاتر غير تلك التي تحفل باسماء الزبائن ، واصناف البضائع ، والاسعار ، والارقام السود والحمر . فكان ينظم الشعر في اوقات فراغه أو يلجأ الى الجناح الشرقي من مكتبة نيويورك العمومية فيغرق الساعات الطوال في مطالعة ما يستهويه من المجلدات العربية . وقد دعاه بعضهم « دائرة المعارف » لكثرة ما وعى من أخبار العرب ونوادرهم . وكان من الطبيعي ان يضيق صدره بالتجارة بعد بضع سنوات فطلقها ليؤسس مطبعة « الاتلنتيك » وليصدر مجلة « الفنون ». وكان يحسبه طلاقاً لغير ما لقاء .

إلا ان « الفنون » التي كانت بمظهرها وترتيبها وتبويبها فتحاً جديداً في دنيا الصحافة العربية ، والتي تلاقت على صفحاتها اقلام فتية كان لها الفضل الاكبر في خلق النهضة الادبية الحديثة ما لبثت ان احتجبت بعد صدور عددها العاشر لان نفقاتها كانت تفوق دخلها بكثير. وباحتجاب المجلة توقفت المطبعة عن العمل . فكانت الخسارة جسيمة على قلب نسيب وجيبه معاً . وكان وقعها عليه وقع الصاعقة . وعلى الاخص لان المال الذي دفنه في مشروعه لم يكن ماله . بل كان ابوه هو الذي امدّه به من حمص .



صورة تذكارية تجمع بين الاستاذين المرحوم نسيب عريضة (الجالس الى اليسار) والاستاذ ميخائيل نعيمه كاتب المقال (الجالس الى اليمين) ووراءهما صديقان . وقد التقطت هذه الصورة في الناصرة .

كان ذلك قبيل الحرب العالمية الاولى . وعاد نسيب يجمع ما تبقى من فلول آماله وعزيمته ليعيد الكرّة. فقد اصبحت الفنون لحماً من لحمه ودماً من دمه . وتمكن ، بمعاونة بعض الاصدقاء ، من بعثها ثانية عام ١٩١٦ إلا ان الاقدار ما برحت تعانده . فلم يمض عامان حتى لفظت « الفنون » انفاسها . واذ ذاك أقلع نسيب نهائياً عن التفكير بردّها الى الحياة . وعاد الى التجارة يستعين بها على سدّ رمقه. وفي هذه الاثناء توفي أخوه سابا الذي كان قد التحق به في نيويورك . وأحدقت به الاحزان والقلة والوحشة . فلاذ منها بالزواج . فلم يكن الزواج ذلك الملاذ الذي كان يرجو . إذ أنه لم يرزق اولاداً ، ولم يتغلب على وحشته ، ولا اتسعت موارد رزقه بل، على العكس ، أخذت تضيق حتى كادت تنسدّ.

عندها عاد نسيب إلى قلمه يستعين به على تحصيل كفافه ؛

فاشتغل محرراً في جريدة « السائح » ثم في « مرآة الغرب » ثم في « الهدى » ثم مترجماً في مكتب الانباء الاميركي إبان الحرب الاخيرة. وكان حزنه على شقيقه المتوفى في ربيع حياته، ثم مآسيه الروحية والمادية الكثيرة التي عقبت احتجاب « الفنون » قد هدت جسمه الجبّار. فطارت منه روحه الطاهرة في مدينة بروكلن يوم الخامس والعشرين من آذار سنة ١٩٤٦.

كان ديوان « الارواح الحائرة » في عهدة المجلد عندما لفظ صاحبه آخر انفاسه، وهو الاثر الوحيد الذي نشر له حتى الآن، ولولا بعض الاصحاب والمعجبين الذين اكتتبوا لنشره لبقي حتى اليوم في ذمة الاقدار. ولنسيب آثار شعرية غير «الارواح الحائرة». وآثار نثرية قيمة منها قصتان بديعتان: «ديك الجن الحمصي» و « حديث الصمصامة ». وهذه كلها نشرت في الصحف ولكنها لم تنشر بعد في كتاب.

* * *

حسبك أن تقرأ قصيدة او قصيدتين من نظم نسيب عريضه لتشعر انك في حضرة شاعر فذ، رحب الخيال، مرهف الحس، رفيع الذوق، خفيف الظل، صافي النبعة، صادق النبرة، ولانه كذلك تراه يتنكب السبل المطروقة والقوالب المألوفة، ويترفع عن كل مبتذل في اللون واللحن، وفي المبنى والمعنى. فلا يتملق ولا يماري، ولا يتصنع ولا يتحذلق، ولا يبرق ويرعد، او يرغي ويزبد ليهول عليك بالضجيج والصخب. بل هو يبث شعوره بالحياة بثاً أشبه ما يكون برذاذ المطر يتساقط في سكينة الليل على البقاع العطشى فيؤنسها ولا يزعجها، فيحييها ولا يجرفها، على عكس ما كان يفعله السيل العارم إذ يمر بالارض مراً عنيفاً خاطفاً فيجرف التراب الذي على سطحها، اما قلبها فيتركه في عطش وفي جفاف.

ما ندّ صاحب « الارواح الحائرة » عن باقي إخوانه في « الرابطة القلمية » من حيث شعورهم بالقلق المادي في ديار هجرتهم — ذلك القلق الذي كان يصرفهم قسراً إرادتهم إلى ميادين التجارة والصناعة لحفظ الرمق وصون ماء الوجه. فقد كان ميلهم الفطري إلى الادب يأبى عليهم التسكع على عتبة الدولار. وكانت الحاجة لا ترحمهم فتحملهم على وأد الكثير من بنات قرائحهم ترضيةً للدولار. وفي ذلك ما فيه من مرارة الرغائب المكبوتة، والآمال المهدورة، والارادة المقهورة. ولا هو شذ عن إخوانه من حيث شعورهم بغربتين ملازمتين: غربتهم عن الوطن المادي، وغربتهم عن الوطن الروحي. ولعل الغربة الثانية كانت الاقسى على قلب نسيب عريضه. فلا عجب ان تسمع للاسى في شعره انغاماً شجية وان تبصر فيه كل ألوان الحيرة والوحدة والوحشة والحنين. ثم لا عجب في ان يطرح الشاعر على ذلك كله وشاحاً من الصوفية العميقة الصافية كالتي تطالعها على الاخص في منظومته البديعة « على طريق إرَم ».

قضى شاعرنا وهو ما يزال في الطريق الممتد بين وطنه الترابي ووطنه الروحاني فلا هو انعتق من الاول، ولا هو ادرك الثاني، بل ظل قلبه حتى آخر نبضة يتلفت حيناً إلى العاصي ورباضه والى عروس العاصي فيناجيها:

« يا حمص، يا أم الحجار السود !.. »

وحيناً ينطلق في ضوء الخيال البعيد الى تخوم وطنه الآخر فيهتف:

« إيه ضوئي البعيدْ،
لُحْ ولحْ ما تريد،
ليس طرفي يحيد
عنك حتى يعود
لترابٍ ودودْ
لُحْ ولح في الفضاء
قد سمعتُ النداء
ودليلي الرجاء
فعساه يقود
ظامئاً للورود »

أو هو ينتهر قلبه اللجوج فيقول:

« فاصمتْ وسِر في السكونِ
على طريق الجنون
لعله بعد حين
يبدو لنا وجه ربي .. »

وانا لو شئت ان أصف نسيب عريضه بكلمتين لا اكثر لاسميته « شاعر الطريق »، فما وقعت في كل من وقعت عليهم من شعراء عرب وغير عرب على شاعر أفاض وأبدع في وصف طريق الحياة وما يرافق سالكيه من تحرق على معالم تركوها خلفهم وحنين الى معالم تلوح لهم من بعيد وتتمنع عليهم إلى حد ما فعل ذلك صاحب «الارواح الحائرة». فهو يحس الحياة سيراً متواصلاً لا راحة فيه ولا توقف. ويحس الوجود طريقاً غاب أوله في غيبوبة الجهل وتوارى آخره في غيبوبة المعرفة. فلا ينقطع يحث قلبه إلى الامام.

« يا رفيقي على طريق الحزانى
سر فان القضاء أقصى مدانا .. »

« لماذا وقفتِ بخوف وحيره
أيا نفس عند الطريق العسيره ؟
ألا امشي ، فان الحياة قصيره
ألا امشي !
ألا امشي وبعد الجهاد الحقيقي
سندرك آمالنا في الطريق
ونجني الاشعة قبل الشروق
ألا امشي ! »

أما ترى اي خيال خلاّق ، وذوق لطيف ، وفن بديع تطل عليك في قوله « سندرك آمالنا في الطريق ونجني الاشعة قبل الشروق » ؟

ولنعد الى الطريق :

« يا اخي ، يا اخي المصاعب شتى
وبعيدٌ مرادنا والموارد
وامام العيون درب عسير
لم تسر قبلنا عليه الاوابد
فلنسر في الظلام ، في القفر في —
الوحشة، في الويل — في طريق المجاهد .
فلنسر ، فلنسر ، وإما هلكنا
قبل ادراكنا المنى والمواعد
فكفانا انّا ابتدأنا ، وانّا ،
إن عجزنا ، فقد بدأنا نشاهد . »

اجل ! السير ، السير ! والطريق ، الطريق ! وفي نهاية الطريق ذلك الهدف الذي لا يوصف — هدف المعرفة والطمأنينة ، والانعتاق من قيود اللحم والدم . ذلك ما كان يحسه نسيب عريضة إحساساً عميقاً متواصلاً . وذلك الاحساس بما يلابسه من ألم وجوى ووحشة وحيرة هو ما صوّره الشاعر تصويراً ما عرفتُ له مثيلاً عند شاعر سواه . فهو ينوّع الوانه ، ومواده ، واجواءه ، وحالاته النفسية تنويعاً لا يشعر القارىء معه باقل تخمة او ملل كما هي الحال مع الكثير من الشعراء الذين لا ينفكون يعالجون موضوعاً واحداً الى ان يصبح في ايديهم جيفة وهم لا يشعرون .

ولعل ابدع ما نظمه نسيب في الموضوع الذي وقف عليه معظم نتاج قريحته قصيدته التي عنوانها « طريق إِرَم » . وهي قصيدة طويلة متنوعة المقاطع والاوزان ، غنية بالالوان والألحان ، مشبعة بصدق الاحساس ، بعيدة عن التحذلق والزخارف الكلامية . وهو يصور فيها جهاده وجهاد الذين هم مثله في طريقهم الى الموطن الروحي الذي رمز اليه بمدينة ارم ذات العماد . واليك بعض أبيات منها . قال في المقطع الذي دعاه « اول الطريق » :

« قم نتخذ للمنى جناحاً
يطير من عالم الحدودْ
عسى نرى في السماء درباً
نسير فيه ولا نعود
نؤمّ خدر الرؤى ونحظى
بما حُرمناه في الوجود
قم واترك الجسم حيث يبلى
فالموت خير من الجمود »

وقال في مقطع آخر أسماه « القلوب على الدروب » :

« يا حداة القلوب رفقاً
طال درب الهوى وشقّا
فالى مَ القلوب تشقى ؟
هل لها وقفة فتلقى
راحة في الدروبْ يا حداة القلوب ؟

★

يا قلوباً غدت نياقاً
سامها الوجد ان تساقا
... لا تهمنك الرمالُ
لا يعوقنك العقالُ
قد سرى قبلك الجمال
وبه النور والكمال
فاسرعي يا قلوب واهتدي بالطيوب »

فما أعذب قوله « واهتدي بالطيوب »

وقال في المقطع الرابع من القصيدة ، وعنوانه « القفر الأعظم » :

« نحرتُ ناقة وجدي
على ضريح غريبِ
وقلت للقبر : هذا
قِرى الأسى والوفاء
اجمَعْ ضيوفك اني مضيفهم في العشاء
فلم يلبِّ ندائي
سوى الصدى في الفضاء
ولم يجىء لطعامي ضيف ولا لشرابي
ضاعت وليمة قلبي بين الحصى والتراب

وقال في المقطع الخامس وعنوانه « القيروان » :

« يا ركبُ ، يا ركب صبراً
لم يبقَ الا اليسيرُ
لا ترجعوا لقفار فيها الأماني تغور
أمامنا الطود فامضوا
على الشعاب نسير
ولنرقَ طود التجلي ففي الذرى نستنير »

هذا شعور لا يتكل في الوصول الى سمع القارىء وقلبه على فخامة اللفظ وجزالته ، وعلى امتداد الوزن ورنة القافية شأن الكثير من قديم الشعر العربي وحديثه . وانما يتكل على ما فيه من رحابة في الخيال ، وصدق في الاحساس وقوة في الابداع ، والابداع هو خلقك ما لم يخلقه غيرك وتنكّب السبل المطروقة والقوالب المألوفة مع الشعور بعزة النفس والاخلاص لها قبل الاخلاص للناس . فمن اخلص لنفسه اخلص لغيره . ولعلّ الاخلاص من أبرز ما اتصف به نسيب

عريضه وقامه . فأنت قد تأخذ على شعره شتى المآخذ . ولكنك لا تستطيع ان تطعنه في اخلاصه. فهو شعر صادق ينضح من وجدان صادق وخيال وثاب خلاق.

ما من شك في ان معرفة صاحب «الأرواح الحائرة» للغة الروسية وآدابها كان لها أبعد الأثر في توجيه مواهبه ذلك التوجيه من حيث التجديد في صياغة القوالب وانتقاء المواضيع. اما من حيث الشعور والنزعة الى التصوف فهو ليس مديناً بذلك الا لفطرته السليمة ولتربته الشرقية . وما اريد ان اوهمك ان كل ما نظمه نسيب عريضه كان من النوع الذي عرضته عليك حتى الآن. فقد كان مجدداً حتى في غزله وحكمه ووطنياته . فاسمعه يتغزل :

« تعالي صباحاً الى غرفتي
وحلي بلطف عرى رقدتي
لعلي اعود الى يقظتي » ...

واسمعه يرثي اخاه :

يا صاح ، يا ابن ابي وامي
ما كوجدي اليوم وجدُ
روحٌ تخاطب شطرهـا
والشطرُ يُعرض لا يردّ
ورتاج صرح الموت دونها
وسورٌ لا يُهدّ
افتخرس الارواح اذ تنأى
وتنسى من تودّ ؟
أم تضمحلّ فما لها
عَوْدٌ ولا امل وخلد ؟ »

واليك مثالاً من وصفه في قصيدة يخاطب بها « البرق » :

« أبرقاً في الدجى جنّا
وغلغل بعد ما اسنى
تملّص ، فالتظى ، فانساب
يورث بعده الظنّا »

واليك نموذجاً من ابياته الحكمية :

« لو حدق المرء في البرايا
لَشَام ما لا ترى العيونْ
ما حولنا عالمٌ خفيٌّ
تدركه الروح في السكون
كم مبصرٍ لا يرى واعمى
يرى ويدري الذي يكون
يا ويل مَن لا يرون شيئاً
إلا اذا فتّحوا العيونْ »

امّا بيته في قصيدته المشهورة « سيّان » اذ يقول : « كم مومسٍ تمضي عذراء للرمس » فبيت يتمنى المعري في لحده لو انه جرى على لسانه قبل ان يجري على لسان شاعر جاء بعده بألف سنة .

هذا وشلٌ من بحر عرضته عليك من شعر نسيب عريضه . وهو كافٍ ليبعث فيك الشعور بانك في حضرة شاعر يستمد الهامه من معين صافٍ لا نصيب فيه للتملّق والتدجيل والتصنع والتبرّج . وذلك المعين هو نفس الشاعر . وهي نفس حسّاسة ، حَييّة ، صادقة ، منزهة عن الخساسة والشعوذة، توّاقة الى الجمال المطلق والحق الذي منه ينبع واليه يرجع كل حق . فما أبعد الشقّة بينها وبين الأنفس التي لا تحجم عن ابتياع المجد بشعر مزيّف وشعور مستعار !

ولعله من الانصاف لصاحب « الارواح الحائرة » ان اذكر مواقفه الوطنية فاختتم هذا المقال بقصيدته الرائعة التي نظمها إبّان الحرب العالمية الاولى بعنوان « النهاية » وكأنها نظمت لزمان نحن فيه :

« كفّنوهُ
وادفنوهُ !
أسكنوه
ظلمة اللحد العميقْ
واذهبوا ، لا تندبوه فهو شعب
ميّت ليس يفيق .

ذلّلوهُ ،
قتّلوهُ ،
حمّلوه
فوق ما كان يطيقْ
حمل الذلّ بصبرٍ من دهورٍ
فهو في الذلّ عريق

هتكُ عِرضٍ ،
نهب أرضٍ ،
شنق بعضٍ ،
لم تحرّك غضبهْ
فلماذا نذرف الدمع جزافا ؟
ليس تحيا الحطبه !

لا وربّي
ما لشعبِ
دون قلبِ
غير موتٍ من هِبهْ
فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعف
ويصفّي كُتُبه .

★

رب ثارٍ ،
ربّ عارٍ ،
ربّ نارٍ
حرّكت قلب الجبانْ
كلّها فينا ولكن لم تحرّك
ساكناً إلا اللسانْ . . . »

ميخائيل نعيمه

الملجأ العشرون

كفراغ ايام الجنود العائدين من القتال
وكوحشة المصدور في ليل السعال
كانت اغانينا ، وكنا هائمين بلا ظلال
عبر المزابل والرمال
متوقبين — الليل — انباء البريد :
« الملجأ العشرون !
ما زلنا بخيرٍ ، والعيال
ـ والقمل والموتى ـ يخصون الأقارب بالسلام »
والذكريات الفجة الشوهاء تعبر ، والخيام
والريح والغد والظلام
كوجوهنا غب الرحيل
« اماه : ما زلنا بخيرٍ » والذئاب
تعوي وتعوي عبر صحراء السهاد
« يا اخوتي من اين نبدأ ؟
من هنا ! » ليل السعال
وبريدنا الباكي المعاد :
« لا شيء يذكر ، لم تزل يافا وما زال الرفاق
تحت الجسور وفوق اعمدة الضياء
يتأرجحون بلا رؤوسٍ في الهواء
ولم يزل دمنا المراق
على حوائطها القديمة ، واللصوص
وحقولنا الجرداء يغزوها الجراد »
« من هاهنا اماه ! أعواد المشانق والحريق
من هاهنا بدأوا ونبدأ ، والطريق
وعر طويل
لا عاش رعديد ذليل »

★

« يافا نعود غداً اليكِ مع الحصاد
ومع السنونو والربيع
ومع الرفاق العائدين من المنافي والسجون
ومع الضحى والقبرات
والأمهات »

★

« الملجأ العشرون
ما زلنا بخيرٍ ، والعيال
والأخوة المتشردون
من قبونا النائي يخصون الأقارب بالسلام »

بغداد **عبد الوهاب البياتي**

اللغة والحياة

بقلم الدكتور عبد الحميد يونس

ليس عجيباً ان تحتدم المناقشة في هذه الأيام حول الأدب بين المحافظين والمجددين . فان المتتبع لتاريخ الأدب بعامة ، وتاريخ نهضتنا العربية بخاصة ، يلاحظ هذه الفورة في كل دورة من دورات الأجيال . والمحافظون اليوم ، او الذين يُنظر اليهم كذلك ، كانوا منذ ربع قرن مجددين ، وخاضوا معركة حامية مع الجيل الذي سبقهم . وانتصروا في هذه المعركة ؛ ولم يكن انتصارهم في الواقع لعبقرياتهم الفنية او الأدبية ، ولكنه كان انتصاراً حيوياً طبيعياً أعلنته الحياة نفسها باعتبارهم جيلاً جديداً ، ووقعته بأسمائهم وأذاعته على ألسنتهم وأسنة اقلامهم . ونحن نعترف بان هؤلاء الأدباء المحافظين اليوم ، والمجددين بالأمس ، لم يحققوا مطالب النهضة الأدبية كلها . ولا يقدح ذلك في جهدهم ، فان الحياة التي احتفلت بانتصارهم منذ ربع قرن ، انما فعلت ذلك لأنها نجحت في بعض تجاريبها ، وهي دائمة التجربة ، دائمة التنقيح ، دائمة النسخ ، دائبة السير الى الأمام .

وكل مثقف في مصر والشرق العربي ، يسلم باننا قد قطعنا أشواطاً فساحاً في إيقاظ الرأي العام وإعداده لحكومة نفسه بنفسه في غير غفلة او جهل . وكل مثقف في مصر والعالم العربي يرى معنا اننا اقتربنا او كدنا نقترب من الديموقراطية السياسية المنشودة . واننا حطمنا كثيراً من الأصنام ، وأزلنا كثيراً من العقبات ، وبددنا كثيراً من الخرافات والترهات ، واننا نجاهد في سبيل التقريب بين الطبقات على أساس اقتصادي رشيد . ولكن احداً من هؤلاء المثقفين لم يفكر طويلاً في ان ما حققناه وما نحن بسبيل تحقيقه في الميدان الاجتماعي والاقتصادي ، يجب ان يرتكز اولاً وقبل كل شيء على اساس من الديموقراطية الوجدانية . وان هذه الديموقراطية الوجدانية يخلقها الفن الجميل بصفة عامة والفن الأدبي بصفة خاصة .

ونحن إذا قلنا « الفن الأدبي بصفة خاصة » فذلك لأنه يستوعب الجهد الفني للعالم العربي منذ عهد جد بعيد . ولما كانت اللغة هي وسيلة هذا الفن الأدبي ، فقد اصبح لزاماً علينا ان ننظر في موقفنا منها والى اي مدى نستطيع ان نحقق بها تلك الديموقراطية الوجدانية التي أشرنا اليها ؛ والتي عجز أدباء الجيل الماضي عن تحقيقها .

والواقع ان عالمنا العربي مصاب بما أسميه في غير تجوّز او احتياط بـ « الأزمة اللغوية » ، وهي أزمة اخطر من كل أزمة اجتماعية . لأن تأثيرها ينسحب على المجتمع كله ، ولأن جذورها عميقة متشابكة ، وهي تعمل عملها المستمر في سلوك الأفراد وفي موقف كل منهم حيال الآخرين وفي اتجاهه نحو مجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، وهي مقوّم من أهم مقومات الشخصية الفردية والشخصية الجماعية على السواء . وسوف يهولنا ان نعلم ، نحن معاشر المثقفين ، اننا مصابون بما يعرفه اصحاب التربية بـ « الازدواج اللغوي » اي اننا مكلفون باصطناع لغتين مختلفتين ، نعيش بلغة ونتفنن بلغة اخرى ، نفكر بلغة ونعرض افكارنا بلغة اخرى . ومهما قيل عن اتحاد الأصل في هاتين اللغتين او عن وجوه التشابه بين هاتين اللغتين ، فان الواضح انهما لغتان متمايزتان ، لكل منهما اصول وقواعد ولكل منهما ادب وتراث . وكل ما في الأمر ان الرسمية منهما استطاعت ان تحظى باعتراف المثقفين لهذا السبب او ذاك وسجلت ادبها ودونت قواعدها . وان الأخرى تُركت للتفاعل مع الحياة ولم يسجل من ادبها وقواعدها إلا النزر اليسير . وهكذا اتصلت الأولى بافكار المفكرين وأدب الأدباء الرسميين ، واتصلت الثانية بأدب العاديين او الذين يُسمون بالعوام ، وصورت افكارهم ومثلهم واعتمدت على الذاكرة الشعبية اعتمادها على الصوت الحسّي الملفوظ . وهذا الازدواج اللغوي

> **« إن عالمنا العربي مصاب بما اسميه بـ « الازمة اللغوية » ، وهي ازمة أخطر من كل ازمة اجتماعية ، لأن تأثيرها ينسحب على المجتمع كله ، ولأن جذورها عميقة متشابكة ، وهي تعمل عملها المستمر في سلوك الافراد واتجاههم نحو مجتمعهم الخاص ومجتمعهم العام ، وهي مقوّم من أهم مقومات الشخصية الفردية والشخصية الجماعية على السواء . »**

يستتبع في اكثر الأحيان ازدواجاً في الشخصية كما أنه يجعل كل واحد منا أقرب ما يكون الى الأجنبي النازح من بلد آخر ليقيم معنا ، فهو يعيش في مجتمعه الخاص بلغة ، ويعيش في مجتمعه العام الجديد بلغة اخرى . وأساتذة اللغة العربية يعلمون من غير شك ما يقاسيه طلابهم في الكتابة الانشائية ، فان قصورهم عن التعبير الكامل عن افكارهم ومشاعرهم يرجع الى أنهم يتمثلون هذه الأفكار وتلك المشاعر بلغتهم الحية ثم يترجمونها بعد ذلك الى اللغة التي فرض عليهم ان يكتبوا بها ، وتظل هذه الترجمة تلازمهم مهما تعلموا . فاذا رأيت لغتهم الرسمية صحيحة مستقيمة البناء ، فاعلم ان الترجمة مضمرة وان كانت موجودة . واذا كنت في شك مما أقول فما عليك إلا ان تلاحظ نفسك في الاقبال على حديث مذاع باللغة الرسمية وحديث آخر بلغتك الحية . او في الاقبال على قصيدة فصيحة وموال عامي بلغتك المحلية . فاذا اضفنا الى هذا كله ان اللغة الرسمية تؤلف من اصحابها المتعلمين طبقة اجتماعية قائمة برأسها لها وعيها الخاص المستقل ، أدركت مدى الخطر النفسي والاجتماعي في هذا الازدواج اللغوي .

والشخصية الفردية والشخصية الجماعية لا يمكن ان ينسلخا عن ماضيهما ، وهذا الماضي هو الذي يكون إطار التجربة الشعورية ، وهو وسيلة هذه التجربة الى الظهور والتفنن . وقد ادى الازدواج اللغوي – كما قلنا – الى وجود تراثين متمايزين . واستتبع ذلك تبلبلاً في تصوير المشاعر والتجاريب ، ولعل ما نشكو منه ، وهو بُعد الأدب عن الحياة ، إنما يرجع الى هذا التبلبل . واستقر في اذهان المتعلمين انفسهم ان التفنن الادبي لا يقوم الا باللغة الرسمية وحدها ، فآثروها على لغة الحياة اليومية واستمدوا إطار تجاريبهم الشعورية من تراثها وحده ، وهو تراث يقع معظمه في القرون الوسطى . ومنهم من وقف بهذا التراث عند فترة بعينها في اوله وآخره ، وكأنما ضرب على الوحدات الجماعية التي تؤلف العالم العربي ، ان تبدأ وتنتهي حيث يشاء أولئك المثقفون . وقد نسوا ان اللغة ، وهي العامل الاساسي في إطار التجربة الادبية ، ظاهرة اجتماعية لا يُتعسف في تحديدها . وليست ، ولا يمكن ان تكون ، ظاهرة عقلية تقاس بمعايير المنطق الصوري وتطبق عليها قواعده وضوابطه . وأغرب من هذا كله ذلك الشغف المسرف بتتبع الخطأ والصواب في اللغة ، فجعلت بذلك مفرداتها وتراكيبها كمفردات المسائل الرياضية وتراكيبها سواء بسواء . وإن كان لهذا الصنيع من دلالة كبرى ، فهذه الدلالة هي ان اللغة الادبية الرسمية في واد ، والحياة الاجتماعية الممتدة في الزمان والمكان في واد آخر . ولا يزال اساتذة اللغة العربية عندنا ، للأسف الشديد ، يحتكمون في بيان هذا الخطأ وذلك الصواب الى عصر سابق او الى عصور سابقة . فمنهم من يقف بهذا العصر عند الجاهلية ، ومنهم من يقف به عند صدر الاسلام ، ومنهم من يمتد به الى نهاية الدولة العباسية . وهذه النظرة « السلفية » لا يمكن ان تكون معياراً لغوياً صحيحاً ، لأنها تقف بالتطور اللغوي عند نقطة واحدة لا تتعداها . ولم يقل احد ، ولا يمكن ان يقول ، إن العالم العربي قد انقطع تاريخه بسقوط دولة وقيام اخرى . ولم يقف اساتذة اللغة عند هذا الحد ولم يكتفوا بذلك المعيار التاريخي ، بل اضافوا اليه معياراً آخر هو المعيار الجغرافي وزاوجوا بين المعيارين ، واحتكموا في اللغة الى جزء معين من العالم العربي . وأيا كان هذا الجزء ، وأيا كانت صلته بالأرومة العربية ، فانه لا يمكن ان يكون مقياساً لغوياً مضبوطاً في جميع العصور وجميع البيئات .

تراث ادبنا الرسمي إذن بعيد عن حياتنا الحاضرة البعد كله ، وهو تراث طبقة اجتماعية لها رسومها وتقاليدها . ويقع اغلبه في القرون الوسطى ويتصل جانب كبير منه « بالتطفل الاجتماعي » . فقد كان الادباء ، وفيهم من يُسمون بالفحول ، طائفة تدعو الى السلطان وترفه عنه ، تمدح وتهجو وترثي وتحتفل بالمخاطب او المخاطبين وتصدر ما تصدر من المنظوم والمنثور ، طلباً للجوائز والصلات . وهذا التراث هو الذي نكلف طلابنا ان يدرسوه وننتخب لهم مثله ونماذجه ليحفظوها ونجعله الشواهد التي نحتكم اليها في صحة العبارة وارتفاع الاسلوب ، والوسيلة الى استخلاص الاحكام في التفنن والنقد جميعاً ، فيقوّي ذلك من الازدواج اللغوي عند المتعلمين ويؤلف الاطار الذي يصبون فيه تجاريبهم الشعورية إذا تهيأوا للتفنن الادبي ، وهكذا تتقمصهم شخصيات اخرى غير شخصياتهم تعيش في بقعة اخرى وفي عصر آخر ، وتتفاهم مع الشخصيات المتعلمة على غرارها والتي تؤلف طبقة اجتماعية متبلورة . وليس في هذا القول غلوّ فان الاطار لا بدّ ان يؤثر في المضمون . ولهذا كانت العلة الحقيقية في الأدب كامنة في وسيلته وهي اللغة . وكان صنيع الادباء المجددين علاجاً جزئياً او ظاهرياً للعلة . وكانت الواقعية

المنشودة ، سواء أكانت واقعية وجدانية او خارجية ، بعيدة التحقيق . وهي لا يمكن ان تتحقق الا إذا استبدلنا هذا التراث بتراث آخر اوثق اتصالاً بالحياة المتطورة ابداً ، او وسعنا من مجاله بحيث يشمل التراث غير الرسمي ايضاً .

ونحن عندما اصطنعنا الاساليب الديموقراطية في الحكم ، طالبنا وألححنا في المطالبة بتعليم سواد الأمة ، ووضعنا لهذا التعليم الخطط والاقتراحات ، وشرعنا نعمل ما وسعنا على محو الأمية ، وأنشأنا مدارس الالزام ومدارس التعليم العام. وكان منا من يجعل هذا التعليم حقاً ، ومنا من يجعله واجباً ، ومنا من يقصره على سن معينة ، ومنا من يبيحه للجميع . وكان ذلك اعترافاً صريحاً بان القراءة والكتابة امتياز قصير على فئة ويجب ان يعمم على الجميع . ولكننا أغفلنا في الوقت نفسه صلة اللغة بالحياة ، فلم نفعل شيئاً لتطويعها لمقتضيات هذه الديموقراطية . ونشأ عن ذلك ازدياد المنسلخين عن المجتمع . واقصى ما بذلناه في الميدان اللغوي ، تطبيق بعض القواعد التربوية في تبسيط النحو والصرف والبلاغة وانتخاب الامثلة والشواهد . وظلت اللغة الرسمية على حالها تدرس على أنها ظاهرة عقلية فحسب ، والنابغة النابغة فيها هو أقدر الطلاب على التبرير والاحتجاج . وتطورت منظماتنا التعليمية ، المهنية والنظرية وأدخلنا المنهج الجامعي ، بيد ان معاهد اللغة العربية بقيت سلفية محافظة تستشهد بآثار الماضين ، وتتمثل بقعة واحدة دون سائر البقاع ، وتقف عند عصر معين دون سائر العصور ، وترى الادب مهنة كغيره من المهن له قواعده الحرفية التي تكتسب بالمرانة والحذق فحسب .

وكان انشاء المجمع اللغوي اعترافاً آخر بقصور اللغة الرسمية عن مجاراة الحياة ، ولكن تصور المجمعيين لهذه اللغة لم يكن خيراً من تصور المعلمين ، فقد اعتقدوا ان اللغة جهد عادي ينفع فيه الاقتراح والتقنين فذهبوا — سامحهم الله — مذاهب شتى في الوضع والاصطلاح وعكفوا على التراث الرسمي القديم يفتشون فيه وينقبون عن الالفاظ المهجورة فبعثوها من رقدتها وحملوها ما لم تكن تحمل من الدلالات . وشغل الاذكياء منهم الناس بما وضعوه قياساً على غيره من المهجور وأذاعوا هذا كله في الناس وطالبوهم باستعماله، وقالت الحياة لهم انكم في واد وأنا في واد آخر ، واتخذت من صنيعهم مادة للفكاهة والترويح. فليست اللغات في حاجة الى المجامع التي تشرع لها ، وهذه الامم الناطقة بالانكليزية لم تنشيء ولم تفكر في انشاء مجمع لغوي . واذا كنا قبسنا النظام المجمعي عن فرنسا ، فان هذا المجمع الفرنسي لا يشرّع ولا يقترح ولا يضع ، ولكنه يتتبع الاستعمال يسجله ويذيعه ويتركه للحياة تأخذ منه وتدع ما تشاء .

واذا فكرنا معاً في المثال اللغوي الذي يجب ان نحتذيه ، والذي يجب ان يكون وثيق الاتصال بالحياة، طالعتنا الفكرة الارستقراطية ، أو فكرة المجتمع الراقي التي دعا اليها بعض الكاتبين الاوروبيين أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. بيد أن هذه الفكرة لا ترتكز في عالمنا العربي على اساس اجتماعي وطيد . فالملاحظ في الطبقة الارستقراطية انها ، وبخاصة في مصر لم تكن عربية الاصل ، عربية اللغة. ولكنها كانت تركية تشعر باستعلائها على الوطنيين . ويحتفل افرادها بالتراث التركي وان شاءوا التوسع ناحية الشرق، احتفلوا بالتراث الفارسي، وقد رأينا المتفننين منهم بهاتين اللغتين في بواكير نهضتنا الادبية. ولما امتدت قبضة اوربا على الشرق العربي لم تنكفيء هذه الطبقة الارستقراطية الى اللغة العربية، ولكنها آثرت اللغات الاوربية الفرنسية والالمانية والانكليزية، تبعاً لصلات هذه الامم بالسلطان. ومكاتباتنا الرسمية تدل بجلاء على هذا التطور فقد كانت الصيغ الفارسية التركية شائعة اول الامر ، ثم حلت محلها الصيغ الانكليزية في مصر، والفرنسية في سورية ولبنان . بيد أن الوعي القومي تغلب على هذا كله ودعم اللغة العربية . ولكنه فضل اللغة الرسمية على سواها وأعان على خلق طبقة وسطى بين الطبقة الاجنبية الحاكمة والطبقة الشعبية المحكومة . ومن هنا زالت المثالية اللغوية عن المجتمع الراقي وأصبحنا مطالبين بالبحث عنها في بيئة اجتماعية اخرى .

ليست عندنا اذن « لغة الملك » كما يقول الانكليز، وليست عندنا اذن لغة النبلاء ، التي تدفع الناس الى محاكاتها دفعاً وهم ينزعون الى التطور أو ينشدون التقدم . وحسبنا أن نلتفت الى العنصر الديموقراطي في اللغة ، فان اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تنقسم بانقسام المجتمع الى طبقات . وللطبقات الدنيا لغاتها ولها تفننها ودأبها وقد كان النزوع نحو الديموقراطية في اوربا ابان القرن التاسع عشر باعثاً على التأمل في اللغة ، فصرح بعض الدارسين بان أساس الصواب والخطأ فيها، إنما هو السهولة، السهولة في القول ، السهولة في التلقي ، بحيث لا تصبح مقصورة على فئة قليلة من الناس . ولكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا

الاساس وحده لان السهولة ليست السمة الاساسية في اللغة ، وإن كانت مطلوبة في المجتمعات الديموقراطية .

وقد شعر رواد هذه النهضة الادبية بخطر الازمة اللغوية ، واعترف قاسم أمين بانه كلما أحس إحساساً قوياً رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ، وأن أحسن ما في نفسه بقي فيها مختفياً . وطالب بالتحلل من الاعراب ، واعتبره العقبة الكؤود في سبيل التعبير الفني . ومال غيره ، مسايرة للوعي الوطني ، إلى إيثار اللغة العامية وحاول أن يكتب بها فحاربه الرأي العام المتعلم ورده إلى اللغة الفصحى . وكان نصيب الادباء من هذه الازمة اللغوية أشد وأقوى ، وبخاصة في معالجة الدرامة والقصة ، فان السرد والتصوير والحوار جميعاً يجب ان تعالج بلغة حية نابضة بالشعور . وآثر بعضهم العامية في الحوار أول حياته وانتهى الأمر به إلى الفصحى . واتخذت الدرامة طريقين أحدهما فصيح والآخر عامي ، وحاول المرحوم المازني التخلص من المشكلة كلها بتتبع ما يُظن انه عامي من المفردات والتراكيب المستعملة على السنة الناس والعمل على رده إلى أصله العربي وزاوج بذلك بين مقتضيات الأدب الرسمي من ناحية ، ومقتضيات اللون المحلي في القصة من ناحية اخرى . أما تجربته في الدرامة فكانت مزاوجة بين الفصيح والعامي تبعاً لاختلاف الشخوص في السن والبيئة والطبقة . وتخلص غيره من عبء هذه الازمة بتقطيع الحوار تقطيعاً نفسياً يشيع فيه الوقف ويكثر الفصل ويقل الاسترسال مع المحافظة على الاعراب في بنية عباراته القصيرة . ولكن هذا كله لا يمكن ان يكون حلا كاملاً للازمة اللغوية ، لأن الازدواج لا يزال موجوداً . وقصارى التعليم ان يصل بين اصحابه وبين التراث الرسمي القديم ، ويباعد بينهم وبين الحياة المعبرة الموصولة .

واتخذت الصحافة لها طريقاً وسطاً ، فهي إنما تقوم بالذيوع والرواج ، فحافظت على القالب الرسمي ولكنها لم تتحرج من استعمال ما يطلق عليه المحافظون الحوشي والمبتذل ولم تأنف من التوسل بالعامي في كثير من الاحيان . ولم ترغب عن الدخيل الاجنبي اذا كان مفهوماً من قرائها وبخاصة المصطلحات الادارية والفنية التي لمّا تعرّب . وظهر في الميدان اللغوي الى جانب الصحافة عنصر جديد فعال ، قوّى من شأن العبارة الملفوظة ولم يحتفل بالمدون اطلاقاً وجعل لغته زاداً للمتعلمين وغير المتعلمين على السواء ، وهذا العنصر هو « الرداد » (كما أوثر أن أسمي الراديو) بيد ان القوامين على هذا العنصر لم يفطنوا الى خطره بعد ، وهم يتذبذبون بين لغات ولهجات ، يستعملون اللغة الرسمية في الاخبار وبعض الاحاديث ، ويستعملون اللهجات العامية مدنية وريفية وبدوية في الاحاديث الاخرى والتمثيليات . وبرز الى جانب هذا العنصر ، عنصر آخر اعتمد على الملفوظ ايضا وزاوج بينه وبين الصورة المتحركة . والمشرفون عليه يؤثرون العامي لاغراض تتصل بالتجارة ولا تتصل بالافادة والتوجيه ، وقلما يستعملون الرسمي حتى ولو امتد نشاطهم الى العالم العربي كله ، ولسنا نشك في أن هذه الوسائط قد غيرت طريق التطور اللغوي وستكون لها آثار حاسمة في علاج الازمة اللغوية .

وها أنت ترى ان الجيل الماضي من الادباء احس الازمة اللغوية وحاول ان يعالجها ولكنه لم يوفق ، وكان السبب في فشله ، اعتماده اولاً واخيراً على تراث اللغة الرسمية فحسب وتشبثه بقوالب هذا التراث مما وعّر طريقه في اصطناع الفنون الادبية الجماعية كالدرامة والقصة . وقد صح عندك ان الحلول الجزئية والظاهرية لا تشفي المجتمع من هذه المحنة . والافراد القلائل مهما كانوا ومهما كانت عبقرياتهم ومهما بلغت أقدارهم في المجتمع ، لا يستطيعون أن يفرضوا على هذا المجتمع منهجاً لغوياً بعينه . فاذا أضفت الى هذا كله أتساع التعليم وعدم اقتصاره على المدارس وقيام وسائط اخرى بالافادة والتفنن كالرداد والسينما ، أدركت معي ان الحياة جادة في علاجها والقضاء عليها ، وانها تقوم بمختلف التجاريب في هذا السبيل ، وان ما يظن انه فشل وقصور ، سيصل بها في النهاية الى التوفيق الكامل في محو الازدواج اللغوي وما يستتبعه من آثار في سلوك الافراد والجماعات .

القاهرة — **عبد الحميد يونس**

لا شرقَ ولا غربُ !

بقلم أنيس الخوري المقدسي

تسري على الألسنة والأقلام عبارة تعزى إلى الشاعر الانكليزي «كبلنغ» وهي قوله «الشرق شرق والغرب غرب والاثنان لن يلتقيا» . والواقع أن هذه العبارة قديمة ، فقد وردت في رسالة ابن زيدون الهزلية ، إذ يقول «وهلاّ علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان» . والذين يرددونها أو يستشهدون بها يذهبون إلى أن بين الشرق والغرب حواجز من التقاليد والعادات والمعتقدات تحول دون اتصالهما وتقضي بان يظلا متباعدين بل متقاطعين كأنهما من طينتين مختلفتين أو عقليتين جدّ متباينتين . ونحن لا ننكر ما بين بعض الجماعات في الشرق وبعض الجماعات في الغرب من تباين البيئات واختلاف المعتقدات والعادات. ولكن ذلك لا يعني أن وجوه الاختلاف والتباين هي ملكات راسخة لا تتغير مع الزمن وأن الناس خُلقوا ليظلوا الى الابد على ما نشأوا عليه في بيئتهم وما اقتبسوه من عادات أسلافهم . فالذي يلقي نظرة واحدة إلى الوراء يستطيع أن يرى حالاً أن الفرق بين الجيل الشرقي الجديد وبين الغربيين أقل بكثير مما كان أيام آبائهم وأجدادهم الاقربين . وهذا الفرق يزداد كلما مشينا رجوعاً في أروقة التاريخ ، وما ذلك إلا لتطور أسباب الانتقال والاتصال . فالارض التي كانت قبل مئة سنة بل قبل خمسين أو أقلّ واسعة الارجاء يعسر الوصول إلى أطرافها والتنقل في أرجائها قد انكمشت اليوم على نفسها انكماشاً تلاشت معه الابعاد فسهل على الامم المختلفة الامتزاج والاشتراك في أسباب المدنية الجديدة حتى إنك لتجد في أواسط افريقيا وآسيا ما تجده في اوربا واميركا من وسائل العمران وأسباب الرفاه .

العالم اليوم عالم واحد والامم شرقيها وغربيها مرتبطة فيه – على درجات متفاوتة – بروابط الحياة الجديدة ، وهي تتلاقى في عدة نواح أهمها ما يلي :

١ – **الناحية المادية** : فالانسان الذي كان قبلًا يقضي الاسابيع بل الاشهر ليقطع المسافة بين الشرق العربي والولايات المتحدة أو البرازيل يكاد الآن يثب فوقها وثباً في ساعات معدودة . يفعل ذلك بطيارة يركبها فيجد فيها كل أسباب الراحة والعناية ، حتى إذا وصل إلى المطار الذي يقصده ، استقل سيارة إلى حيث يشاء ، فاذا استقرّ في منزله أو في محل عمله وجد إلى جانبه تلفوناً يخاطب فيه من أراد في أية ناحية من نواحي المعمور وآلة راديو تأتيه بالالحان والأخبار والاحاديث من أهم محطات الاذاعة في العالم ، ولو جاء الغربي إلى أية مدينة أو بلدة من بلدان الشرق حتى النائية منها عن مراكز العمران لوجد ما ألفه في بلاده من مصنوعات وبضائع طريفة ومساكن حديثة وشوارع منظمة وفنادق فاخرة وغير ذلك من ظواهر العمران ، ولما تعذر عليه أن يجد كثيرين يحدثونه بلسانه حتى ليشعر كأنه بين أهله وخلاّنه .

٢ – **الناحية العلمية** : ان الغرب والشرق اليوم يستقيان من منهل واحد . فالجيل الجديد سواء أكان في اوربا واميركا او كان في الشرق العربي وبلاد الهند والصين وسائر البلدان يتخرّج في مدارس حديثة هي على اختلاف مناهجها بالنسبة الى مطالب بيئتها واحدة من حيث اسس المعرفة العامة وأنواع العلوم الكونية والاجتماعية . وانك لترى في معاهد اوربا واميركا ألوفاً من الطلاب الشرقيين يؤمونها لاتمام دراساتهم او للتخصص في بعض الفروع التي تهمهم . وفي هذه المعاهد لا يشعرون أنهم غرباء عما ألفوه من طرق الدرس في اوطانهم وما تلقنوه من المعارف في معاهدهم . ذلك لأن العلم واحد وهو من أهم الروابط التي تربط البشر وتوطد حسن التفاهم بينهم فيتعاونون على ما فيه الخير المشترك والتقدم العام . ومن الخطأ ان نقول ان العلم الشرقي واحد والعلم الغربي آخر ، وما اهل العلم مهما اختلفت بلدانهم إلا كتيبة واحدة للبحث عن الحقيقة ، يشهد بذلك ائتلافهم في مؤتمرات دولية عامة كالتي شهدناها هذه السنة في بيروت والتي نشاهدها كل سنة في أنحاء مختلفة من هذا المعمور حيث يجلس البحاثون والمفكرون بعضهم الى بعض يتبادلون الافكار والآراء ويطّلعون على ما استجدّ من نتائج البحث والتنقيب . ولا يفصل الامم بعضها عن بعض إلا الجهل – الجهل الذي يدفع صاحبه الى الانكماش ضمن دائرته الضيقة من معتقدات فاسدة وتقاليد بالية فلا يحتك بسواه ليهوى ويقابل ويستنير . ومن هنا ينشأ سوء الظن وعدم التفاهم وما يتبعهما من

تمايز إقليمي او جنسي او ديني .

٣ – **الناحية الروحية** : ونعني بها نظرة الانسان الى المثل العليا وموقفه منها . ولا مراء ان بين الامم اختلافات كثيرة من حيث الآراء والاوضاع السياسية . فكما انه من هذا القبيل لا يصح ان نتعامى عن حقيقة الاختلاف بين امة اوربية واخرى او بين كتلة غربية وكتلة اخرى كذلك لا يصح ان نتعامى عن الحقيقة الواضحة ان الشرق شرق والغرب غرب . فالمطامع والاهداف السياسية تفرق الامم بعضها عن بعض شرقية كانت أم غربية ، ومن العبث أن نرجو الائتلاف الدائم عن طريق المصالح السياسية لان هذه تتغير بتغير الظروف والاوقات . على أن هناك برغم ذلك رابطة عامة تربط الامم المتمدنة وتجعل منها كتلة روحية واحدة . وهي تظهر في الميل العام الى احترام حقوق الانسان واعتبار البشر في الشرق كما في الغرب متساوين في الحقوق والواجبات . وعلى ذلك قررت الامم المتحدة إعلان حقوق الانسان والحرية الفردية ووجوب رفع المستوى العام والمحافظة على الامن والسلام . واعتبار الانسان نفساً لا آلة تستخدم لمصلحة فرد أو دولة .

ونحن الذين قد تعودنا منذ الحرب العالمية الاولى أن نسمع بالمواثيق الاجتماعية والبراءات الانسانية والتصريحات السياسية قد نقف وقفة المتشائم ونقول : إن هي إلا تخديرات يستخدمها الاقوياء لاستغلال الضعفاء . ولعل لنا في هذا التشاؤم بعض العذر فقد علمتنا الايام أن لا نصدق كل ما يقال وأن لا نغتر بظواهر الحال . ولكن مهما تشاءمنا فان التشاؤم لا ينفي الحقيقة ، ان العواطف الانسانية الراقية في الشرق وفي الغرب هي اليوم واحدة من حيث الايمان بالحق والتوق إلى كل ما يوطده ويرفع شأن الشخصية البشرية . هكذا يلتقي الشرق والغرب على صعيد واحد . كلاهما يعترف بحقيقة المثل العليا والقيم الروحية ولا يرى من سبيل حقيقي للسلام إلا بالسعي نحوها .

ان العالم يجتاز اليوم مرحلة من اشد المراحل خطراً في تاريخه . فهو اذ يحاول الاستقرار بعد حرب زعزعت اركانه مادياً وروحياً يرى امامه شبح حرب اخرى لا يعرف غير الله مدى الفظائع التي ستنجم عنها . وسواء تغلبت قوى الخير التي يرجوها الناس عموماً اوقوى الشر التي تستهوي قلوب البعض من اصحاب الاغراض والمطامع ، فان الغربي لا يستطيع بعد الآن احتكار المدنية الحديثة كما ان الشرقي لا يستطيع الوقوف بنجوة عنها . في مدنية القرن العشرين لا شرق ولا ولا غرب بل انسان متمدن او غير متمدن – امة حية نشيطة تسير حرة الى الامام ، او امة رجعية تساق سوق الأنعام .

ومهما غالينا في تاريخنا الماضي ومهما فاخرنا بما قدمناه للاجيال من خدمات روحية وغير روحية فان تيار الحياة الجديدة المندفع من الغرب يغمرنا ولا قبل لنا برده أو الوقوف في وجهه .

ولا يعني ذلك ضياع مقوماتنا القوميـة واللغوية بل يعني توطيدها على اسس قوية من المعرفة والنظام والتعاون .

وانا لنحسن الى انفسنا والى اوطاننا إذا فهمنا هذه الحقيقة . ان الامة مهما كانت صغيرة فان قوتها تكون بالنسبة الى تقدمها في ميدان الحضارة . فلنعزز كياننا بالسير مع مواكب الامم الراقية ، الامم الحية التي عرفت كيف تطبق العلم على حياتها العملية ، وكيف يتعاون أفرادها على رفع مستواها بين البرية . ولنحرر انفسنا من كل تقليد يقف عثرة في سبيل تقدمنا وكل فساد يؤول الى ضعفنا .

ان المدنية واحدة – لا شرق ولا غرب – فهل نحن نعيش في قلب هذه المدنيـة ام لا نزال على بعض حواشيها القصية ؟

انيس الخوري المقدسي



كان لديهما شعور مشترك بالراحة والدفء . ولم ينقصهما شيء . لقد انتهتا من الطعام قبل قليل وجثمتا الى جانب بعضهما في شمس الظهيرة الدافئة واخذتا تحلمان احلام النهار وتتنسمان بهدوء انفاس الربيع المقبل تهب عليهما من الحقول القريبة .

كان بعض الاطفال بثيابهم الملونة يثيرون ضجة على السدة . والرجال والنساء في حركة مستمرة . وكانت اصوات تنبعث من الاكواخ والبساتين المشتبكة وراءها. وضجيج مثل ضجيج العيد يرتفع في الفضاء – ضجيج فقير بالمرح والسرور تسوده خيبة امل كالتي تسود اعياد الفقراء في كل مكان . ولكن لم يكن شيء من ذلك ليضير الصديقتين او ينتزعهما من حلمهما الدافيء المنساب الى شواطيء مجهولة. كان الشعور بالامتلاء يغمر نفسيهما . وكانتا تنظران الى بعضهما احياناً والى دوامات النهر الذي اضحى بلون الطين وارتفع حتى لامس حوافي الشاطيء . او تصغيان برهة الى ضجيج الاطفال وهدير النهر الثائر واصوات القاطنين في الاكواخ التي تسرب اليها الماء وغمر قاعها . ولكن لم يكن شيء من ذلك ليخرجهما من عالمهما المنعزل القصي . كانتا في مأمن من كل شيء.. تنعمان بدفء الشمس والشعور اللذيذ بانهما قريبتان من بعضهما كل ذلك القرب .. وتلوكان تحت النخيل السامق احلام نهار جميل عابق بانفاس الربيع المقبل.

في الليل كان هدير النهر الثائر يملأ الفضاء . ويطل عليهما – على السقيفة وعلى العائلة باجمعها – قمر شاحب يتسلل بين الغيوم . والريح تصفر اغنية حزينة في رؤوس الاشجار . وتحت رذاذ الظلام الرمادي كانت تتحرك اشباح ومخاوف غريبة انتزعت منهما دفء النهار وبقايا الاحلام المشعشعة اللذيذة . فالتصقت الصديقتان ببعضهما تنشدان الدفء واخذتا تتأملان بصمت حزين وترسلان انفاسهما الهادئة عبر الظلام .

وكانت حركة صاخبة عند الفجر . اشباح تضطرب هنا وهناك . والفانوس يتألق في يد احدهم . وقطرات كبيرة ثقيلة من المطر تنزل على ظهريهما . واصوات الهلع والفزع في كل سقيفة . والهدير الجبار وانين الريح المعولة في رؤوس الاشجار . كانت السماء قطعة واحدة سوداء . وكان وجه رب البيت يلتمع في ضوء الفانوس الأسخم ، يأمر العيال بالرحيل . وتشتد الحركة الصاخبة ويخرج الحمار اولاً متهادياً محملاً بالمتاع وتتبعه الاسرة جميعها .. وتخوض الصديقتان في الماء عندما تعبران الى العراء . ماء ثقيل ينزل من السماء . وماء تمجه الارض النشوى بالهدير المجنون . وتغرق الاكواخ . وتبقى منها هياكل من القصب والحصير وجلاميد الطين المنهار . اشباه منازل . اشباه زرائب فارغة تعصف بها الريح . وتسير الصديقتان خافضتي الرأس .. تتبعان الاسرة المشردة نحو ارض قد تكون بعد كل ذلك العناء صلبة ثابتة في منجى من الفيضان .

لغط كثير في العراء . وحركة لا تكاد تستقر . والشمس تنشر نسيجاً هزيلاً يتهافت على المتاع المبعثر فوق الارض . تراث رخيص لحيوات كثيرة رخيصة . وماض مدلهم يبدأ انطلاقه بجهاد شاق وينتهي افقه عند هلال من خبز فطير . وموت في الحياة بطيء وموجة من البرد الطاغي ترعش جلد الارض .

عند الظهيرة همد الضجيج وتفرق الافراد جماعات صغيرة – نقطاً ضئيلة مبلولة لاصقة بالارض . وبقيت الصديقتان وحدهما تحت نخلة مستوحدة عجفاء تطل عبر الدهور بثبات غريب . دائرة صغيرة من الارض هي كل ملكهما الآن . ولم يعد اهلوهما يملكون شيئاً . كانوا على مقربة منهما يلغطون ويتشاجرون . وكان صوت رب الاسرة يدوي في العراء . وسعف النخلة يرسل حفيفاً متقطعاً وانيناً يثير النعاس والاحلام الحزينة والذكر البائرة . وكان صوت رب الاسرة يدوي في العراء . وكان يبصق على الارض بحنق .

« لا ، لن اتنازل عن هذه الجبلية الحمراء .

انها تدر سطلين من الحليب كل يوم .

وحتى السوداء .. آه لو لم اكن في ضيق لما بعتها .

خذها خذها انها كريمة الاصل كأختها الجبلية .

خذها انها فلذة مني . انها جزء من حياتي.

خمس سنين عشت معهما، آه طفلتاي . وهما صديقتان صديقتان .

لا تكادان لحظة تفترقان . كل يوم معا .. كل يوم منذ خمس سنين .

ويلي عليهما . بل ويلي على نفسي . ماذا اكون بعدهما ؟

اوه خذها خذها . خذ السوداء قبل ان انفجر كالمرأة بالبكاء »
وكانت البقرة السوداء قد اخرجت لسانها الوردي العريض واخذت تلحس به رقبة صديقتها الحمراء ، والحمراء كانت تجتر بالتذاذ هادىء ما التقطته من أعشاب في الصباح . وتتأمل في النسيج الفضي البارد الذي تذره الشمس الباهتة من عليائها . ولعلها كانت تسترجع من ظلمات يافوخها العميق ذكريات جبل شامخ غطي سفحه القديم بالجليد .

كانت السباخ السوداء تحيطها من كل جانب . وذرات الملح تقبس شيئاً من الشعاع الفضي الغارب وتلتمع كالنجوم في اخاديد الطين الثخين . والمساء ينمو دقيقة دقيقة . ويشيع في السباخ همودا اشبه بالموت وشعوراً كئيباً بالفراغ تخلف عن جلبة نهار لاغب طويل .

لقد ارتفع صوت اشبه بالنواح من وراء الصديقتين . وكان رب الاسرة يشتم العيال وينهال عليهم بضرب شديد . ثم هدأ كل شيء فجأة . وعادت النخلة ترسل اغانيها الشجية في الفضاء . واسترسلت الصديقتان في احلامها المظلمة الحزينة . وهما تجتران بهدوء ما تناولتاه اثناء النهار من طعام .

لقد جاء احدهم . كان يقترب منهما . شبح قاتم في الضوء الرمادي . وكان هزيلا ملثماً تلتمع عيناه الصغيرتان بين اطواء اللثام . وامتدت الى العقدة التي تربطها يد يابسة سمراء طوحت بالحبل باعتداد مقيت وضربت به على ظهر السوداء ضربتين قاسيتين . ولم تكونا تدريان كيف حدث كل ذلك . لقد ارتفع نواح مخنوق من ورائها ، ثم همد . وكان رب الاسرة يبصق على الارض بحنق .

وادركت الحمراء انها وحدها . بقيت وحدها في العراء . وصديقتها السوداء تغيب وراء صاحبها في الافق البعيد — نقطتان مظلمتان تتحركان في الافق البعيد . ولم تعد ترى شيئاً . كان فراغ هائل يملأ نفسها . وداع خمس سنين من الحياة — الحياة التي لن تعود . واشاحت برأسها عن الافق . وارتفع من اعماقها المظلمة ثغاء أليم .. ثغاء طويل حزين اخذ ينتشر في ظلمة الليل فوق السباخ الهامدة السوداء .

كانت النخلة العجفاء وحدها تطل بثبات فوق القفر الجائع الزاخر بالموت البطيء . وترسل اغانيها الشجية عبر الدهور .

بغداد **عبد الملك نوري**

الى الأمل الذي لا يموت

•

ذكراك حافلة ، كينبوع على بلدي ، يميدْ
وصداك متصل النسرى ، وخطاك اكبر أن تبيد
في موطني تحيا ، وفي عِرْق المدائن ، والوريد

★

في كل نبض من حياتك ، نابضٌ قلبٌ وليد
وبكل حرف من بيانك ، ذائبٌ حب جديد
فالأرض سيمفونية ... في كل منطلَق نشيد

★

لفتاتُ وجهك هزّةٌ ، في الموطن النائي البعيد
ونهوض خطوتك الشديد نهوض إنسان شديد

★

حيث اتجهتَ ، دمٌ يغنّينا ، فيلتفت العبيد ،
ورنين أحرارٍ يهبُّ — تقول : هل سكت الحديد ؟
وجبين طفلٍ ، كالصباح امتد في الحقل المديد .

★

الطيّبون هنا ، أيادٍ ، من عطائك تستزيد
ألهبتَ ، بالأمل الورى ، فبكل ضلع منه عيد

★

لمحبّتي إياك ، أصفيتُ الهوى وطني الشهيد .

حمص **نصوح فاخوري**

القصة والثورة

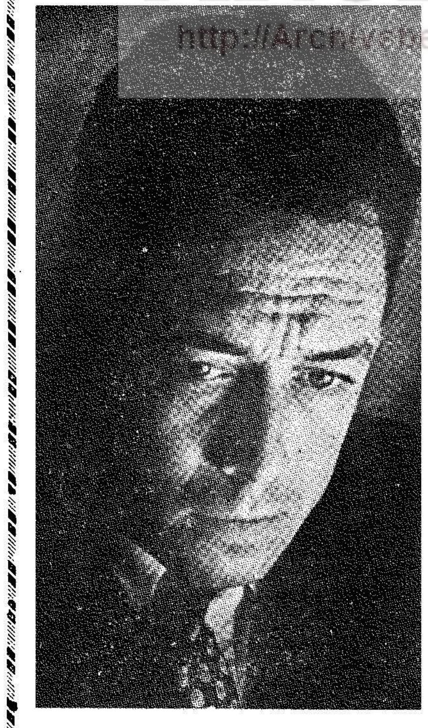
بقلم البير كامو

من الممكن فصل ادب «القبول»، الذي يتلاءم جملة مع القرون القديمة والقرون الكلاسيكية، عن ادب «الانشقاق» الذي يبدأ مع الازمنة المعاصرة. ولا بدّ إذ ذاك من ان تُلاحظ ندورة القصة في الادب الاول. وهي إن وُجدت فانها لا تعني التاريخ وإنما الذوق والهوى، وهي في مجموعها حكايات لا قصص او روايات. اما في الادب الثاني، فينمو الاتجاه القصصي الذي لا يني ينبسط ويغتني حتى ايامنا كما تنمو الحركة النقدية والثورية. والواقع ان القصة تُولد في الوقت نفسه الذي تولد فيه الثورة، وتعبر، على الصعيد الجمالي، عن الرغبة نفسها.

جاء في قاموس «ليترا» عن القصة «انها حكاية متخيّلة مكتوبة بالنثر». أليست هي إلاّ هذا؟ ومع هذا فقد كتب الناقد الكاثوليكي «ستانيسلاس فوميه» يقول: «ان الفن، أياً كان هدفه، يقوم دائماً بمنافسة مجرمة لله». وقد عبّر «تيبوديه» عن فكرة مشابهة في اثناء حديثه عن بلزاك حين قال: إن «الملهاة البشرية» هي «تقليد» «الاله الاب». ويظهر ان جهد الادب الكبير يتجه نحو خلق عوالم مغلقة او نماذج ناجزة. وان الغرب لا يقتصر في ما يخلقه، على رسم حياته اليومية، وانما هو يحلم، دون توقف، بصور كبيرة تشغله فيمضي في ملاحقتها.

وأياً ماكان، فان كتابة قصة او قراءتها عمل غير عادي. ذلك ان بناء حكاية بترتيب جديد لوقائع حقيقية ليس له شيء من المحتوم او الضروري. وحتى لو صحّ التعليل العامي بلذة الخالق والقارىء، فينبغي التساؤل: ما هي الضرورة التي تجعل معظم الناس يشعرون باللذة والاهتمام تجاه حكايات متخيّلة؟ إن النقد الثوري يقضي على القصة الصرف بانها فرار فكر عاطل. واما التفكير العام فيسمّي «قصة» حكاية مختلقة كتبها صحفي غير بارع. ومنذ حين من الزمن، كان العرف يقضي هو ايضاً، ضد منطق الواقع، بأن تكون الفتيات «خياليات حالمات» على غرار ابطال القصص؛ وكان المقصود بذلك ان تلك المخلوقات المثالية لم تكن تكترث او تهتمّ بحقائق الوجود. وقد قام الاعتبار، بصورة عامة، بأن ما هو قصصيّ وروائي ينفصل عن الحياة، وانه يجمّلها فيما هو يخونها. وعلى ذلك، تكون ابسط صورة لمواجهة التعبير القصصي هي في اعتباره تمرين فرار، وهكذا يلتقي المعقول العامّ بالنقد الثوري.

ولكن مِمّ نفرّ بواسطة القصة؟ أمن واقع نعتبره شديد القسوة والارهاق؟ إن السعداء يقرأون هم ايضاً القصص والروايات، ومن الثابت المألوف ان العذاب الشديد يقتل الرغبة في القراءة. ثم ان العالم القصصي، من جهة اخرى، وزناً وحضوراً اقلّ مما لذلك العالم الآخر حيث تحاصرنا، دون ماهدنة، كائنات من لحم ودم. ومع ذلك، فما هو السرّ في ان «ادولف» يبدو لنا كشخص اكثر ودّاً وقرباً من بنجمان كونستان، والكونت



Albert Camus يعدّ البير كامو من اكبر ادباء فرنسا ومفكريها اليوم. وفي تفكيره اتجاه ثوري خاص يؤلف من مجموع آثاره نظاماً شبه فلسفي حول الثورة بكل معانيها. وقد نشر المؤلف اخيراً كتابه «الانسان الثائر» L'Homme Révolté الذي ضمنه خلاصة فكرته او فلسفته الثورية، والذي أحدث ضجة كبيرة في الاوساط الفكرية في فرنسا. وقد رأت «الآداب» ان تنقل الى العربية فصلاً من هذا الكتاب بعنوان «القصة والثورة « Le Roman et la Révolte

موسكا من فلاسفتنا الاخلاقيين المتهنين ؟ لقد أنهى بلزاك ذات يوم حديثاً طويلاً عن السياسة ومصير العالم بقوله : « والآن لنعد الى القضايا الهامة » وكان يعني بذلك الحديث عن رواياته . والحقيقة ان « حسّ الفرار » لا يكفي لشرح خطورة العالم الروائي ، التي لا جدال فيها ، كما لا يكفي لشرح إصرارنا على ان نعزو أهمية كبرى الى الاساطير التي لا تعدّ والتي لا تنفك العبقرية الروائية منذ قرنين تقدّمها لنا . ولكن هذا الرفض ليس مجرد فرار . فهل ينبغي ان نرى فيه حركة تراجع الروح التي تخلق لنفسها في خيبتها ويأسها ، على ما يقول هيجل ، عالماً مصطنعاً تسود فيه الاخلاق وحدها ؟ إن « رواية البناء » مع ذلك تظل بعيدة عن الادب الخالد ، وان « بول وفرجيني » وهي خير « الروايات الوردية Romans Roses » ليس فيها ما يحمل العزاء ، بالرغم من انها محزنة مؤثرة .

إن وجه التناقض هو هنا : الانسان يرفض العالم كما هو ، دون ان يرضى بالفرار منه . فالواقع ان الناس متعلقون بالعالم ، وهم لا يرغبون باغلبيتهم العظمى ، في ان يتركوه . انهم لا يريدون دائماً ان ينسوه ، بل هم ، بالعكس ، يتألمون من انهم لا يمتلكونه امتلاكاً كافياً ، فما اعجبهم مواطني عالم ، منفيين في وطنهم الأصيل ! إن كل حقيقة في نظرهم غير ناجزة ، الا في هنيهات الكمال الساطعة . وإن اعمالهم تفلتُ منهم في أعمال اخرى ، وتعود لتحكم عليهم بشكل وجوه غير منتظرة ، وتفرّ كماء « تانتال » نحو مصبّ لا يزال مجهولا : ومعرفة هذا المصبّ ، والسيطرة على مجرى النهر ، والقبضُ على الحياة اخيراً على انها مصير ، تلك هي كآبتهم وحنينهم الحقيقيان ، في صميم وطنهم . على ان هذه الرؤيا التي تصالحهم اخيراً مع انفسهم ، في المعرفة على الاقل ، لا يمكن ان تظهر ، إذا هي ظهرت ، إلا في لحظة الموت الهاربة : فكل شيء ينتهي فيها .

هنا يولد هذا الحسدُ الشقي الذي يحمله كثير من الناس لحياة الآخرين . فحين نُرى هذه الحيوات من الخارج ، يُعزى اليها انسجامٌ ووحدة لا يمكن في الحقيقة ان تتمتع بها ، وإن كانا يبدوان واضحين للناظر . إن الانسان لا يرى من هذه الحيوات الا خطّ الذروات ، دون ان يدرك الثنايا التي تآكلها . واذ ذاك نستغل هذه الحيوات للفنّ فنخرجها قصصاً وروايات ، بشكل بدائي . وفي هذا المعنى يحاول كلٌّ ان يصنع من حياته عملاً فنياً . اننا نرغب في ان يستمر الحب مع علمنا بانه لن يستمر . وحتى لو قُدّر له ، بمعجزة ، ان يستمر طوال حياة ، فهو يظلّ غير ناجز . فربما كنا نستطيع ، في هذه الحاجة التي لا تُروى للبقاء والاستمرار ، ان ندرك العذاب الارضي ادراكاً احسن لو كنا نعرف انه سرمدي . ويخيّل الينا ان النفوس الكبيرة يرعبها انها لن تدوم ، اكثر مما يرعبها الألم . فلئن فات أملاً طويلاً ان يحقّق سعادةً لا يمكن استنفادها ، فلا يفوته ان يحقّق مصيراً من المصائر . ولكن لا ، فان اسوأ عذابنا سينتهي يوماً . وذات صباح ، بعد هذا اليأس المتمادي ، ستبشّرنا رغبة ملحة في الحياة بان كل شيء قد انتهى وان العذاب بات لا يعني الا السعادة .

وليست رغبة الامتلاك الا شكلاً آخر من اشكال إرادة الاستمرار ؛ فهي التي تنتج هذيان الحب العاجز . وليس هناك من نمتلكهم ، حتى اشد من نحبّهم ويحبوننا . فعلى الارض القاسية حيث يموت الاحباء احياناً منفصلين ويولدون دائماً منقسمين ، يبدو امتلاك كائن ما امتلاكاً كلياً مطلباً مستحيلاً. إن رغبة الامتلاك تظل من الحرمان بحيث انها يمكن ان تعيش اطول مما يعيش الحبّ نفسه ، فيصبح هذا الحب عندئذ تعقيماً للمحبوب ، ويكمن عذاب المحبّ ، المنعزل بعد الآن ، في معرفته بان الآخر يستطيع وينبغي له ان يحبّ ايضاً ، اكثر مما يكمن في كونه غير محبوب بعد . وهكذا ينتهي الأمر بكل انسان تتآكله رغبة الاستمرار والامتلاك الى ان يتمنى للكائنات التي احبها العقم او الموت . وهذه هي الثورة الحقيقية. وإن الذين لم يطلبوا ، ذات يوم على الأقل ، الطهارة المطلقة للكائنات وللعالم ، اولئك الذين يُؤدّون دائماً الى حنينهم للمطلق فلا يهدمهم ان يحاولوا الحب نصف محاولة ، إن اولئك لا يستطيعون ان يدركوا حقيقة الثورة ورغبتها الجنونية في الهدم . ولكن الكائنات تفرّ دائماً ونحن نفوتهم ايضاً . انهم لا هيئات لهم ، والحياة ، من هذه الزاوية ، لا هيئة لها . فهي ليست الا حركة تعدو وراء شكلها دون ان تجده ابداً . والرجل الممزّق على هذا الشكل يبحث عبثاً عن هذا الشكل الذي يكسبه الحدود التي يكون مَلِكاً داخلها . فلتكتمل هيئة شيء واحد حي في هذا العالم ، يصلح هذا العالم !

وليس هناك اخيراً كائن ينعم بمستوى بدائي من الوعي ، إلا ويستنفد قواه في البحث عن الطرق او المسالك التي تكسب وجوده الوحدة التي تنقصه . والشأن في ذلك شأن هذه العلاقات

المسكينة الرقيقة التي تدوم احياناً وقتاً طويلاً من الزمن لأن احد اصحابها يترقب ان يجد الكلمة او الحركة او الموقف الذي يؤلف من مغامرته حكاية منتهية وموضوعة في اللهجة الصادقة، فكلٌ يخلق لنفسه او يقترح كلمة النهاية. فليس يكفي الانسان ان يعيش، وانما ينبغي له ان يخلق مصيره دون ان ينتظر الموت. فمن الصحيح اذن ان يقال إن في رأس الانسان فكرة عن عالم خير من هذا. ولكن «خير» لا تعني مختلفاً، وانما تعني موحداً. هذه الحمّى التي ترتفع بالقلب فوق عالم متناثر لا يستطيع مع ذلك ان ينفصل عنه – هي حمّى الوحدة. انها لا تصب في فرار عادي، وانما في مطالبة هي اعنف ما تكون المطالبة. وكل جهد انساني، ديناً كان ام جريمة، يستجيب آخر الامر الى هذه الرغبة الشاذة، ويسعى الى اعطاء الحياة الشكل الذي ليس لها. والحركة المماثلة التي يمكن ان تدفع الى عبادة السماء او هدم الانسان تقود كذلك الى الخلق الروائي.

فما هي القصة، في الحقيقة، اذا لم تكن هذا العالم الذي يجد فيه العمل شكله، حيث تلفظ كلمات النهاية، وحيث تنفتح النفوس للنفوس، وحيث تتخذ كل حياة وجه القدر والمصير[1] إن العالم الروائي ليس إلا تصحيحاً وتقويماً لهذا العالم الادنى، وفقاً لرغبة الانسان العميقة. لان القضية قضية العالم نفسه: الالم هو نفسه، وكذلك الكذب والحب. وإن الابطال يتحلون بنطقنا وبضعفنا وبقوتنا. وليس عالمهم اجمل ولا اميل الى البناء من عالمنا. ولكنهم هم يسيرون، على الاقل، حتى نهاية مصيرهم. وليس هناك ابطال اشد تأثيراً من اولئك الذين يذهبون حتى آخر حدود عواطفهم، امثال كيريلوف وستافروغين ومدام غراسلين وجوليان سورال والبرنس دوكليف. فعند هذا الحد نفقد مقياسهم، لأنهم ينجزون آنذاك ما لا ننجزه نحن ابداً.

فهذا إذن عالم خيالي، ولكنه إنما خلق بتصحيح هذا العالم الادنى، عالم يستطيع الالم فيه اذا شاء ان يستمّر حتى الموت، عالم لا تُصرف فيه العواطف والرغبات عن نفسها، وتسلم فيه النفوس الى الفكرة الثابتة وتظل حاضرة فيما بينها. إن الانسان في هذا العالم يعطي بنفسه الشكل والحدّ المخفّف اللذين يلاحقهما عبثاً في وضعه الدنيوي. إن القصة تصنع الاقدار على مقاييس معينة، وهي بذلك تنافس الخلق وتنتصر، مؤقتاً، على الموت. وإن تحليلاً مفصلاً لأشهر القصص يثبت، في نظرات مختلفة، ان جوهر القصة هو في هذا التصحيح والتقويم الدائمين الموجهين في اتجاه واحد والذين يجريهما الفنان على تجربته. ويهدف هذا التصحيح، دون ان يكون اخلاقياً او قطعياً محضاً، الى الوحدة قبل كل شيء، ويعبر بذلك عن حاجة ميتافيزيكية. والقصة، على هذا الصعيد، هي اولاً تمرين فكري في خدمة حساسية حنّانة او ثائرة. وبالامكان دراسة هذا السعي وراء الوحدة في القصة التحليلية الفرنسية وعند ملفيل وبلزاك ودوستويفسكي وتولستوي. على ان مقابلة بسيطة بين محاولتين تقفان في الحدود المتعارضة من العالم القصصي، نقصد الخلق لدى بروست واتجاه القصة الاميركية في السنوات الاخيرة، تكفي لاثبات هذه النظرية.

ان القصة الاميركية[1] تسعى الى ايجاد وحدتها بتحويل الانسان إما الى البدائي واما الى تصرفاته وردود فعله الخارجية فهي لا تختار عاطفة او رغبة لتقدم عنها صورة ممتازة، كما هو الشأن في قصصنا الكلاسيكية. انها ترفض التحليل والبحث عن ذريعة نفسية رئيسية تشرح وتلخص مسلك بطل من الابطال. ولهذا لم تكن وحدة هذه القصة الا «وحدة اضاءة»، وتقنيتها تتلخص بتصوير الناس من الخارج، في حركاتهم اللامبالية، وبسرد محاوراتهم بترديداتها[2] دون ما تعليق، كما لو ان الناس يعرّفون انفسهم تعريفاً كاملاً بحركاتهم الاوتوماتيكية اليومية. والواقع ان الناس، على هذا الصعيد الآلي، متشابهون، وفي ذلك تفسير هذا العالم العجيب حيث يبدو جميع الاشخاص قابلين للتبادل، حتى في مفارقاتهم المادية! ان هناك سوء تفاهم في وصف هذه التقنية بانها واقعية. فمن البديهي ان هذا العالم الروائي لا يرمي الى نقل الواقع نقلاً بسيطاً خاماً، وانما يهدف الى تنميقه وتأليفه من غير ما قاعدة. انه يولد من عمليات بتر تُجرى للواقع، فتصبح الوحدة هكذا وحدة متدرجة، تسوية وتعديلا للكائنات وللعالم. ويبدو بالنسبة الى هؤلاء القصاصين، ان الحياة الداخلية هي التي تحرم الافعال

---

(١) وحتى لو لم تعبر القصة إلاعن الكآبة واليأس والناقص، فهي تخلق ايضاً الشكل والسلام. فان في تسمية اليأس تجاوزه. والادب اليائس هو تناقض في العبارات.

(١) نقصد القصة «العنيفة» لسنوات ١٩٣٠ و ١٩٤٠، لا الازدهار الرائع للقصة الاميركية في القرن التاسع عشر.

(٢) وحتى لدى فولكنر، كبير كتاب هذا الجيل، لا تعطي «المحاورة الداخلية» الا قشرة الفكرة.

البشرية وحدتها وتسلب الناس بعضهم بعضاً . وهذه الفكرة لها ما يبررها جزئياً . ولكن الثورة ، التي هي مصدر هذا الفن ، لا تستطيع ان تجد رضاها إلا بصنع الوحدة على اساس هذه الحقيقة الداخلية ، لا بانكارها . فان انكارها كلياً يعني الرجوع الى انسان خيالي . واذا لم تتعد حياة الاجسام حدودها المادية، فهي تنتج عالماً مجرداً مجانياً ، ينكره الواقع بدوره دائماً، فهذه القصة التي يبدو الناس فيها مراقَبين من خلف زجاج تنتهي منطقياً ، إذ تتناول الانسان الوسط موضوعاً فريداً لها ، بان تضع على المسرح الانسان المريض . وهذا ما يفسر ان عدد « الأبرياء » المستعملين في هذا العالم هو كبير جداً . فالواقع ان «البريء» هو الموضوع المثالي لمشروع كهذا ، ما دام غير معبر عنه تعبيراً كلياً الا بمسلكه وتصرفاته . انه رمز هذا العالم المؤسى حيث تعيش التماثيل المتحركة الشقية في انسجام صناعي جداً ، هذا العالم الذي نصبه الروائيون الاميركيون تجاه العالم العصري كاحتجاج مؤثر ، ولكنه عقيم .

واما بروست ، فقد كان جهده متجهاً الى ان يخلق من واقع تأمله بعناد عالماً مغلقاً لا يمكن احلال سواه محله ولا يخص سواه . وهكذا سجل انتصاره على الفرار من الاشياء وعلى الموت . ولكن وسائله كانت مخالفة للوسائل السابقة : فهي تعتمد قبل كل شيء على اختيار دقيق وتجميع ذكي للحظات الممتازة انتخبها الروائي من اخفى ثنايا ماضيه . وهكذا نزع عن الحياة مجالات واسعة ميتة لأنها لم تترك شيئاً في الذاكرة . فلئن كان عالم القصة الاميركية هو عالم الناس الذين لا ذاكرة لهم ، فان عالم بروست ليس وحده الا ذاكرة . فالقضية قضية ذاكرة من اصعب الذواكر واشدها تطلباً ، ذاكرة ترفض تفريق العالم كما هو وتستخرج من ذكرى عطر سرّ عالم جديد وقديم . إن بروست يختار الحياة الداخلية ، ويختار في الحياة الداخلية ، ما هو اشد منها « داخلية » مقابل ما ينسى في الواقع ، اعني الآلي والعالم الأعمى ، ولكنه لا يستخرج من رفض هذا الواقع انكاراً له. وهو لا يرتكب الخطأ الموازي لخطأ القصة الاميركية بحذف الآلي ؛ ولكنه ، بالعكس يجمع ، في وحدة عليا ، الذكرى الضائعة والاحساس الحاضر ، القدم الملوية وايام الماضي السعيد .

إن بروست لم يوافق على ان تذهب الى الابد ايام العطلات السعيدة ، وانما اخذ على عاتقه ان يخلقها من جديد وان يثبت ، ضد الموت ، ان الماضي يعود آخر الزمن في حاضر لا يفنى ، حاضر اشد حقيقة واوفر غنى مما كان في الاصل. وليس التحليل النفسي لرواية « الزمن الضائع » إلا وسيلة قوية. وعظمة بروست الحقيقية هي في أنه كتب « عودة الزمن » الذي يجمع عالماً مبدّداً ويكسبه معنى اللوعة العظيمة . وإن نصره الذي احرزه على عتبة الموت ، قائم في انه استطاع ان يستخرج من فرار الاشكال ، عن طريق الذكرى والفكر ، الرموز المرتعشة للوحدة الانسانية .

إن آثار بروست تظهر كأحد الاعمال الخارقة المحملة بأعمق المعاني عن الانسان ضد وضعه ككائن قابل للموت . فقد اثبت ان الفن القصصي يصنع من جديد الخلق نفسه كما فرض علينا وكما رفض . وهذا الفن يقوم ، في احد مظاهره على الاقل ، على اختيار المخلوق ضد خالقه ، ولكنه يحالف ، بنظرة أعمق جمال الدنيا او الكائنات ضد قوى الموت والنسيان . وهكذا تكون ثورته خلاّقة .

هذا الربيع

يسائلني عنكِ هذا الربيـعْ
وكنتُ أمنّيـه بالموعـدِ
فيصمتُ قلبي الكئيبُ الصديعْ
ويُطرقُ إطراقـةَ المجهـدِ

وتسألني عنـكِ أزهارُهُ
إذا الطلُّ نبَّـه أجفانَها
وتسألني عنـكِ أطيارُهُ
إذا الفجرُ نهنـهَ أشجانَها

وهـذي فراشاتـُـه تسألُ
وقد أسكرَتْها ثغورُ الأقاحْ
ويسألني (دجـلةُ) السلسلُ
وتلكَ الروابي وهذي البطاحْ

وتسألني عنـكِ ناياتـُـه
إذا أنطقتْهـنَّ أنسامُـهُ
وتسألني عنـكِ ليلاتـُـه
وتسألني عنـكِ أيّامُـهُ

يُسائلني كلُّ شيءٍ هنـا
فأزحمُ بالأمنياتِ السبُـلْ
وأهتفُ : موعدُها قد دنـا
فهل نسيَتْهُ ؟ أم الركبُ ضلّ ؟

ويخبو رويداً وراءَ السبيلْ
شعاعٌ من الأمل الخادعِ
فأرجعُ بالكبرياء القتيـلْ
وأطوي الجراحَ على واقعي

بغداد **خالد الشواف**

مع الربيع

إلى أمين نخله

نحن الربيع .. فعجبه ونعيمه الوهاب .. منا
وشذاه ينقل للورى بكمائم النسمات عنا
وبحوره الخضراء ، ذكرى عريننا ! يوم اغتسلنا
والخافقات على السحاب لحاظنا .. لما اختمرنا !
وتدفق الينبوع ! حيث دعت ُمنانا .. فانزلقنا !
والغصن مال ، لأننا ملنا ! ومن طرب رقصنا !!

نحن الربيع يجود ان جدنا !! ويبخل ان بخلنا !
بمناعم الصبوات أسكرناه ، اشراقاً ، وفنا !
ومن الشباب البر .. أبدعنا معانيه وصغنا ،
ومن الطموح إذا تمرد ، والخيال إذا تغنّى !!
وبحبنا شربت خمائلـه ! فكان الزرع أمنا !!

حتى ! إذا ازدهر الزمانُ ، وصفق القلب المغنّى
عشنا على « عود الربيع » ، وفي مراياهُ اختبأنا !.

طرطوس **محمود نعوه**

السنونو

الى الدكتور فؤاد صروف

غنّي فديتُك يا «سنونو» فغناؤك السحرُ المبينُ
غنّي فقد عاد الربيـعُ وعاد للكون الفتونُ
إني سئمت العيش في ظلٍّ يعكّره السكونُ
طيري فسقفي لم يزلْ رحباً وحوضيَ فيه طينُ
شيدي الذي تهوين من عشٍّ تقرُّ به العيونُ
فغداً تزقزقُ فيه افراخٌ لها صوتٌ حنونُ
فيرفُّ سقفي بالمنى وترفُّ بالأمل الجفونُ
غنّي فيا للطينِ بالمنقار ذوَّبه الحنينُ

وديع ديب

الشاعر المتفائل فرناند غريك

بقلم خليل هنداوي

غريب امر هؤلاء الشعراء في امزجتهم المتباينة حين يقبلون على الحياة ، فهذا شاعر يُرقص الحياة بأهازيجه ، ويشع الجوانب القاتمة منها .. وذلك شاعر يشك في النغمة الصافية التي تطربه ، واللون الصافي الذي يحبه .

ولكن ، أليس هذا المزاج نفسه هو الذي يعبث بالمخاليق البشرية نفسها ، فهناك المتفائل الذي يفكك بطبعه المرح عُقد الحياة، ولا ينظر الى الاشياء المعقدة الا نظرة امل واستبشار. وهنالك المتشائم الذي يجعله طبعه الاسود لا يغتنم الفرصة الحسنة، لأن على خطاه التردد والحيرة،ودربه يسوده الضباب والتشاؤم. وجدير بمثل هذه الحياة ان تؤلم اصحابها . وجدير باصحاب هذه الحياة ان يتواروا ، لأنهم يشوّهون وجهها ، ويخلطون نغماتها بالنواح والعويل .

على ان هذا ليس معناه ان الآلام مفقودة في الحياة ، او ان الحياة موضع بهجة محضة ، وسرور خالص . ولكن ما أحرانا بألا نرى في ثياب العرس أكفاناً ، وألا نسمع في غناء الحمامة نحيباً . واذا سبق لذهن ما هذا التوهم،فذلك الذهن هو المريض بتشاؤمه ، وليست الحياة هي المريضة .

في الادب والفن حناجر وأنامل مريضة، يحركها هذا الشذوذ المريض، فيسيء اليها، وان لم يكن يسيء الى عبقريتها، كما ان في الادب والفن حناجر صافية ، وانامل خيّرة ، تضع الالوان في مواضعها ،وترسل الالحان الملائمة في محالّها .

هنالك شاعر غربي طالما قرأته ، وألفته نفسي ، وكان شعره صدىً عميق في صميمي ولا أدري : لماذا أحببته ؟ ولا أدري : كيف أعلل اسباب إقبالي على هذا الحب ؟ ألأنه كان متفائلا في الحياة؟ام لأنه كان مؤمناً بجمالها ، متحدياً آلامها ، ام لأنه كان كل ذلك ؟.

هذا الشاعر هو« فرناند غريك» صاحب ديوان « جمال الحياة » الذي امتزجت فيه شاعريته وفلسفته في الحياة ، ثم تلاه دواوين على شاكلته ، ودراسات عميقة .

ومن المفيد ان نذكر ما كتبه عنه كبير النقاد « اميل فاجيه » : انشاعرنا هو كآبة الحياة التي تجود نادراً — عصراً بعد عصر — برجفة واحدة نحو الحب او المجد . وإنها لرجفات جميلة حقاً ، فان أغاني الحب عند شاعرنا تكاد تُعد نادرة . جمعت بين إنسانية الصدق والرقة . لا الى الحساسية العنيفة ، ولا الى العاطفية الثرثارة . حتى اذا انتقل من الحب ، وحركته هزة المجد خُيّل اليك انك امام رجل آخر يختلف عن الاول اختلافاً بيناً ، يترك في نفسك أثراً غير الأثر الاول » .

ولشاعرنا مفهوم اسمى للشاعرية ورسالة الشاعر،عبر عنه بمقالة نقدية ممتازة،نستشهد بعدة مقاطع منها .. « إن ما ينقص الشعراء الفنانين الخاضعين لنظرية الفن للفن هو « الانسانية » .إنهم لا يريدون ان يكونوا إلا فنانين ، كأنهم لم يدروا ان ما يهمنا في الفنان قبل فنه : ان يكون انساناً . فالانسانية هي الصلة التي تربط ما بينه وبين الناس. ولذلك نطلب فناً اوسع مدى، واخفق قلباً ، وأرقّ ، وآنس . وبصورة موجزة نطلب « فناً انسانياً ! » وشعراً يعبر به الانسان عن عواطفه وافكاره لا حواسه وحدها !

«ان كل الشعراء العالميين في كل عصر من العصور كانوا فنانين، وانسانيين في وقت واحد ؛ أي كان منهم آباء وابناء وأحباء ، وفلاسفة، ومؤمنون. من حياتهم نفسها نسجوا خيوط احلامهم. ولذلك يجدر بنا بعد مدرسة الجمال للجمال ومدرسة الجمال للاحلام، ان نبني مدرسة الجمال للحياة نفسها .

«نحن لا نحمل على « الرمزية ». ولكن ليكن الرمز واضحاً . فالرمز المظلم مهما كان جميلا — مثله كمثل قارورة طيب ليس لها مفتاح. والشعراء السابقون استخدموا الرموز ، ولكن كان وراء رموزهم — دائماً قلوبهم الانسانية .

«لقد تعبنا من شعر لا عاطفة فيه ، ومن شعر يدور بدون

« غنّوا الحياة ايها الشعراء ! وليقل كل انسان منا ، حين يُلقي نظرته الأخيرة على ما أبدعه قبل ان يتوارى في المجهول : « انني انسان ، وليكن ما يكون بعد الموت، فلست بخائف ، ولتسطع اية شمس جديدة ، فانني سأراها محدّقاً فيها ، دون ان يُعميني النور ، او يقذفني الظلام لأنني عشت انساناً ! » يا شعراء اليوم والغد ، ويا أهل كل إبداع ، كونوا انسانيين ! »

انسجام . إننا لسنا برمزيين ، ولا بشكوكيين ، ولكنا بشر مغموسون في الحياة ... لا رمز لنا الا الوصول الى الآفاق الانسانية البعيدة التي جلتها الفلسفة حينا، والدين والاخلاق حينا.

«فيا ايها الشعراء غنوا الحياة ! هذا هو شغلنا فيها، ولنكمل رسالتنا على الارض ؛ هذه الرسالة هي ان نبني — بكلماتنا الجميلة — ذلك الحلم الذي ينسجه الانسان ، في هذه اللحظة من الزمان لكي نحمله الى من سيلوننا . وليقل كل انسان منا ، حين يلقي نظرته الأخيرة على ما أبدعه قبل ان يتوارى في المجهـــول : « إنني انسان ، وليكن ما يكون بعد الموت ، فلستُ بخائف. ولتسطع أية شمس جديدة ، فانني سأراها مُحدِقاً فيها ، دون ان يعميني النور ، أو يقذيني الظـلام ، لأنني عشت انساناً ! » يا شعراء اليوم والغد ، ويا أهل كل إبداع ، كونوا انسانيين! »

ظل فرناند غريك أميناً لمبدئه وانسانيته في كل ما وهب ، أميناً للحياة فيما أعطى . إنه اراد أن يبهجنا ويغرينا بان نكون في الغابة النامية صوتياً هارباً ، لكنه موقـع ، وورقة زائـلة لكنها متواضعة نافعة. وأراد ان نحيا حياتنا هذه بكل ما أوتينا من عزم وقوة لان رسالتنا هي استخراج كل ما تنطوي عليـه الحياة من مفاتن فنية ، وعقلية وأدبية !

لذلك حاول هذا الشاعر ان يضع في ديوانه « جمال الحياة » قصة برهة محدودة من حياته ... بحبها وعذابها . اذ ليس معنى جمال الحياة عنده انه لم يذق الآلام العنيفة ، فقد ذاقها كما ذاق الأفراح العميقة . تذوق كل شيء يمكن ان يمر بالانسان . إنـه لم يذق دائماً بهجة الحياة ، ولكنه احس دائماً جمالها . واعتقـد بان الحياة التي لم تكن — في كل حـيـن — بشيء حسن تبقى — كل حين — شيئاً جميلاً . ومن جمالها هذا ينحدر الى النفس إيمانه بحسنها وخيرها .

هذه قطعة له عنوانها « أشرعة على البحر » ! لقد رأى شراعاً ممدوداً يتخبط على أمواجه . وتمثل حياة البحارة تحته ، فخاطب نفسه :

« إمضِ اليهم ! وكن معهم .. اعمل وتألم ، وكافح بدون نهاية ، متلاشياً في هوة الحياة العميقـة ، ونل خـبزك بعرق جبينك . ولكن ليكن كل هذا بعيداً عن الجمال ! »

وعاد مرةً الى البيت الذي نشأ فيه ، فماذا وجد ؟..

« إني لأوقظ في كل زاوية من زواياك الساكنة ،
صدى يجيب كل خطوة من خطاي
لا يزال الماضي الذي خيّل الي أنني نسيته — يحيا !
وكل شيء فيك ، ايها البيت المنعزل ، يحيا متشابهاً .
على انك لست بالبيت الذي يحبني !
وبالرغم من جمال اللقاء ، أشعر على عتبتك بغيبة مفاجئة
وأشعر انك لم تتغير ، وأشعر أنك لستَ نفسَك ! »

ويمر شاعرنا بالكئيب الذي يدور وحده ، والوجود يدور بالقرب منه بعيداً عنه ، فيواسيه ، ويوقظ في نفسه شعـــور الحياة والانطلاق :

« أراك ، هذا المساء ، شرهاً الى البكاء ،
فما يُبكيكَ أيها الحالم الناقم ؟
أي همّ ألمّ بك ، وفيمَ آثرت البكاء على الغناء هذا الليل ؟
أنصِت الي قليلاً !
الريح تعبث بالأشجار وظلالها ، ريح تفتق الأزهـــار ، وتفشي الأسرار ..
تمرُّ على شفاه الورود والزنابق ، قبل ان تغازل شفـــاه العابرين .
تعال معي نروّحْها .
فلماذا لا ترى إلا نفسك ؟ ألا تتأمل في الليل الذي يشبهها بصفرته النقية ؟
تعال ! لا تبق منعزلاً ، هناك ، تحلم بكثير من الاشياء ، وترسل التلهف والتأوه .
ان الريح قد مسّت الورود ، وهي عابرة ...
فتنشّقْ شذا هذه الورود البعيدة ! »

من جمال هذه الحيـــاة يستمد شاعرنا ألوانه ، وتفاؤله ، وانسانيته وعناقه للنور ، ولذلك آثر ان يطوي الجراح في نفسه عن نفسه ، أو يعلن جمال النور للانسان الذي يؤمن به والحياة التي يهزه جمالها .

لنستمع اليه في مقطوعة له اسماها « رجفة » تمثل روح ثائر يتقدم من الحياة غير هياب لانه يحبها :

« ألا تنحَّيْ بعيداً عني ! ايتها الهموم والآلام والشكوك!
اريد ان اتبع نفسي المغامرة إلى حيث تسلك امامي ، في روض نيِّر النوّار !
سأخطو حـــتى منتهى الطريق المجهول ، دون ان يخيفني الضباب والسحاب .
لن يقول الحظ : — إنه قهرني !

سأرفع رأسي ، واتجه نحو المعركة كأنني مقبل على عيد !
وليقولوا عند موتي : « ماذا يضيره ؟ انه قد عاش »
ألا ايها القدر العظيم لستَ انتَ بالأشد مني مِراساً
انني أتحداك
كل انسان ، لو اراد ، كان سيد قدره
وكلٌ إنما ينسج حياته بيده ! »

وفي قطعة « مولود جديد » يحاول ان يجدد بها نفس صاحبه في ليلة مرحة ، ابتهج فيها الناس ، وهو وحده غلبت عليه الكآبة ، فيدعوه إلى الخروج والتمتع بضياء هذه الليلة :

« يخيَّلُ إلي ان المدينة ولدتها الشمس !
كل سقف من سقوفها يعكس لنا مرآة متوهجة الضياء
إذهب ! فبالرغم من الكآبة التي اغرقتَ نفسك فيها ، فان كلمة الحياة الاخيرة هي للفرح دائماً . فاسكر اذاً ، بالهواء والضياء ! »

ولا نستطيع إلا ان نعرِّج على مقطوعة حية له لعلها تمثل روح الشاعر ، وتعبر عن تفاؤله اصدق تعبير .. هذه القطعة هي « فرح » . وقلما رأيت شاعراً يتغنى بهذه الكلمة مندفعاً صادقا، لأنه لا يؤمن بالفرح ، وإذا آمن به أذِن له بان يمر بـه طيفاً عابراً ، لا يُلقي عنده عصاه :

« إني شربتُ لون السماء ، فوداعاً ايتها الهموم والاحزان!
لم يعد من ظل قاتم في نفسي ، ولم يعد من دمع في مقلتي !
كل شيء : مشمس ، وسعادة ، ونور
نعم ، اننا نحيا ، ويا اسفا ، في ظل لحد قاتم ،
ولكن ، كيف نعتقد بالشقاء حين يكون الوجود جميلاً ؟
الحقيقة ..الحقيقة الحقيقية عندنا جميعنا : من محبين وحالمين، وعلماء وقُرناء ، هي اننا نبحث — خلل خصائصنا المتعددة — عن الحقيقة الخفية دائما ، الهاربة منا ابداً ..
وكلٌ بحسب مزاجه يبحث عنها في نجوم السماء ، او عيون النساء ..
الحقيقة الاولى تبدّت لعيني : هي ان الحياة جميلة . اني أحس جمالها ، وألمسه . فحذار مني ايتها الهموم والاحزان ..
إذ لا حقيقة هنا إلا للفرح ، فأحبَّ الازهار ، وهِم في الجمال ، واتبع الآمال ،
واقض حياتك محباً لكل شيء ، واسكر بمحبةالحياة
وإذا جارك الموت فمت هادئا ، باسما للقدر
مبارحا الحياة ، متقبلًا الموت
ولا تقلق كثيراً ، فاللغز الوحيد في العالم هو قلقك ...
هذا القلق يجعل سعادتك غير مستقرة .
كل شيء هنا : مضيء وهاج ، وواضح لعوب .
فكن ذلك الطفل الذي يثرثر بدون نهاية : امام البحر ، والمساء ، والسحب الهاربة .
وكن ذلك المجنون يبتسم للازاهير، والامواج،والسماوات
وكن كذلك الذي ضيع السكر رشده .. »

ومن هذه المقاطيع الرائعة « سهرة » يحاول فيها ان يعتقد بأن الحياة لا تنقطع ، وان الموت ليس الا ضجعة : « كم من ليال سهدتها ، ايها الحالم ، وانت نشوان بافكارك ناثراً — هنا وهناك — كلمات، وكلمات دائما! تريد ان تحلم ايضا في الليل ، لا تشعر بزوال الساعات ومتاعب الغد الآتي .
ايها الشعراء . هنالـك غريزة فريدة تجبرنا على ان نضحي ففيمَ الشكوى من رسالتنا السامية ؟
انما نحن مختارون لا ضحايا ...
أليس عظيماً ان يموت الواحد منا مجهولاً ، منعزلاً ليترك خلفه مسحة جمال على الارض ؟ .
الا من هو الذي فتح خزائن اسرار الحياة ؟
الموت ؟ ماذا عسانا نعرف عنه ؟
لا .. إننا لن نموت ابداً ..
فبعدنا الاشياء الخالدة التي نتغنى بهـا ستحيا ابداً ، ونحن نصبح فيها امواتا ، لا غيابا عنها .
وربما ، في مساء جميل ، بعد عشرين عصراً ، يمر العابرون ؟ يقطفون الأزهار — الندية ، فيتنشقون ارواحنا فيها .
ورب حسناء عاشقة، غرقت في ذهول الحب، تقبل افواهنا على شفتي عاشقها .
إن انفسنا ستحيا مرة ثانية فيجمال الوجود كما تمتزج اجسامنا في التراب العميق .
وإذ ذاك في امواج البحر ، وفي الغابات ، وفي الرياح ، سنكون — ونحن الموتى — اكثر حياة من الأحياء . »

ان شاعرنا ليبدو راضيا كل الرضى عن وجوده ، وما كان للقبح ان يغلب على الجمال . ولذلك يقول بلهجة الواثق المؤمن :
« على أني لن العن القدر ابداً ، ذلك النير القديم الذي تنحني تحته ظهورنا . او الرجال الذين شقوا ليكونوا صالحين ، ولا

— البقية على الصفحة ٧٦ —

قرويّون يتكلّمون ..

بقلم الدكتور جورج حنا

نزل علي مرة ضيف ثقيل الدم والروح ، وبقي راكباً على ظهري واكتافي اياماً اربعة ، بنهاراتها ولياليها ، وحبسني ضمن جدران غرفتي ، فتذرعت بالصبر ، هذا الذي يسمّونه فرّاج الكروب .

على ان هذا الضيف ، الثقيل الدم والروح ، الراكب على ظهري ، على ثقالة دمه وروحه ، كان أخفّ وطأة عليّ ، من الراكبين على ظهور الناس ورقابهم ، بخفة روحهم ، وسلاسة حديثهم ، وتنميق اكاذيبهم ، وتزويق وجوههم بالمزوقات الغشاشة . ضيفي الثقيل هذا ، شبع من الركوب بعد ايام اربعة ، ورحل عني دون ان يسلبني ما هو من حقي وحدي ، او يمسّ حريتي بشيء . كان له حقّ عليّ ، فاكتفى بأخذه ، ولكنه ما حاول ان يسلبني ما ليس له في ذمتي ، عندما كان بمقدوره ان يفعل وانا في قبضة يده . « ابو الركب » هذا الثقيل الخفيف ، اللص الشريف ، ما أهون شرّه امام شرّ الراكبين على ظهور الناس ، السالبين كل حقوقهم ، الشادّين على خناقهم ، المتمتعين بما لأنفسهم وبما للآخرين ايضاً .

بعد هذه المداعبة السمجة من ضيفي الثقيل ، اشتاقت نفسي الى العزلة ، أنشد فيها راحة الجسم والبال ، واسترد فيها ما أضعت ، تاركاً المدينة في صخبها وضجيجها ، قائمة قاعدة في زحمة الأحداث ، الفائرة الغائرة ، في لجٍّ من القيل والقال ، عما يشاع ويقال ويدبر ، في الأضواء وفي الخفاء .

ذهبت انشد غايتي في خلوة هانئة هادئة ، حيث لا سياسة تكذب ، ولا أحزاب تتشاحن ، ولا سهرات تنبش فيها فضائح الناس ، ولا جرائد تشوّش الأفكار ، ولا أفلام تشاهد على شاشتها البيضاء سواد الحياة الخليعة المترفة ، ولا سيارة هوجاء وسائقاً ارعن ، خلوة بعيدة عن الضجيج ، فيها الراحة والاستكنان وخلوّ البال .

وفي ذات صباح قصدت هضبة الأرز الخالد ، لأقضي في ربوعه اسبوعاً هادئاً . وقد عقدت النية ، على ألا أفسح مجالاً لما يعكر علي الاستمتاع بجوّ الطبيعة الصافي . فرصة من العمل ، ومن الضوضاء ، ومن مطالعة الصحف والأخبار ، ومن احاديث السياسة وبهلوانية الحكام ، وقصص الانتخابات ، وما يرافقها من اساليب الفساد والافساد .

وما دريت ان الذي اجتنبته ، سألتقي به في اكثر البراري بعداً عن المدينة . فقد قادتني الصدفة ، ظهيرة يوم من ايام ذلك الأسبوع ، الى ورشة يشتغل فيها دزينة من الفعلة ، اثنان منها دون العشر السنوات سناً . وما ان ألقيت عليهم السلام ، حتى بادروني بأحسن منه ، واخذوا يسألونني عن المدينة ، وعمّا عندي من اخبار العالم ، وادركت انني امام نفر من ابناء لبنان هم ، على الرغم من سذاجتهم الظاهرية ، مفطورون على الذكاء والبداهة والنكتة . وقد استأنس هؤلاء القرويون بي ، ووجدوا في حديثي معهم ، فرصة للاستراحة بضع دقائق من ضرب المعول ونقل الحجارة . وفيما هم يمسحون بطرف سراويلهم ، العرق المتصبب عن وجوههم ، رحت أتحدث اليهم ، والحديث الى عائلة البسطاء لا يخلو من الطرافة والفائدة لقوم يعقلون .

قلت لأحدهم ، وقد عرّفني انه أبو الفاعلين الصغيرين : أليس حراماً عليك ان تشغل هذين الفتيين الطريين ، باشغال ثقيلة شاقة ، ينوء تحتها جسماهما النحيفان ، بدلاً من ان ترسلهما الى المدرسة ، يتعلمان فيها على الاقل « فك الحرف » ؟ ألا تعلم انك بذلك تسيء الى الوديعة المقدسة ، التي وضعتها العناية في ذمتك ؟ وهذا الفتى الذي تحمّله « الصابورية » يخيل إلي انه ضعيف البنية ، وقد يكون فيه علة ما ، وهو احوج الى طبيب منه الى الشغل .

فلاحت على وجه الأب بسمة من التأثر ، حجبت ثورة غضبه ، التي لم يمنعها من الانطلاق ، السافر الجامح ، الا ملكة من التهذيب ، فطر عليها هؤلاء القرويون ، واجابني بكثير من المرارة : « انكم معشر المدنيين ، تعيشون بالفلسفة ، وتكثرون من النظريات ، وتتصورون الدنيا كلها مدينة ، واهل الارض كلهم مثلكم ، وقد تظنون ان النعيم الذي ترتعون فيه انتم ، نرتع فيه نحن ابناء القرى الفلاحين . انكم على ما يظهر بعيدون عنا وتجهلون احوالنا . اما مررت يا افندي بهذه الضيع المشرشرة في طريقك الى هنا ؟ أما شاهدت أبناء القرى كيف يعيشون وماذا يلبسون؟ أما رأيت الاولاد مشردين في الأزقة والبراري؟ قل لي من هم النازلون معك في الفندق الكبير يا خواجه؟ أليسوا

كلهم غرباء عن هذه المنطقة ؟ إذ من منا تمكنه جيبه من النزول في مثل هذا الفندق ؟ نحن واولادنا ونساؤنا خدم لا اكثر ولا اقل . وليت هذه الخدمة قادرة على اشباع بطوننا . اننا نحرث الارض ليحصدها غيرنا، ونحدل الطرقات لتسير عليها سياراتكم الفخمة . اننا عبيد العمل الذي يستثمره اسيادنا . ألا قل لي يا افندي ، هل انت نائب ام وزير ؟

فقلت : لا هذا ولا ذاك .

قال : يبدو لي انك على شيء من النعمة ، فلماذا لا تشتري لك نيابة او وزارة ؟

قلت : أتهذي يا رجل، وهل النيابة او الوزارة سلعة تشرى؟

قال : وما هي إذن ؟

قلت : النيابة وكالة عن الشعب ، تعطيها انت وانا وهو ، لمن هو كفؤ بان يتولاها . ألم تُدعَ انت الى موسم الانتخابات لاعطاء صوتك لمن ترغب في أن يكون نائباً عنك؟ اما الوزارة، فهي ثقة يوليها الحاكم الاعلى ، لمن يستحقها ، وتؤيدها انت بواسطة النواب الذين انتخبتهم وكلاء عنك ، فتقوم هذه بمهامها الشاقة ، لمصلحتك ومصلحتي ومصلحة عامة الناس .

هنا اصابت صاحبي نوبة من الضحك وقال مقهقهاً :

— لقد نسبت لي الهذيان يا افندي ، فاعذرني إذا نسبته لك هذه المرة . سامحني يا افندي على وقاحتي . بوسعكم ان تضحكوا منا باقوالكم وكتاباتكم ، وبما تصدره الحكومة من بلاغات وبيانات وأوامر . إن هذا ليس اكثر من دعاية لتغطية السماء بالقباء . لكن حذار من ان تعتقدوا باننا مغفلون الى الدرجة التي تتوهمونها. نعم يا سيدي انا اذكر الرواية التي تسميها جنابك انتخابات ، ولو لم اكن اذكر ذلك جيداً ، لما سألتك لماذا لم تشتر لك نيابة او وزارة ؟ اقسم لك بالله وبالعذراء مريم، اني لم أوجّه اليك سؤالي هذا اعتباطاً، اذ اني عنيت ما اقول ، بل انت نفسك أطلقت على زمن الانتخابات اسم الموسم، والموسم على ما تعلم موسم سواء كان موسم زيتون ام موسم انتخابات. ان المدينة التي تسميها عاصمة ، اصبحت سوقاً للمتاجرة بالنيابات والوزارات والوظائف الحكومية . حتى مختارية الضيعة صارت بالمزاد . مختار ضيعتنا ابو طنوس ، دفع الفي ليرة حتى صار مختاراً ، والانكى انه صار مختاراً عن طريق الانتخاب . شيء مضحك يا خواجه ، الذين نسميهم حكاما وابطالاً ورجال الساعة هم الذين يتاجرون بنا، واكثرهم بطولة من يتحكم بالسوق اكثر من غيره . المرشحون للنيابة لا يعرفوننا الا وقت التصويت ، بعد ان يكونوا طبقوا الصفقة في المدينة ، مركز البورصة ، خلـّها على الله يا افندي .

بذلك حدثني صاحبي الفاعل . ثم توقف فجأة عن الكلام ، وضرب الصخر بمعوله ضربة شقته الى قطعتين ، كأنه شعر بتجدد في قواه ، بعد ان افرغ ما في جعبته من اللواذع ، ونادى ابنه الفتى ، ليأتيه « بالصابورية » . ولكنه عاد يرمقني بعينيه ليقول : عندما تعود الى مدينتك يا خواجة ، لا تنسَ ان تخبر القوم هناك ، ان في سفوح هذا الجبل ، اناساً هم من نفس الطينة التي جبلوا هم منها . قل لحكومتك ان لبنان ليس المدينة وحسب. قل للناس هناك ، اننا نحن القرويين نعيش من قلة الموت ، وان اولادنا ، كما تراهم بعينيك يا افندي ، محتاجون الى الغذاء والكساء ، ونحن لا نجدهما لهم الا بشق النفس ، وبواسطة هذا المعول الثقيل وهذه «الصابورية» التي تقصم ظهورهم . اما التعليم والتطبيب ، اللذان تتكلم عنهما بمثل هذه السهولة ، فمن اين لنا ان نوفرهما لهم؟ الحرب بالنظارات هينة يا افندي. قل لحكومتك ان تقتصد في بذخها واسرافها ومآدبها . ان الاموال التي تبذرها بلا حساب ، هي من معولنا ومن عرق جبيننا. قل لها انها هي التي تأكل خيرات ارضنا وتستثمر اتعابنا .

بالله عليك يا افندي، ان كان لك صلة بالحكام، ابلغهم حالتنا وشكوانا ، وقل لهم اننا لسنا مغفلين ، كما يخيل لهم ، وان لا بدّ للايام من منقلب .

« هات الصابورية » يا ولد . ان الشمس قاربت المغيب ، وعدد صابورياتك لم يكتمل بعد ! الا تعلم انك لن تتعشى الا نصف عشاء اذا بقي العدد ناقصاً ؟

عندها خشيت ان تكون زيارتي هي السبب في عدم اكتمال عدد صابوريات الفتى النحيل ، وخشيت ان ينام هذا الصغير المسكين بنصف عشاء ، فودعت الجماعة ، وفي قلبي غصّة ، وفي نفسي ثورة ..

وعندما عدت الى فندقي ، ايقنت ان ما نشدته من عزلتي لن احصل عليه . ففي ابعد قرية من لبنان ، حيث خيل اليّ ان الناس خالو الذهن، مما يجري في العاصمة ، من فساد وافساد ، ومؤامرات وتطبيقات ، تبين لي ان الخطر على هذه الامة اعم واشدّ ، مما كنت اتصوره قبل ان اغادر المدينة ، واتصل بمن لا يعرفون لها وجها ، ولكنهم على ما ظهر لي ، يعرفون عنها كثيراً ، وينقمون على ما يجري فيها كثيراً كثيراً .

جورج حنا

على هامش «الادب المخنط»

بقلم كمال اليازجي

نشرت « الآداب » الغراء في العدد الرابع من سنتها الاولى مقالاً للاستاذ رمضان لاوند جال فيه جولة «حول الادب المخنط». و « الادب المخنط » مقال نشرته لنا مجلة « الابحاث » في العدد الرابع من سنتها الخامسة ، دعونا فيـــه الى اعادة النظر في الشعر القديم الذي اعتمدناه في مدارسنا التوجيهية ، وبيّنا ضرورة الرجوع الى الموسوعات الادبية حيث تكـــثر الخطرات المغمورة من الشعر الانساني الصافي – ذلـك الشعر الذي لم تستغله سياسة ولا زيّفه غرض مادي – على ان يكون العمدة في تثقيف اذواق الناشئة وتنمية ميولهم الفنية . وقـــد رأى الاديب الناقد في ذلك طعناً على الشعر القديم جملةً وانبرى يدافع عنه على اساس هـذا الوهم . وعندها خطر لنا ان نعلق على مقالنا ومقاله بما يلي :

حقيقة المقاييس الادبية

لاخلاف بين الادباء في اهمية العنصر الشخصي في النقـد ، فالنقد ليس علماً مقيداً تقييداً مطلقاً بنواميس جامعة مانعة شأن العلوم الطبيعية والرياضية ، بـــل هو يعتمد الى حد بعيد على الذوق الشخصي. ونحن في ذلك نوافق الاستاذ لاوند كل الموافقة (ص ٥٧ – ١) .

ولكن ما هو الذوق الادبي الشخصي ؟ هــل هو اعتبار شخصي محض ، وحكم كيفيّ اعتباطي ؟ ام هو اعتبار شخصي قد هذّبه الاطلاع وصقله المران ، فعرف اتجاهاً معيناً وقـام عـلى اصول عامة متعارفة ؟ اذا كان الاول، فالنقد ضرب من السفسطة لا اقل ولا اكثر ، والبحث على هذا الاساس عقيم . وان كان الثاني فما الدليل عليه ؟

الدليل على ذلك بيّن واضح ، وهو ان الادب الذي ينبثق من اعماق النفس الانسانية لا يعرف حـــدود الاقليم والعصر والعرق، ولا يفتقر في ظهوره وانتشاره ومدى تأثيره الى شروح لخواصّ البيئة والعصر . واستجابة الناس له على اختلاف بيئاتهم وعصورهم واجناسهم دليل قاطع على هذه الوحدة الجوهرية في تذوق الجمـــال الادبي . ولولا ذلـك لما احس الهندي بروعة شكسبير ، ولما سكر الفرنسي بادب طـــاغور ، ولما تجاوبت اصداء هيجو في الشرق والغرب . وانما كان ذلك كذلك لان اعـلام الادب الانكليزي والفرنسي والهندي التقوا على صعيدٍ انسانيةٍ واحدة تفرح وتحزن ، وتغتبـط وتتألم ، وتثور وتسكن ، لبواعث واحدة ، وعوامل متشابهة بكلياتها ان لم تتقارب بجزئياتها. فامام الاعتبار الانساني العام تزول فوارق المكان والزمان والعرق، فاذا شعرُ هوميروس ودانتي والخيام والمعري وشكسبير وغـــوتيه وهيجو يصور آلامنا وآمالنا، ويتجاوب مع خلجات نفوسنا ونبضات قلوبنا. ولولا هذا العنصر المشترك بيننا وبينهم لما عرفناهم اليوم ، ولما كان هنالك ادب نسِمُه بانـــه انساني عالمي . فالذوق الادبي الشخصي اذن ينبغي ان يستمد اصوله من الاحاسيس الانسانية المشتركة والا كان الحكم المنبثق عنه لا يمثل الا صاحبه . ولعل ما اشار اليه الكاتب الاديب ، في مطلع رده ، من « صلة حائرة قلقة بـين الناقد والادب » انما هو متخلف عن طغيان عوامل الاقليم والعصر والعرق والبيئة على الاعتبار الانساني العام .

الاتباعية والتحررية في الادب

لسنا نعارض الاستاذ لاوند في قسمة الأدب إلى مرحلتين اساسيتين : الاولى مرحلة التقليد والاتباع القومي، والثانية مرحلة التحرر والانطلاق الشخصي (ص ٥٨–١)، ولا نخالفه في ان الاولى مرحلة تاريخية تمر بها الامة لدواعٍ سياسية قومية طارئة وملابسات اجتماعية ونفسية خاصة. وكذلك نجاريه في ان المرحلة الثانية – وهي دور التحرر والانطلاق الشخصي – لا تلبث ان تتسع وتنتشر وتفرض نفسها على الامة . لكن لماذا كان ذلك كذلك ؟

الذي نراه ان الأدب الذي نسميه « تقليدياً » كان في عهده الاول عملياً مستمداً من واقع الحياة، قد دعت اليه «ملابسات اجتماعية ونفسية وسياسية » خاصة ، وقام بالغرض الذي انشيء لأجله . وإذ تبدلت الظروف التي أوحته ، وزالت الدواعي التي فرضته ، غدا غريباً عن الحياة، بعيداً عن الواقع الراهن ، ولم يعد لاستئثاره بالنفوس مبرر . لكن حب التقليد الراسخ في النفوس يأبى إلا ان يضفي عليه قدسية يحاول ان يجعلها منـــه مكان الروح التي فقدها فيأبى ان ينبض بالحياة. وإذ ذاك يغمره الادب الحي ولا يبقى من فلوله إلا بوادر من خطرات انسانية

عـامة .

ولكن ما قيمة هذا الأدب التقليدي ؟ قيمته بوجه العموم – إلا في القلة من آثاره – انما هي في انه يوضح الاوضـاع السياسية التي أوحته ، ويجلو الملابسات الاجتماعية التي عرض لها. وإذن فهو أداة لايضاح التاريخ . وإذا نحن سألنـــا الاستاذ صاحب الردّ علامَ يريد أن يجعل هـــذا الأدب قوام المنهاج الدراسي في أدب اللغة ؟ أجاب : لأنه « مشدود إلى الماضي – الماضي الحيّ العظيم الذين يتحول في نظر الأحفاد مصدراً لكل القيم ، وملجأ من خطر الانحلال ، وذوبان الشخصية . » (ص ٥٨–٢). وإذن فقيمته في انه وسيلة إلى غرض منشود ليس إلا!

وهذا الاعتبار ينتهي بنا إلى سؤالين : هل الغاية من درس الأدب الوقوف على بعض الاوضاع التاريخية ، والوصول إلى احد الاهداف الاجتماعية؟ أم هي تذوق ما فيه من عناصر الجمال وسماع صدى خلجاتنا الخفية ترددها أصوات كأنما تنبعث من داخلنا ؟ فاذا كان الاول فنحن لا نخاصمه في « انضوائيته » على أن لا ينازعنا في «مثاليتنا» . نعم إن الأدب مادة خصبة لتحقيق الذاتية القومية ،ولا ضير في درس هذا الأدب –حتى ولو كانت قد أوحته ظروف خاصة – اذا كان إلى ذلك ، وافر النصيب من الاعتبارات الانسانية العامة كأن «يمثل دوراً شعورياً قومياً عاماً وتوتراً اجتماعياً موجهاً إلى مثل أعلى »(ص ٥٨–١). أما إذا كان هذا الأدب التقليدي الاقليمي أدب مناسبات عابرة ، أو ادب ارتزاق واستجداء فحسب ،فهو غير جدير بالرواية والدرس خارج اعتبارات المكان والزمان والأحوال التي أوحته. ونحن مهما حاولنا إحياءه فلن نظفر من ذلك باكثر من التحنيط .

وأما أدب المرحلة الثانية – أدب الانسانية الذي ولد معها ونطق بلسانها واختلج بشعورها – فلا يموت إلا بموتهـا ، وهو قديم ووسيط وحديث . فيـه ينصهر معنى العصور ، وتذوب اعتبارات الأوضاع ، وتتبلور حقيقة الخلود . هـذا النوع من الشعر هو الحري بالدرس والمراجعة ، وهو الخليق باحياء الصلة الحقيقية بين الماضي والحاضر ، وبين الانسان وأخيه الانسان .

أدب التزلف والارتزاق

على أننا لم نحكم على الشعر القديم حكماً واحـداً ، ولا هاجمناه جملة على صعيد واحد ، ولا اعتبرناه بمجموعه أدباً زائفاً منافقاً كما ادعى الاستاذ لاوند في مطلع «هجومه» (ص٥٧–٢) بل اننا قسمناه إلى تقليدي مشهور وطليق مغمور، وآثرنا الثاني على الأول ،ودعونا إلى التنقيب عنه لاخراجه من مخبآته . نعم أننا لم نرمِ الشعر التقليدي جملة بالنفاق ، بل أشرنا إلى أن الكثير منه اتخذ وسيلة للرزق ، وسبيلاً إلى النفوذ والوجاهة ، فكذب فيه الشاعر على نفسه وعلى ممدوحه ، وشوّه حقائق التاريخ ، وزيّف أحاديث النفس ، وذلك هو النفاق بعينه !

وبعد ، فنحن لم نظلم الأدب التقليدي، لأننا لم نقل بطرحه جملة ، بل جلّ ما هنالك اننا اعتبرناه مادة غير صالحة لتهذيب الذوق الفـني ، وتحبيب الناشئة بالأدب القومي . وانكرنا – بالتالي – ان يكون اساساً صالحاً للمنهاج الادبي في الصفوف التوجيهية . أما الذي نادينا بطرحه فهو شعر المناسبة المحدودة والدعاية الكاذبة ، وكل ذلك واضح في قولنا : « وبعد ، فهذا الشعر القديم – شعر الاحـــداث والمناسبات،، شعر الدعاية والاستجداء – ان كان مادة صالحة لعمل المتخصصين في اللغة ، والمتفقهين بالأدب، إلا انه لا يصلح بوجه لتهذيب اذواق الناشئين وتوجيه ميول الموهوبين . وعليه فالواجب الادبي يحتم علـى المعنيين بهذا الموضوع ان يعودوا في دراساتهم الى الموسوعات الادبية ، فانهم واجدون فيها كثـيراً من الشعر المغمور الذي يعكس الخلجات البريئة ، ويصور الآمال البعيدة ، ويعالج القيم الانسانية الخالدة » (ص ٤٦٨) . فجرمنا اذن، في نظر الاستاذ صاحب الرد اننا آثرنا أن يكون المعتمد الاول في المنهاج الادبي من الشعر الصافي !!

استدراك وعتاب

هذا الموقف الذي اتخذه الاستاذ الناقد من مقال « الادب المحنط » حمله على ان يوجه الينا ثلاث تهم نحن منها براء : الاولى تهمة الافتراء على الادب القديم ، وذلك حيث قال :

« لقد هاجم حضرة الكاتب الادب العربي القديم واعتـبره ضحية للسياسة كما سمـــاه ادباً منافقاً . وحرمه من مقوّمات الادب الفنية الـتي تسمح له بالبقاء والخلود » . ثم سمح لنفسه بان يعلق على ذلك بقوله : « ومعنى ذاك ان ادب اليقظة العربيـة ادب ساقط مرذول القيمة لا يمثل حلقة حية من سلسلة تاريـخ الحضارة العربية » (ص ٥٧ – ٢)

ولست ادري اين عثر لي على هذا! القول الجـــارف بحق الادب العـربي القديم جملة ، ويقيني انني ما انشأت البحث الا دفاعاً عن القديم ، وحرصاً على بعثه واحيائه ، بعد ان اشتغـل الادباء عنه –قديماً وحديثاً– بادب السياسة والدعاية والارتزاق.

ولم يخطر لي يوماً ان اقول ان جل الادب العربي القديم من هذا الطراز الزائف ، وذلك بشاهد قولي: « على ان الشعر القديم لم يعدم ادباء متحررين خرجوا عن هذا النهج المطروف واعملوا الذوق الخالص في جمع الروائع الشعرية نظير ما فعل ابو تمام في ديوان الحماسة ، والبحتري في كتاب الحماسة ، وابن قتيبة في الشعر والشعراء ، والاصفهاني في كتاب الاغاني . فقد عمد هؤلاء الى تراثنا الادبي القديم ورائدهم الجمال الخالص، والاخراج البارع ، والانطباق على الواقع الانساني ، وتخلوه غير ملتفتين الى ملابسات الهوى والعرق ، ولا متأثرين بشهرة شاعر او سياسة دولة ، فاذا جلّ ما وعوه خطرات شعرية بريئة ، تعالج خلجات النفوس ، وتصور نزوات الارواح ، لا لشيء الا للتعبير عما تكنه الذات من شؤون وشجون » (ص ٤٦٦ — ٤٦٧) وهذا لعمري دفاع عن الادب القديم لا هجوم عليه !

والتهمة الثانية التي جعلنا الكاتب الأديب هدفاً لها هي تهمة الادعاء ، وذلك حيث قال : « وقد وجدت في رأي الأديب الكاتب ما يؤكد صحة ما ذهبت اليه في مقدمتي من ان النقد عمل فني ذاتي اكثر منه مجموعة قواعد عامة تخضع الأدب لجبريتها الجامدة الصلبة . والواقع ان هذا الرأي ليس بدعاً من الآراء فقد سبقه الى إعلانه جماعة من الشعراء المولدين ... » (ص ٥٧ — ٢) وأنا لا اذكر انني ادعيت شيئاً من هذا على انه من بنات افكاري ، ولا قلت إنني اول من قال به ، ولا انتحلت السبق اليه ، بل أعدت الفضل في ذلك صراحة الى نقاد القرن الثالث والرابع ، ودعوت الى الاهتداء بهديهم ، وحثثت على استئناف ما باشروه من تحكيم الذوق في اختيار الشعر واطراح المقاييس التقليدية البالية (ص ٤٦٦ — ٤٦٧) ولا اعلم — والله — علامَ نحاني هذا الفضل ثم جردني منه !

والثالثة تهمة « الشعوبية » إذ قال « فالحكم الذي اصدره هو حكم نقدي خضع فيه لذوقه الفني وملابسات حياته الاجتماعية والثقافية والنفسية فهو إذن حكم شخصي غير بريء » ص ٥٨ — ١) ولو صح هذا لالتمست التخصص في الأدب الحديث لا القديم ، او لآثرت — على الأقل — الادب العباسي على الجاهلي. ولم يكن اختياري للأدب العربي القديم لانني اكرهه وازدريه! بل لانني وجدت جميل مهجوره خيراً من قبيح مشهوره .. فراودني الامل في ان أساهم في بعث هذا المغمور فتقتنع الاجيال الناشئة ان ادبنا القومي الصحيح، في بداوته وحضارته، أدب إنسانيّ عالمي . وانا إذ أحيي في الاديب الناقد نفحة العروبة اخشى ان يحمل موقفه هذا على محمل الرجعية البغيضة !!

وبناءً على ما سبق يمكننا ان نقرر الحقائق التالية :

١ . ان أدب المناسبات في كل عصر ادب طارىء لا بد ان يزول بزوال الظروف الطارئة ، ومحاولة إحيائه لا تتجاوز إمكانية تحنيطه .

٢ . ان النزعة التقليدية في الادب ظاهرة مشتركة بين الامم لكنها طور عابر لا يبقى من فلوله إلا بمقدار نصيبه من العناصر الانسانية العامة .

٣ . لئن كان حكمنا النقدي شخصياً الى حد ما ، متأثراً بملابسات الاحوال والظروف ، إلا انه يستند الى أصول فنية عامة تشترك في تقديرها الامم على اعراقها وأحوالها ، لان النفس الانسانية واحدة في الجوهر ، وهي عرضة في كل مكان وزمان لعوامل الالم والامل. وإذن فلا مكان « للسوفسطائية » في النقد.

٤ . ان ادبنا التحرري لا يصلح لاحداث نهضة على اساس القديم البالي ، ولكنه صالح لاحداث نهضة جديدة تماشي الحياة ، وتحقق الاهداف التقدمية .

٥ . ان الادب التحرري هو نفير الحرب على الاوضاع القديمة، وهو طليعة النهضة الفكرية والاجتماعية والسياسية في الامم الناهضة.

٦ . اننا ندعو الاستاذ رمضان لاوند ومشايعيه ممن يقولون بان الادب التقليدي ينبض بالحياة الى ان يتعمقوا في درس طبائع النفس الانسانية ، واصول الادب الجمالية ، فينكشف لهم الغامض من سر الخلود في الادب . ومن ثم يجدون الموت فيما ظنوه حياة ، والجمود فيما اعتبروه حركة . وعندها يدركون ان الحياة والحركة مظهرهما الفني واحد في الآداب الحية ، على ما هنالك من اختلاف في مناهج القول ، وألوان التعبير .

كمال اليازجي

وجهة الأدب في العراق

بقلم سليم طه التكريتي

ظهرت الحركة الأدبية في العراق بشيء من القوة والسعة في اعقاب الحرب العالمية الأولى كامتداد لحركة البعث العربي التي بدأت بمصر في فجر نهضتها الحديثة وسرت منها الى اقطار عربية اخرى، كان من بينها العراق الذي جاءت النهضة فيه متأخرة، لعوامل عدة ليس مجال شرحها الآن – عن بقية البلدان العربية الواقعة على سواحل البحر المتوسط.

ولقد كانت الحركة الأدبية في العراق تترسم عند بداية ظهورها الطراز القديم، سواء كان ذلك في معالجة القريض او مزاولة النثر، حيث لم يخرج هذا او ذاك عن نطاق المواضيع التي كانت تغلب عليها سمة المحاكاة باسلوب لا يختلف عن الاسلوب القديم إلا قليلاً.

على انه ما ان قصرت المسافات بين اطراف المعمورة بتوسع استخدام وسائل النقل العصرية بعد الحرب الاولى، حتى اخذ العراق يتلقف المزيد من النتاج الفكري في مصر ولبنان، ذلك النتاج الذي كان في ذاك العهد يمثل طورين من أطوار الفكر او مدرستين فكريتين: أولاهما المدرسة القديمة التي قبضت على ما تركه العرب من آثار وأفكار فالتزمت بصيغتها وأساليبها وأبت ان تحيد عنها، وثانيتها المدرسة الحديثة التي تلقحت بنتاج الفكر الغربي فغدت تحاول محاكاته وترسم خطاه ونقل طرف من فيضه الى لغة الضاد.

وسرعان ما تأثر حملة الأقلام في العراق، وهم قلة ضئيلة في تلك الأيام، بهاتين المدرستين فراحوا ينسجون على منوالها، بل ويقلدونها في كل شيء، حتى جاء زمن كان فيه التفكير والاسلوب المصريان هما الغالبين على الحياة الأدبية في العراق، وكان فيه كل اديب عراقي تقريباً وقد اتخذ له مثالاً احد اعلام تينك المدرستين يحتذيه في اسلوبه، ويحاكيه في حذلقته ومقاله.

والذي اعتقده ان مرد ذلك التقليد يعود بالدرجة الأولى الى قلة الملمين باللغات العالمية الكبرى من الأدباء العراقيين آنذاك، وعدم استطاعتهم النقل عنها الى العربية، الى درجة ان المرحوم الأستاذ عبدالمسيح وزير – وهو لبناني المولد والنشأة ظل الى ما بعد سنة ١٩٣٠ الوحيد بين أدباء العراق ممن يتقنون الانكليزية وينقلون عنها بكثرة.

وقد دخل الأدب العراقي مرحلة جديدة لدى ظهور الواقعية «الريالزم» فيه ببروز طبقة جديدة من أدباء الشباب تفتحت ابصارهم ليس فحسب الى ما يبدعه الفكر الغربي من علوم وفنون، وما يدين به من عقائد وافكار، وانما الى واقع الحياة العراقية وما يعج به المجتمع العراقي من تناقضات، ويصطرع بين طبقاته المتخاصمة من رغبات.

لقد شرع اولئك الأدباء لأول مرة في العراق يغوصون في اعماق مجتمعهم فيدرسون ادواءه ويردونها الى اصولها الحقيقية التي نجمت عنها.

لقد شرعوا يعنون بحالة الفلاح وما يلقاه على يد الاقطاع المخيم بكلكله على العراق من مختلف الوان الشقاء، وضروب السلب والاستغلال. أجل هذا البائس الذي يعيش مع البهائم يشاركها مأكلها ومأواها، يفني زهرة حياته في التعاسة والحرمان في حين يتدفق ما تنتجه يداه ذهباً خالصاً الى جيوب طائفة ضئيلة تتفنن في اساليب الاسراف والانفاق، وتبتدع صنوف الملذات والشهوات.

وبدأوا يعكفون ايضاً على دراسة اوضاع العامل هو الآخر فيصفون قسوة العمل الذي يكدح فيه ليل نهار وتفاهة الأجر الذي يعود عليه من وراء كدحه المضني ذاك، وضخامة الارباح التي تتكدس في خزائن ارباب العمل، ثم يرسمون بعد ذلك خطط الاصلاح العام الذي ينبغي ان يقوم على أسس اقتصادية بحتة تهيء للكادحين الاستفادة من ثمرات جهودهم، واحلالهم المنزلة اللائقة بهم باعتبارهم الطبقة المنتجة التي تقوم على سواعدها اركان المجتمع وقواعده المتينة.

وقد تمثل هذا الاتجاه الواقعي في كثير من ضروب الانتاج الفكري فكان هناك بعض من اخذوا يعالجون كتابة الأقصوصة الواقعية، وآخرون ممن يكتبون البحوث الاجتماعية والاقتصادية على أساس التحليل الواقعي.

وحتى الشعر لم يعدم بدوره فيضاً من الواقعية اذ اخذ يعرض صوراً حية ناطقة عن حياة العامل والفلاح وما جره الاستعمار والمتعاونون معه من الحكام ، من بلاء على البلاد .

وكان لجماعة جريدة « الأهالي » واصحاب « الصحيفة » من قبلهم قصب السبق في الاخذ بالواقعية وتغليبها على النتاج الفكري في العراق اذ وضع هؤلاء نواة الادب السياسي الذي يهيمن اليوم على الحركة الثقافية الى ربوع الرافدين .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فأحدثت من التغيير الفكري في العراق ما احدثته في غيره من الاقطار ، فلقد تفتحت عيون الشعب العراقي خلال تلك الحرب وما بعدها فأخذ الوعي يتزايد بين افراده ويفتح امامهم مجالات واسعة من المعرفة والاطلاع ، ويدعهم يدركون مصالحهم ادراكاً تاماً ، ويميزون بين العدو والصديق ، ويفرقون بين دعي الوطنية والاخلاص وبين رائدها الحقيقي .

لقد شهد العراق في هذه المرحلة انقلاباً فكرياً واسعاً تمثل في استعداد الحركة الوطنية ، وغلبة النزعة التحررية في النتاج الفكري ، وظهور انعطاف كبير نحو الحركات التقدمية والافكار الانسانية ، فأخذ الشباب العراقي يلتهم بشراهة كل ما يصل الى يديه من نتاج يتحدث عن كفاح الشعوب في سبيل خلاصها من ربقة الاستعمار ، ودك حصون الرجعية ، وفك اسار العبودية الآخذة بخناقها ، وما تتطلع نحوه من مستقبل يرفرف فيه السلام وتنعم فيه البشرية بالأمن والرخاء والمودة .

وكان من آثار هذا الانعطاف التقدمي في الفكر العراقي ، ذلك الفيض القيم الذي اخرجته المطبعة العراقية في العشر السنوات الماضية – بين منقول وموضوع – من بحوث علمية ودراسات سياسية واجتماعية تتصل بصميم حركة الشعب في كفاحه من اجل تحطيم قواعد الاستعمار ، وتقويض دعائم الاستغلال ، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتهيئة حياة حرة سعيدة للمجموع .

ومع ان الابداعية لا تزال تحتفظ حتى الآن ببعض المراكز في الحركة الثقافية في العراق ، الا ان تلك المراكز اوهن من ان تصمد امام تيار الواقعية المتعاظم .

كما لم يعدم العراق نفراً ضئيلاً جداً من بعض الساديين الذين اخذوا ينحون منحى « السريالية » في انتاجهم وتفكيرهم ، ولكن هؤلاء من القلة وخمود الذكر بحيث لا يؤبه لهم مطلقاً .

وأخيراً فقد تميزت الفترة الاخيرة بغلبة القصة والشعر السياسي على غيرهما من ضروب الانتاج الفكري ؛ ويظهر مدى غلبة النزعة الانسانية التقدمية في الادب العراقي الحديث من انه ما يكاد يظهر كتاب تقدمي حتى تتلقفه ايدي القراء وينفد بسرعة عجيبة ، وان الصحف التقدمية كانت تحتل الصدارة في سعة الرواج والانتشار والاهتمام .

بغداد **سليم طه التكريتي**

أحلام .. تحت الحذاء !

قصة جديدة بقلم محمد أبو المعاطي أبو النجا

كان يفكر ، ذلك الصبي الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره . وكانت ملامحه الصغيرة تنقل في أمانة مظاهر ذلك التفكير وتكاد تشف عن لونه الحزين القلق ، فالعيون الصغيرة التي تبدو وكأنما شدت احداقها إلى مكان لا يتغير ، والفم المفتوح نصف انفتاحة ، والخطوات البلهاء التي لا تكاد تنتقل بين موائد المقهى حتى تقف مستندة بصاحبها الى هذا العمود او ذاك ، واخيراً ذلك النداء الخافت المتقطع الذي ينبعث من شفتيه في اعياء ليذكّر رواد المقهى بما اصاب احذيتهم من وحل الشتاء ، كل ذلك كان يؤكد ان منصور ماسح الاحذية يضم قلبه على أسىً ولوعة .

* * *

والحقيقة أن منصور لا يكاد يتمثل في خاطره ما حدث في صباح ذلك اليوم حتى تسري في جسده قشعريرة هائلة ، وتوشك ان تختنق عيناه بالدموع . ومن خلال الدموع تتراءى له صورة امه وهي تتناول زوجها الاسطى حسن حذاءه فيستدير نحوها في ضيق ليصفعها ، وهو يهدر :

— كفاية .. هل نحن نجد ما نأكله ؟

كان وقتها واقفاً وراء الباب يترقب ، فمنذ ايام طلب إلى امه ان تخبر عمه حسن — فهكذا كان يناديه — بأنه في حاجة إلى حذاء جديد ، فالشتاء قد اقبل ورطوبة الارض لا تطيقها قدماه .. والحقيقة انها ليست رطوبة الارض وحدها هي التي دفعته الى طلب الحذاء الجديد ، بل هناك امنية اخرى خفية كانت تستتر وراء هذا السبب المعقول . فمنذ شهور وهو يحلم بحذاء جديد يحرص دائماً على تلميعه وتنظيفه حتى يظل محتفظا برونقه ، ومحتفظاً بشيء آخر هو اغلى ما يحرص عليه ، هو ذلك الصوت الموسيقي الحلو الذي تحدثه نقلة القدم في الحذاء الجديد او الحذاء المدهون !

كانت تلك الأمنية الغالية تراود رأسه الصغير ، ولم يكد يقبل الشتاء حتى وجد من ذلك سبباً معقولاً يجعله يطلب ذلك من امه ، لتطلبه بدورها من عمه « حسن » . وها هو قد وقف خلف الباب ليسمع الحديث الذي بدأته امه وهي تناول زوجها ملابسه وتحاول بطبيعة المرأة ان تستلينه الى ما تريد ، ولكن الزوج الذي يستيقظ عادة كل صباح وقد زال من رأسه اثر الحشيش كما زال من جيبه اثر النقود ، هذا الزوج لم يكن مستعداً للتأثر او الليونة ، وإنما كان مستعداً لأن يصفع زوجته وهو يهدر :

— كفاية .. هل نحن نجد ما نأكله ؟

لقد أحسّ منصور إذ ذاك كأن هذه اللطمة تقع على جسده كله فتسحق كل مشاعره ، حتى لقد ظل لحظة مسمّراً في مكانه لا يحس بشيء غير ذلك الذعر الميت الذي امتص من عروقه الدم ! ثم أحس برغبة جارفة في ان يخمش باظافره وجه الاسطى حسن ، وان يعض كفه الغليظة الخشنة .. وان .. ولكنه سرعان ما زايل مكانه مختبئاً في دورة المياه ، حين سمع وقع قدميه وهو يهم بالخروج ، ثم عاد إلى حيث كانت امه واقفة معتمدة خدها بكفها ومرتفقة بيدها الاخرى حافة النافذة ، وقد أطرقت بعينيها الى الارض كأنما لتداري عن ولدها ما فيهما من جزع دفين .. وتقدم منصور من امه في خطوات بطيئة حتى التصق بها ، فخبأ وجهه في ثيابها وراح ينشج في صوت مكتوم .. لقد أحس وقتئذ بحب شديد نحو امه .. حب غامر دافق كأنما يود ان يدفع به عنها إساءة الزوج الشرس . وفي غضون هذا الحب كان يشعر ايضاً بضيق خفي واشمئزاز دفين .. كان يتساءل :

« لماذا تزوجت امه هذا الرجل الذي يصفعها والذي ليس أباه ؟ هذا الرجل الذي يأخذ منه آخر النهار كل ما حصل عليه من قروش ولا يكاد يترك له شيئاً ، فهو يعرف ما يمكن ان توجه زجاجة الصبغة وعلبة الورنيش ، فيحاسبه على ما استهلك من زجاجات وعلب ؟؟ إن القروش التي يجمعها تكفيهما معاً بغير حاجة الى الاسطى حسن ، ولو انها تركته لضاعف هو ما يجمع من قروش ولامتنع عن الذهاب إلى السينما خلسة مع الفوضى لمشاهدة طرزان وملكة الفهود .. »

وهمّ بان يخبر امه بكل ذلك ، لولا انها نحته عنها برفق وهي تقول : « لا بأس يا بني .. خذ علبة الورنيش وعد الى شغلك ، وبكره ربنا يفرجها ! »

لو كان ابوه حياً لما جرؤ الاسطى حسن على ان يدخل داره فضلاً عن ان يصفع بيده القذرة امه ، ولكن اباه مات وهو

صغير .. فتزوجت امه من الاسطى حسن لبعيلها هو والطفل وهذا كل ما يعرفه عن ماضيه .

***

– منصور .. منصور ..

والتفت منصور في دهشة . كانت تلك اول مرة يسمع فيها رجلاً يناديه باسمه ، فقد تعود دائماً ان يسمع من الاسطى « حسن » ومن غيره كلمة « يا ولد » ..

وأحس لهذا النداء بوقع جميل على مشاعره .. ما أجمل ان يناديه الناس باسمه ! وما أجمل ان .. وتبلدت خواطره حينما اقترب من مصدر الصوت وأدرك ما حدث من التباس . لقد كان الافندي الجالس الى المنضدة الخلفية ينادي صغيره الذي وقف على الطوار الممتد امام المقهى ليتفرج على مظاهر الطريق ..

وعاد الابن الى ابيه ووقف منصور يداري حيرته .. وكان الأب قد أدرك ما حدث من ارتبـاك فابتسم لمنصور ماسح الاحذية وقال له :

– انت اسمك منصور ؟

– نعم !

– هل تمسح الحذاء جيداً يا منصور ؟

– نعم يا بيه ..

واعتدل الاب في جلسته واضعاً مبسم الشيشة في فمه بينما انكفأ منصور على الحذاء يمعن في تنظيفه وتلميعه .. وبين لحظة واخرى كانت عيناه تختلسان النظر إلى وجه الاب الذي انشغل عنه بمداعبة ولده حيناً واجتذاب انفاس الشيشة حيناً آخر . ومن خلال هذه النظرات كانت تنبعث خواطره ..

– لو ان والده لم يمت .. لو انه عاش .. لكان من الجائز ان يحضر الى هذا المقهى ليدخن الشيشة ، ولحضر هو معه ولصفق بيديه مستدعياً الجرسون – الجرسون الذي لا يفتأ يناوئه في غدوه ورواحه – ليطلب منه واحد (سحلب) .. وراح يتصور والده ، والده الذي لم يره . كانت الصورة تستمد معالمها من وجه ذلك الأب الذي يمسح حذاءه : عينيه ، وشاربه ، وطربوشه ، وهو . كان إذ ذاك سيكون صورة قريبة من منصور .. منصور الآخر الذي يجلس على الكرسي المجاور ويشرب قدحاً من السحلب ولا يفتأ يسأل والده عن هذا الشيء أو ذاك ! كان سيلبس مثله « بنطلوناً » قصيراً فوقه ذلك (الجرس) الاحمر الجميل ، ويضع بعناية فوق رأسه ذلك « الكاسكيت » الرمادي ويميله قليلاً إلى اليمين ، تماماً كما يفعل منصور . ومضت خواطره ترتاد في خطى ذاهلة ارض الأحلام ، ثم تريثت تلك الخواطر بعد ان فرغ من مسح الحذاء وهمّ بان يعيد ادواته إلى مكانها من العلبة غير أن منصور .. منصور الآخر قد هز قدميه الصغيرتين وهو يقول : وانا أيضاً اريد ان امسح يا بابا !

– ولكن حذاءك جديد يا منصور ...

– لا يا بابا ... أنا اريد ان يلمع تماماً كحذائك ...

وانتقل منصور أمام الكرسي المجاور ليمسح للصغير حذاءه الجديـد ... وتركزت عيناه فوق الحذاء الذي لم ينتبه إلى جدته إلا الآن فقط .

كان حذاء انيقاً تتلوى في انحائه النقوش وتصنع حلقات وحلقات ... وكان اللونان الابيض والاحمر يتوزعان في انحائه بطريقة استأثرت طويلاً بعيني ماسح الاحذية الصغير ... ما اكثر ما رأى من احذية ! في اقـدام الناس وفي معارض المحال الزجاجية ولكنه ابداً لم يبصر مثل هذا الحذاء الجميل . وأحس بشعور جديد يطفو فوق مشاعـره المتماوجة المختلطة ، شعور بالأسف لأنه لم يحلم بمثل هذا الحذاء الأنيق .

وانكفأ فوق الحذاء يتلطف في تنظيفه وتلميعه ... كان يتحسس جلده الناعم في شغف كبير . كان يبدو كمن يربت عليه ... والواقع انه في هذه اللحظات كان لا يدرك حقيقة مشاعره . كان قلبه الصغير يستقبل اخلاط المشاعر المتباينة كما يستقبل رأس المحمـوم حشداً من التصورات لا صلة بينها ولا ارتباط . ففي الوقت الذي كان يشعر فيه بسعادة بالغة لأنه رأى هذا الحذاء الجميل ، ولأنه ملء يديه يتلمس جلده الحلو ونقوشه البهيجة ويتعهده بالتلميـع على هواه ، في هذا الوقت وربما في غضون هـذا الشعور ، كان يحس بضيق ملحّ وسخط مرير ، لان هذا الحذاء ليس له ولن يكون له بحال ! وفي الوقت الذي يشعر فيـه برغبة خاصة في ان يفتنّ في تنظيفه وتلميعه مهما كلفه ذلك من « ورنيش » حتى يخرج من تحت يده وهو صورة رائعة لأحلامه الماضية ، في هذا الوقت ايضاً كان ينسلّ مـن رأسه خاطر شيطاني ... ماذا لو احدث في هذا الجلد كشطاً بقطعة الصفيح المحدّدة التي يزيل بها اثر الطين من نعل الحذاء ؟ كشطاً يشوه منظره دائماً فلا يبدو وهو في هذا الرونق ابداً ؟ مـاذا سيحدث ؟ لا شيء ! سيبكي ويقسم لهم ان ذلك حدث بالرغم منه وسيصدقونه من غير شك وسيتركونه ، غير ان الحذاء سيبقى

نزوع الادب

بقلم داود جرجس درويش

بين أدب «الحبر والورق» وأدب «اللحم والدم» او بين أدب الانطواء وأدب الانضواء، او قل بين أدب الاعتزال وأدب الالتزام يذر قرنه اليوم في الأدب العربي، في مصر ولبنان، صراع اين منه صراع القديم والجديد إبان عصر النهضة الادبية في القرن السابع عشر الاوربي . بل هو نتيجة متسلسلة عن صراع القديم والجديد في كل العصور وكل الامم، هذا الصراع الابدي بين حلقة تطورية سابقة وحلقة لاحقة.

فمن مذاهب في الادب متنوعة في الغرب والشرق : من كلاسيكية ورومنتية ورمزية وسادية وبرناسية وواقعية، وحياتية وسوريالية، الى كلاسيكية جديدة فالتزام وجودي الى أدب مستقل، أدب الفن للفن، والى أدب منضو الى مختلف الألوية الفكرية من اقتصادية وسياسية واجتماعية وفلسفية، الى أدب ملتزم اجتماعي، قومي أو انساني . . الى مختلف الضروب والانواع والتفرعات من كل مدرسة ادبية على حدة ..

في غمرة هذا الصراع الذي يجد مقدماته في جذور التاريخ البعيد ويبسط اجنحته عبر الحيز الارضي، والذي ينتقل تياره اليوم الى الشرق العربي، لا بد ان تتضارب الآراء وتتشابك المفاهيم، وتتفاعل الخلاصات — ولا بد ان ينظر الاديب الناشيء حوله فاذا بفوضى تتراءى له في مناهج الادب، بله في مناهج الاجتماع، وفي مناهج الحضارة والفكر .. وقد يتردد حينذاك بين حلول ثلاثة :

يعتزل الادب والمجتمع خشية على عقله من الاختلاف تجاه هذه البلبلة الطاغية ..

أو ينضوي الى لواء — أيّ لواء — من ألوية الفكر والأدب المنشورة، فيضيف الى عدد جنودها بطلاً جديداً . .

أو هو يتحدى كل سمت سلفه فيروح يختط لنفسه السبيل عبر ادغال الحياة ومجاهل الكون . وقد يتيح له الحظ قدراً، فيتألب من حوله الانصار والمعجبون، ويسير على غراره الناسجون — هذا اذا لم يتصدّ لهم البعض داعياً الى ان يكون كل اديب حزباً قائماً بذاته — .. وقد يعيش اذاً منعزلاً وحيداً سجين نفسه وافكاره، الكل في وادٍ وهو في واد، كواحة في صحراء، او ان شئت فقل كوتد في روضة..

ادب الاعتزال

معذرة من الاستاذ عبد اللطيف شراره اذا كنت قد تطفلت على ادبه بمثل هذه الطريقة المفاجئة . واسرع فاؤكد له «اني بعيد كل البعد عن روح الاجرام والارهاب والايذاء» وعن «الدعوات المغرضة والاباطيل الكاذبة» ولست اذاً ممن ينوون به شراً او اذى.. انما هي عبارة ذكرتها له فايقظت ما كان تبقى في كوامن نفسي من انفة وتحرر، وقد كادت تنزلق رجلاي مع التيار .. فيما يذهلني ان اراه هو نفسه حائراً متردداً، ينقل رجلاً من البرعاجية ليلقي بها الى «الحرية التي هي القاعدة ولا قاعدة غيرها» والى «استقلال الشخصية ..» وتفردها بما تعطي وتغلّبها على القيود الاجتماعية التي تحد من انطلاقها «في آفاق النور والمعرفة والاختبار» وفي «ان كل اديب حزب قائم بذاته»، فلا يطمئن في حقل الحياة العامة الا لما يراه» .

برغم ما عليه من ورنيش رديء المنظر فاقد الجدة . غير ان الخواطر في رأس منصور كانت تخضع لقانون المد والجزر، فسرعان ما كانت تنحسر عن رأسه جاذبة معها كل ما في قلبه من عزم وتصميم .

وفرغ «منصور» من مسح الحذاء، وانتزع يديه منه . وراح يجمع أدواته ليعيدها إلى مكانها من العلبة، بينما وقف الاب وامتدت يده إلىَ جيب سترته تخرج ورقة من فئة العشرة القروش أعطاها إلى «الجرسون» ليأخذ منها حسابه ثم اخذ منه القروش الباقية ونقد منصور منها قرشين !!

وهمّ بمغادرة المقهى مصطحباً صغيره بيده، فتراجع منصور قليلاً الى الوراء ليفسح لهما الطريق، ثم ما لبثا ان تابعهما بعينيه وهما يمضيان في الميدان الفسيح . كانت عيناه تبصران غيرهما في الميدان الذي يغص بالناس . وكانت أذناه تلتقطان من بين الضجيج الصاخب — الذي ينبعث من عجلات الترام والسيارات ونداء الباعة — صوتاً موسيقياً جميلاً كانت تحدثه نقلة القدم في الحذاء الذي يلبسه منصور .. منصور الآخر .

(القاهرة) — **محمد ابو المعاطي ابو النجا**

ثم هو ينقل الاخرى من الأنضوائية لينضوي بها تحت لواء الحزبية الوطنية والحزبية اللغوية «والانضباط الاخلاقي» والمرحلية الراهنة .. الى نوع من الالتزام غير بعيد من الانضوائية التي هجرها ..

لست اناقش الاستاذ شراره هنا حول ما أدعوه بانضوائيته أو قل بالتزامه. بل اكتفي بمساجلته. حول انعزاله أو استقلاليته هذه التي تبدو منه في انتقاده للانضوائية :

« ان خضوع الاديب للمجتمع لا يكسب المجتمع شيئا ، بل يزيد افراده عبداً من هؤلاء العبيد الذين أذلتهم شهوات الآخرين واستعبدتهم تقاليد مجتمعهم . وان انضواء الأديب لفكرة لم يستمدها من حياته ، ولرأي لم ينبع من نفسه ، ولا تفجرت عنه شخصيته ، يدل على ان صاحبنا ليس اكثر من بوق لغيره » . الى ان يقول : « ان اديب هذه البلاد لا يستطيع في المرحلة الراهنة ان يتجند في حزب ويستمر على دعواه في أداء رسالة ادبية ؛ وإنما يستطيع اذا تجند ان يدعي كل رسالة اخرى في مناحي الاجتماع والسياسة والفلسفة والعلم ، ولكن لا يمكن ابداً ان يظل اديبا ! فالحقيقة الاخيرة هي ان كل اديب حزب قائم بذاته .. »

اظن ان الاستاذ شرارة قد خلط هنا بين الحزبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين العلم والفلسفة وبين الاجتماع والاقتصاد والسياسة كعلم وتعبير . كعلم تجريبي عقلاني هادىء وكوعي وادراك متطورين وكحياة يعيشها الأديب في نفسه ويتمثلها بتفاعله مع بيئته ومحيطه ومجتمعه. وليس كمفهوم حزبي أو مدرسي مشتق عن نظرة خاصة للحياة في زمن عابر ، او كخلاصة مجمدة للحركة التطورية ضمن حدود الواقع الآني، الواقع الزمكاني الاجتماعي المحدود باطار الزمن والحيز والوجهة الخاصة، قد يكون في فترة تاريخية محدودة ثم يمضي .. فالحزبية اقتصاد او سياسة او اجتماع محدود المفهوم . اما الاقتصاد والسياسة كعلم ، اما الفلسفة والاجتماع كوعي وإدراك وحياة ، فانعكاس مستمر لواقع متطور يصبو إلى الحقيقة الكلية وينزع إلى المطلق.

وبعدُ فان لم يعبر الأديب في ادبه عن علم وادراك وحكمة وإن لم يعبر عن اجتماع وسياسة واقتصاد او عن تربية وصحة وعمل ، فعمّ يعبر اذاً؟ أيعبر عن القطط المدللة تمرّض في احدى مستشفيات انكلترا ؟ ام يعبر عن قوة الشم لدى كلاب الصيد في فرنسا ؟ أم هو يتيه في نجوى القمر والنجوم ويحلم بذكرى ليلى وهند وسعاد ؟ ام تريده سائحاً في اثر طرزان بين ادغال إفريقية واوقيانية ؟

ومتى امكن لكل اديب ان يكون جزءاً قائما بذاته يؤلف هو رأسه وقلبه واجنحته والقاعدة ؟ وهل يود الاستاذ شرارة أن يخلق لنا من كل أديب فيلسوفا عبقريا كهراكليت وارسطو وديكارت وهيغل ؟ وعالما اقتصاديا من نوع جول سيمون وفوربيه وكارل ماركس ؟ ومفكراً اجتماعياً فذاً كرينان واوغست كونت وابن خلدون ؟ وأديباً إلى ذلك .. اديباً من طراز شكسبير وغوته وراسين والمعري ؟ ام يريده ان يكون كل ذلك دون ان يتقن شيئاً من ذلك ؟ وهل يعقل ان يجتمع في رجل واحد صفات ومؤهلات قد يتعذر وجود واحدة منها في الاديب الواحد ؟ أوَلا يخلق ذلك من حولنا محيطاً عجيبا كله لجج وأمواج من المستحدثات الفكرية المبتكرة تقتتل على البقاء وليس من يدعو اليها وليس من ينافح عنها وليس من يسعى إلى تحقيقها حياةً ومجتمعا جديداً، إلا ذلك الاديب الجامع للفكر والتعبير والتحقيق على أكمل وجه في شخصه الفذ نسيج وحده ! والذي لا أعقل ان يكون له صورة خارج مخيلة مبدعه، اليس ذلك عودة منا في نهاية المطاف إلى البرعاجية والعزلة بحجة التحرر من المجتمع والهرب من عبودية المجتمع ؟

***

اذا كان الاستاذ شرارة لم يحقق على الوجه الصحيح ما يصبو اليه من الخروج عن البرج العاجي ، واذا كان في محاولته نفض اليد من الانضوائية قد عرض مذهبه للانزلاق نحو نوع من التحرر والانعزال هو نقيض للانضوائية على صعيد الادب واستمرار ولو جزئي للبرعاجية وان تكن من نوع مبتكر .. فهذا الاستاذ باسيلا يعود بنا بجرأة وصراحة لا لبس فيها ولا مواربة الى برجه العاجي حيث يرى ان « الانضوائية هبوط في الادب من مناطقه الصافية واجوائه المترفة حيث الشعر نغم وصبوة والقصة حياة تنهمر كالحياة سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية .. وارتفاع بالعقيدة والمذهب وما ينطويان عليه من حذلقة وفذلكة الى مراتب الفن. حيث لا شيء الا جمال واغراء وفتون ودوران الايام على مهل ووجهه الكريم .. »

نحن نسأل الاستاذ باسيلا متى رأى الجمال يتجلى في الفن — على اعتباره روعة — اسمى من الحق ينير العقيدة والمذهب ولو جزءاً وزاوية ؟ .. وأين الحذلقة والفذلكة في العقيدة والمذهب

من حذلقة ارباب الفن للفن ومن اسفاف الكلم الغنائي عندنا وميوعة النغم الموسيقي في هذا الفن الذي بين ايدينا ؟.. واذكر هنا عرضاً ، ادباً كانت له هيمنة في عصور الانحطاط العربي ، هو ذلك الادب اللفظي ، او المقامات المسجعة ، إدب الترصيع والزخرف والحشو والالفاظ النابية والتعبير الغامض وادب النظم ، لا شعور ولا فكرة ، وتراصف الاصوات الجزلة تقوم مقام المعاني .. اذكر ذلك النوع من الادب حينما اقرأ للأستاذ باسيلا وهو يدعي ان العقيدة والمذهب حذلقة وفذلكة لا قبل لهما بالارتفاع الى مراتب الفن الادبي: ادب الحياة ينهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية .. اشهد ان الادب اللفظي ادب عصور الانحطاط قد حقق امنية الاستاذ باسيلا .. اشهد انه لا هدف له ولا غاية الا تلك الغاية الوضيعة يتوخاها « الاديب » من إثارة اعجاب معاصريه بحذلقته وفذلكته وفنه للفن .. ووجهه الكريم ..

وهل صحيح ان الحياة تنهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية ؟.. فأي معنى للحياة اذاً ؟ .. وكيف نؤمن بحركة الحياة الصاعدة المنتشرة التي ندعوها التطور ؟ . وذلك النظام الجبار في الكون فلكاً وذرّة وعضوية ، وذلك الفن الحيوي الأخاذ في حبكة الكيان الثابت والاحساس الحيّ والوعي المستوعب .. اهو سير عفوي في ظلمات معتسة نحو لا شيء ؟.. ام ان الاستاذ باسيلا يتخيل حياة غير هذه التي نحياها ، حياة ناعسة غافلة حالمة مثلها مثل الادب الذي يدعو اليه ؟ . ما اتعس الانسان في مثل تلك الحياة المنهمرة على غير هدف ، النابعة من لجج الصدف ، الغارقة في ظلمات الحظوظ والنحوس ، المنصبة في شطوط الاقدار المحتومة .. وما ابلد الانسان يغل نفسه بقواعد وسنن ونظم وشرائع ، انه لا يدري « ان الحياة تنهمر سكباً سهلاً على غير هدف وفي غير غاية » .

كلا ليس ادب النعاس اللذيذ والغفوة الحالمة بأدب.. بعيد كل البعد ان يكون الادب انكماشاً على الذات وانزواء في قوقعة وإطلالة على الكون من وراء برج عاجي .. واستمراء اللذة والمتعة لا يهنأ بها غير هذا الأنا » الشرود لا همّ له من الكون والمجتمع إلام يؤول بهما المصير ! .

ما هو الادب ؟

ورب سائل يعترض عليّ بقوله : فما هو الأدب اذاً ، وكيف تنتقد أدباً وانت لم تحدد لنا معنى الادب ؟ لكي نبلغ من المجموع إلى اضاءة المبهم في هذه المغمضات الحالكة حول الادب وعلاقته بالاديب كانسان يدرك ويشعر ويعبر ، لا بدّ لنا من ان نعود ادراجنا إلى اجتلاء معنى الأدب. ولست اقصد بذلك إلى وجوب استعراض لغة الأدب : ادب يأدب مأدبة وأدباً.. فأنا لا اركن إلى أدب اللغة .. ولست أثق بصلاحية المعنى المشتق عن اللفظ والحرف ومومياء المعاجم في التعبير الصحيح عن معاني الحياة .. الحياة المتطورة ، تتخطى نفسها بنفسها وتستحيل إلى سواها بعد إذ كانت حدثاً عبر عنه ارباب اللغة يومئذ بالفاظ وحروف واصطلاحات كانت من واقع الحال آنذاك . واذ شاؤوا لها تسميراً في بطون المعاجم إذا بها تجتاح السياج وتمزق الأغلفة ويقتنصها مفهوم الانسان الجديد تحت ثوبها الجديد ، وظل الانسان القديم في تصلبه ، يقلب صفحات المعاجم ويراجع مكاتب النحاة ودور الصيارفة وإذا به كمن ينبش التراب في بعثة اثرية ليجد أقاديم منسية هي من صميم التاريخ ..

عفواً لقد ضللت الطريق إلى الموضوع .. ام يخيّل إلي انني طرقته من احدى نوافذه الجانبية ، فسماحاً من القارىء العزيز إذا كنت قد حاولت اخذه على حين غرة :

ليس الأدب الفاظاً ومعجما واصطلاحاً .. وليس الأدب صرفاً ونحواً وقواعد وتراكم اغلال . . وليس الادب تنميقاً وترويقاً وتورية ورمزاً ولثاً .. فما الادب اذاً ؟

إن مقومات الحياة لم تكن يوما في الغلاف والقشرة بل في بذور المعنى والمقصد والمؤدى .. بل في نواة المدلول نريده بتلك الالفاظ غاية وقصداً. فلِمَ نريد أن يكون الادب شيئا غير الحياة ؟ لماذا نريد الادب يعبر عن كل شيء آخر ولا يعبر عن الحياة ؟ فالادب هو الحياة ، هو التعبير الصادق الواضح المفعم عن معاني الحياة .. هذا هو الادب !

ما اشبه وظيفة الادب والفن والفكر ، وظيفة التعبير عامة ، بوظيفة الماء في خلايا الجسم : هو السائل الناقل للحركة والحياة والتفاعل ضمن الخلية الاجتماعية الحية وعبرها ، وهي الشريان الذي يؤمن استمرار الاتصال بين الفرد والفرد ، والفرد والمجتمع ، والمجتمع المحدود والمجتمع البعيد ، فالكون الاعظم .

الفكر ، التعبير ، العمل ، هي الثالوث الحياتي الخالد . وضامن الاتصال بين الفكر والعمل هو هذا العامل الوسيط : التعبير : الحكمة ، الادب ، الفن . والادب هو ذلك النوع الخاص من التعبير ، التعبير الذي يتخذ من الفكر والاحساس

• والوجدان جذوره وقواعده ومن الحبكة والفن والاتقـان صناعته . انني لم ابلغ في ذلك الى تحديد مانع في الادب ، إنما كان مني رسوب الى زاوية بقاع المعنى الذي يتخذه الادب في إحدى صفاته ، لعلها هي الاساسية !

الادب ، اذا صح هذا المفهوم اذاً، تعبير عما يختلج في النفس من مشاعر وانفعالات وأحاسيس ؛ وما يعتمل في العقـل من صور ومقابلات واحكام ، في انعكاسها على صفحة الوجدان حوادث الكون الخارجي والمجتمع المحيط وآثار تلك الاحداث مجتمعة متفاعلة متجاوبة متسلسلة الاصداء إلى ما لا نهاية !

واذاً فوظيفة الاديب الاساسية هي « الاتصال » : الاتصال بروح الكون وكنه الطبيعة وجاذبية المادة ، ونفوذ إلى تاريخ التطور والحاصل الواقع منه على ضوء احداث العالم وتأثيرات تلك الاحداث في المجتمع ، وانعكاس تلك الاحـداث وتلك التأثيرات في تطور الآراء والمذاهب الاجتماعيـة ، والخطوط المرتسمة على صفحة الافق المقبل من وحي جذور الماضي ووجهة نزوع ذلك الماضي في بلوغه إلى الواقع .

أو ليس ذلك الاتصال «بروح الكون» على شيء من الصوفية الغائمة والنرفانا وروح التقمص ؟.. قد يكون ذلك او قد يكون بعض ذلك.. وماذا يضير الادب اذا كان صوفياً في بعضه لاسيما وبعض الادب العالمي والغربي منه ، ينزع في كثير من مناحيه الى كثير من الصوفية ؟ ..

ولكن هل يعقل ان يكون على صوفية غائمة ، ادب يستمد لبه وجـذوره من جذور العلم والتجربة والمادة .. ويندرج في سمته بمحاذاة التطور تاريخاً وواقعاً ؟ .. ربما .. وقد تكون جذور مقابلة تركن الى الروح والوحي واللاهوت .. ومـاذا يضيره ذلك ايضاً .. اليس كذلك يحدث التوازن ؟ ..

الادب التعبير .. الادب الاتصال .. محبـة وألفة وجاذبية واتحاد.. هو شعور عميق بوجود الكون ونظام الوجود وصعود النبات ودبيب الحيـاة ودوران الحركة .. هو احساس مرهف بجمال الارض وعبير السماء وإخاء المجتمع عبر حـدود العنصر والطائفة والوطن والطبقـة واللون والقومية : إلى معانقــة الانسان ..

الادب التعبير .. الادب الاتصال .. الادب الاتحـاد .. تمثيل وحياة .. والادب التمثيل وعي ويقظة وادراك. وفكر وضمير وحكمة.. واتزان وقياس واستيعاب. هو حركة رحوية تكدس ركام المعلومات والصور والذكريات لتطحنها طحناً ولتعركها عركاً في بوتقة التأمل والبحران .. ثم تعمد إلى ذلك الجوهر الحكمي وبنـات الفكر فتصهرها وتذيبها في عصارة الشعور والوجدان بحيث تصبح سائغة للهضم فيقدمها الاديب لقمة مريئة على مأدبـة الأدب القشيب : أدب اللفظ والصرف والمعجم ، الادب المكتمل معنى ومبنى .

هذا هو الادب في حقيقته الموضوعية : تمثيل الوجود والحياة والمجتمع : المجتمع المجاور والمحيط والمجتمع البعيـد الشامل . وتجاوب نفسي مستمر ، يأخذ الحركة والحدث والكيان صورة وجوانب وضروب العقائد والخلاصات الفكرية الدائرة في الفلك الانساني ليتمثلها في قلبه ولبه وليخرج إلى المجتمع بخلاصـة تزاوجها مع عقليته ومفهومه وحيويته واستيعابه . وينظر إلى التطور كحركة من صميم وجوده تؤلف حياة هو احـدى حلقاتها .. فعليه ان يجعل من حياته حلقة تطورية فاعـلة في سير التطور المقبل .

داود جورجس درويش



النتاج الجديد

ما فوق مبدأ اللذة

تأليف سيجموند فرويد

ترجمة الدكتور اسحق رمزي

منشورات دار المعارف بالقاهرة

هذا كتاب أجدني معه أمام مشكلة خطيرة ماتزال الانسانية إزاءه واقفة موقف الحيرة العاجزة في نحو من الانشداه فلا تخلص منه الى رأي إيجابي نهائي في قضايا الوجود الكبرى .

ولا يعني ذلك ان المؤلف قد تعرّض لها عن قرب او بعد ولكنه استطاع فيما عالجه من الموضوعات ان يبعث في نفس القارىء أشتاتاً من الاستنتاجات وفنوناً من الفلسفات والحلول تفرض عليه مجابهة المجهول ، رغم شعوره بخطورة هذه المجابهة وعجزه عن إدراك ما يجابهه بمعطيات الفكر الانساني الواعي المنظم .

فالكتاب محاولة لادراك عامل نفسي وتفسير جديد ملحق بالتفسير التقليدي لكل ما يصدر عن الكائن الانساني وهو مبدأ (اللذة وعدم اللذة). فالانسان حين يفكر ويعمل لا يستهدف غير اللذة وذلك للتخلص من (عدم اللذة) الذي تكونه حالة توتر عنيف وظاهرة صراع بين المبادىء والعوامل المتناقضة في الحقلين المادي والمعنوي .

الجوع حالة توتر بيولوجي لا يزيلها غير الشبع . فالشبع لذة والجوع عدم لذة . والجهل بحقيقة ما يحيط بنا من اسباب الحياة والموت وحقيقة البقاء والفناء حالة توتر لا يزيلها غير المعرفة فالمعرفة لذة والجهل عدم لذة . غريزة الجنس طاقة تهدف الى التحرر والانطلاق وكذلك الغرائز التي اطلق عليها علماء النفس اسم (ça) او (الهو) . و (الأنا) مجموعة من قيود فرضها الدين والمجتمع المتحضر تتحول حجاباً حاجزاً دون انطلاق (الهو) وتحرره . فتتكون بذلك حالة صراع وتوتر تحدث بدورها (عدم اللذة) ثم لا تكون اللذة إلا في حدود مايتحرر من هذه الغرائز المكبوتة المحجوزة .

وقد حاول سيجموند فرويد ان يكتشف الروابط المشتركة بين هذه الغرائز فوجدها مجموعتين متميزتين متناقضتين إحداهما غريزة التهديم وثانيتها غريزة البناء والحب . اولاهما تستهدف الفناء وثانيتها تستهدف الحياة والبقاء . وهما في صراع دائم يتفاوت شدة وضعفاً بتفاوت العوامل الخارجية والداخلية .

وقد خرج فرويد من ذلك الى اكتشاف مبدأ جديد غير مبدأ (اللذة وعدم اللذة). لقد وجد ان التطلع الى الفناء والتوجه الى الموت والجمود حقيقة نفسية ثابتة، وقد اطلق على هذا التطلع اسم غريزة (الموت) . ومعنى ذلك ان الموت كما يبدو لأول وهلة مبدأ ثابت وعنصر اساسي من عناصر الوجود . لا سبيل الى التخلص منه والسيطرة عليه الا حين يتغلب العلم على الغريزة وينتزع منها معنى وجودها . ومعنى ذلك في نظري السيطرة على مبادىء الوجود العامة .

فاذا عرفنا ان الصراع عملية استهلاك للطاقة الانسانية ، واذا كان هذا الصراع مبدأ من مبادىء وجود الكائن الحي ، فقد لا نبالغ اذا زعمنا ان الموت آت لا ريب فيه، لأن معناه توقف الصراع توقفاً نهائياً اي استهلاك تام للطاقة الانسانية، هذه الطاقة التي اطلق عليها فرويد اسم (لبيدو) .

والموت صفة للجماد لانه حالة سكون مطلق، ومعنى ذلك ان الغرائز تسعى إلى إعادة الامور الى ما كانت عليه من قبل . اما الحياة فصراع متوتر بين سكونين . فهي إذاً ظاهرة شاذة وانحراف لا يتسق مع مجرى الوجود العام . فاذا صح هذا الفرض « لم يكن هناك ما يدعو الى العجب من ان ثمة كثيراً من العمليات التي تجري في الحياة النفسية مستقلة عن مبدأ اللذة . وهذه خاصة تتقاسمها كافة الغرائز الفرعية الخ. ص١٠٤ » .

والحقيقة ان تلخيص الكتاب شيء معجز لان المؤلف قد حاول فيه ضغط افكاره ضغطاً شديداً بحيث ان كل جملة من جمله في حاجة الى انتباه مركز ودراسة مجوّدة . فالكتاب على قسط كبير من الغموض والتعقيد .

وقد كنت احب ان استعرض كل فصل من فصوله على حدة لتفصيل ما اجمل وتوضيح ما أبهم ، ولكن صفحات مجلة « الآداب » لا تتسع لمثل هذه المحاولة . لذلك أكتفي بتحويل القاريء اليه راجياً ان يكتشف به آفاقاً غنية شاملة من حقيقة الانسان والوجود .

وإن أنس لا أنس مجهود الدكتور إسحق رمزي الذي وفر لنا في هذا الكتاب ثلاث فوائد رئيسية :

اولاً : انه وضع بين يدي القارىء نتاجاً رائعاً للفكر الغربي الحديث .

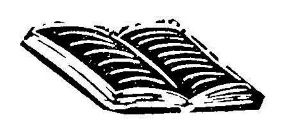
ثانياً : انه شارك في إعداد اللغة العربية إعداداً يمكنها من

التعبير عن اكثر ألوان الفكر تعقيداً وابعدها تطوراً .

ثالثاً : انه قدّم الكتاب بتمهيد يساعد القارىء العادي على إدراك الخطوط العامة لمكتشفات سيجموند فرويد النفسية والفلسفية .

إن اللغة العربية اليوم في حاجة شديدة الى مثل مجهود الدكتور إسحق ، لانها وان كانت في نظري تشتمل على إمكانيات ضخمة لمسايرة التطور الحديث بل لتجديد شباب الحضارة الحديثة، فان مهمة رجال الفكر هي نقل هذه الامكانية من القوة الى الفعل ، من حالة الكمون الى حالة التحرر والانطلاق .

رمضان لاوند



خلاصة تاريخ تونس

للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب

أخرجت هذا الكتاب النفيس دار الكتب العربية الشرقية بتونس ، وكان من حظنا ان اطلعنا على الطبعة الثالثة منه وهي طبعة دقيقةالتنظيم كاملة الترتيب سليمة اللغة والذوق، وكل أولئك رغّب إلينا ان نقرأه مهما كان كتاباً مدرسياً مختصراً .

وقد أطفأ فينا بعض الشوق لقراءة تاريخنا على امتداد هذا الساحل الذي صنع التاريخ قديمه وحديثه ، ولكن الشوق لن ينطفىء كله إلا إذا برّ الأستاذ المؤلف بوعده فأخرج لنا تاريخ تونس الكبير كما وعد في مقدمة هذا المختصر .

وما من شك في اننا نحن الساكنين في هذه الجهة من شرقي البحر في اشد الحاجة لأن نعرف عن تاريخ تونس الشيء الكثير فقد كانت مسلك التيار الذاهب الى الغرب والوافدمنه ، وكانت المنفذ الذي سارت منه مع الجيوش الفاتحة العقائد والتجارات وألوان الاجتماع والحكم، وكانت تونس تطبع كل ذلك بشخصها القوي وتلد له مع رجاله رجالاً من بينها كانوا الابطال في شتى الميادين من اقدم عصورها الى اليوم .

بل إن تاريخنا الشرقي لم ينفصل قط عن تاريخ تونس ، فالحوادث والرجال والوقائع التي عرضها الاستاذ في كتابه هي هي نفسها حوادثنا ورجالنا ووقائعنا ، ومن هنا وجب ان يكون هذا الكتاب ايضاً لطلابنا فاننا لم نعش وحدنا منفردين في هذه الارض ، وعلى القراء ان يحصلوا على هذا الكتاب ليروا ان تاريخ تونس هو تاريخ هذا الشرق العربي نفسه في القديم والجديد .

واكثر من ذلك ان تونس كانت معبر قوادنا الى اوروبا يغزونها ويفتحونها وينقلون حضارتنا اليها . وفي أرض تونس قضت جمهرة كبيرة من كبار رجال الفتوح يلذ للقارىء ان يعرف عنهم في هذا الكتاب ما يذكره بمجد العرب والمسلمين .

ولم يفت الاستاذ الفاضل مؤلف الكتاب ان يتحفنا في كثير من الاحيان بنصوص ادبية رفيعة ذات مزاج تونسي عربي لطيف كقول الحسن بن رشيق يمدح السفر والارتحال : « مثل الرجل القاعد كمثل الماء الراكد إن ترك تغير وإن تحرك تكدر، ومثل المسافر كالسحاب الماطر ، هؤلاء يسمونه رحمة وهؤلاء يدعونه نقمة ، فاذا اتصلت ايامه ثقل مقامه وكثر لوّامه فاجمع لنفسك فرحة الغيبة وفرحة الأوبة » .

وفي مثل هذا الاختيار تظهر رقة الشعور من مؤلف كتاب في التاريخ . وإننا لنهنئه لهذا التدقيق ونرجو للشعب العربي عامة ان ينتفع بهذا المؤلف الجليل ثم يطلب من دار الكتب العربية ومن الاستاذ الفاضل المزيد .

عبد العزيز سيّد الأهل

مع الفجر

مجموعة شعرية لسليمان العيسى

(٢٥٤ صفحة من القطع الصغير مطبعة سعد – حلب

عندما تلاقى نابوليون وغيته، لم يتمالك القائد الفرنسي العظيم ان يعبر عن إعجابه بالشاعر الألماني العظيم بقوله (Voilà un homme) – هو ذا إنسان –

ذكرت هذا وانا اطالع ديوان (مع الفجر) للشاعر السوري الشاب سليمان العيسى ، فسمعت في أعماقي صوتاً يهتف : (هو ذا شاعر) .

نعم هو ذا شاعر ، يغرس في حقول الشعر العربي الجديد حديقته الأولى الزاهية من شاعرية خصبة غنية .

اقول هذا وانا حينما أقرأ كتاباً او ديواناً من الشعر، لست انظر الى ما فيه « للشاعر » او « للكاتب » وحده ، او ما فيه

« للقاموس ، او لقواعد البلاغة والعروض » ، فكل اولئك آخر ما يهمني ، وأتفه ما أمرّ به ، ولكنني انظر الى ما فيه « للناس ، وللمجتمع » : لي انا نفسي ، ولغيري من أبناء هذا العالم . ومن هذه النقطة ينطلق تقديري ، وعنها يتفرّع . ثم تكون نظرتي الثانية — وهي نظرة مكمّلة للأولى — الى الأسلوب .. الى الثوب الذي يخلعه قلم الكاتب على موضوعه والشاعر على قصيدته او ديوانه .

وعند هذا التقدير أستطيع ان اقول إنني قد وجدت في ديوان (مع الفجر) لي وللناس وللمجتمع العربي شيئاً كثيراً . ولست اريد ان أطيل في التفصيل ، ولكنني اقول إن في الديوان شعراً عربياً قومياً ، وشعراً اجتماعياً شعبياً ، يملأ بصدقه وصفائه النفس ، وهو القسم الأكبر من قصائده ، ووجدت فيه رقة العاطفة ، وروعة الخيال ، وصفاء العبارة وقوّتها .

ويعزّ عليّ كثيراً ان أمرّ بهذه الحديقة الريّا بالحياة والجمال فلا أقطف منها للقراء باقة ، ولكن يعزّ عليّ كذلك ، واكثر من ذلك ، ان اختار باقة واحدة صغيرة واترك ورائي حقلاً طافحاً بالجمال . ولذلك ارجو ان يطوف القارىء بنفسه في هذه الحديقة التي تعبق بأشذاء الربيع ، وتشعّ بألوانه ، وتتفتح فيها براعمه (مع الفجر) النديّ .

وللشاعر الشاب اطيب التهانىء على شعره القوي الذي يشق به طريق المجد ، لأنه يكتب للشعب : الشعب العربي الجريح الذي اذلّته الخيانات والنذالات ومؤامرات الأعداء والأبناء معاً .

عمان **عيسى الناعوري**

صاحب مجلة « القلم الجديد »



شمس الخريف

رواية من تأليف عبد الحليم عبد الله

الاستاذ عبد الحليم عبد الله هو الكاتب الذي حالفه الحظ كما لم يحالف كاتباً آخر ، لا في مصر فقط بل في الشرق أجمع . فقد ظهر فجأة عام ١٩٤٦ حين نالت قصته (لقيطة) الجائزة الأولى في مسابقة مجمع فؤاد الأول للغة العربية . ثم فازت قصته الثانية — بعد الغروب — بالجائزة الاولى الممتازة من وزارة المعارف سنة ٩٤٩ . ثم اختارت شركة سينمائية قصة لقيطة فانتجتها باسم (ليلة غرام) . ثم نال الفلم السينمائي الجائزة الثانية من وزارة الشؤون الاجتماعية ، كما نالت القصة الجائزة الاولى لأحسن قصة سينمائية ..

ان الاستاذ عبد الله يبدأ قصته الأخيرة (شمس الخريف) بخطوات غير واضحة ، تارة تسرع وتارة تقف ، وتارة اخرى تتراجع ؛ فالزمن ليس مما يلتفت اليه ويحسب حسابه ، لكنها — اي القصة — لا تلبث ان تأخذ طريقها الواضح فتمضي ، بخطوات اوضح فيها ثقة وفيها اعتداد .. نحو النهاية من غير ان تنكص على اعقابها . يحدث هذا بعد ان يفارق البطل اهله ويصبح وحيداً فيبدو توفيق المؤلف واضحاً بعد ان اصبح امامه بطل واحد في « شمس الخريف » .

يقال في الغناء القديم ان على المغني ان يبدأ بالليالي والتأوهات فيستمر على ذلك فترة من دون ان يغني شيئاً ، حتى يهيء نفسه للغناء ويكيّفها للابداع ... وهكذا نجد مؤلف « شمس الخريف » حتى ليخيّل اليّ الآن انه من سلالة تلك الفئة من اهل الفن ! .

القصة منقولة عن لسان البطل منذ ان كان طفلاً حتى اصبح ابا ، ومجملها انه نشأ يتيماً ، ولم تلبث امه أن انصرفت عنه الى الزواج . وقد وجد الفتى الافق امامه ضيقاً كالحاً ، فماذا يفعل؟ انه فاشل في الدراسة ورسوبه امر مألوف عنده . ومسرح هذه الحوادث هو الاسكندرية ، وهناك في احدى ضواحي هذه المدينة يدخل الفتى في حياة اسرة فلاح ساذج اعجب بابنته ، وسرعان ما بادلته حبه ، ولكنه على اثر رسوب آخر ، لا يجد امامه طريقاً اصلح من الهرب . الهرب من امه التي آثرت سواه ، ومن خادمته التي تحبه باخلاص فلا يجد هو فيها ما يستحق الحب ، ومن حبيبته التي لا يقدر على الصمود امامها وهو على تلك الحال .

ورحل صاحبنا الى القاهرة ، وهو لا يملك شيئاً يذكر ، حتى ولا شهادة الكفاءة . وهناك ينتقل من عمل الى عمل ، من صبي مصعد في احد المتاجر الى كاتب في فندق صغير حقير ، ثم الى ساعي بريد . فيصادف في حياته الجديدة امرأة فيحبها لكنها تبعده عنها ، ولا تلبث ان تكتب له تطلعه على سرها .. وهي انها ليست فتاة وانما زوجة . . زوجة رجل غني طيب القلب ، كما كانت جارة لشاب جميل خبيث النفس ، لا يفتأ يلقي حولها شباكه .. فلا تستطيع العودة الى زوجها لتستأنف حياتها معه . لأنها لا تقدر ان تخدعه ولا ان تخفي امرها عنه ، فماذا تفعل ؟ وهنا تتذكر انها كانت مدرّسة قبل ان تتزوج ، فلم لا تعود الى التدريس ..؟ وهكذا تترك زوجها وتترك جارها ، فتلجأ

الى مدينة اخرى ، حيث تعود الى مهنتها السابقة .

إنها تكتب له كل هذا ، كما لا تنسى ان تقول « انها ابعدته لأنها غير جديرة به ، ولأنها لا ترغب في ان تبني سعادته على انقاض تعاستها » . فيصدم الفتى ، وتضيق امامه الدنيا ،فيهرب .. عائداً الى الاسكندرية . وهناك يرى الجو قد تغير ،حبيبته قد تزوجت سواه ، وامه قد اصبحت اماً لآخر . . فيعود الى مصر ، الى تلك السيدة التي ابت ان تخدعه ، فيتزوجها .

بعدئذ تمضي الحياة بها سهلة سعيدة ، إذ يعود هو الى مواصلة الدراسة ، فينجح ، ويحصل على وظيفة محترمة ، كما يصبح أباً لولد .. ثم يكفهر الجو ، على اثر سعال عنيف يراود زوجته ، سعال مخيف يجعل الطبيب يشير بضرورة نقلها الى المصحة . وبذلك يصدم الرجل صدمة اخرى : زوجه مسلولة في المصحة ، وطفله عند مربية عجوز ، ومعاشه لا يكاد يسد نفقاته . ثم لا تلبث الزوجة ان تموت ..

وقبل ان تعود الحياة الى سيرها الطبيعي تموت امه في الاسكندرية . فلا يبقى له غير ذلك الولد . فيتعهده برعايته حتى يكبر ، فاذا هو قد اصبح طبيباً لأمراض الصدر . انه يريد ان ينتقم من ذلك المرض الذي سلبه امه . !

★

القصة تصف لنا حياة تلك الفئة التي تصارع الأيام ،فتصارعها الأيام : انها قصة من الواقع لكنها في حلة من الخيال ! اي ان اسلوب المؤلف يتجه الى الرومانتيكية اكثر مما ينبغي ، بحيث تبدو اغلب المشاهد بعيدة كل البعد عن الواقع . مثل ذلك المواقف الغرامية التي تجمع بين البطل وهو فتى مراهق وبين « سكينة » وهي قروية ساذجة . فهي اشبه بمواقف الطاعنين في السن والمتبحرين في التصوف منها بمواقف الفتيان المراهقين . ثم ان التشابيه والاستعارات كثيرة جداً ومبالغ فيها ،والأسلوب القصصي الحديث ليس بحاجة الى التشابيه والاستعارات الكثيرة التي قد تفسد جمال الاستطراد الفني .

وهذه بعض الملاحظات التي لولاها لكانت شمس الخريف من اروع كتابات الأستاذ عبدالله :

١ — القصة عن لسان البطل كما قلنا فاذا تناول شخصية أمه سماها — ام كامل — . ليس من المألوف ان يسمّي الفتى امه هكذا . كان يجب ان يدعوها — امي — او باسمها الحقيقي .

٢ — يقول لنا الفتى ان ام كامل تغيرت كثيراً ، وتمضي الاعوام فلا نلمس اثراً لتغيرها ، سوى انها حطمت زجاجات الادوية الخاصة بها وخلعت ملابس الحداد على زوجها،واصبحت تطيل الجلوس الى المرآة . كل هذه الآثار بسيطة ليس فيها الغرابة التي يريدها المؤلف . فكل ارملة بعد سنوات من موت زوجها تتغير مثل هذا التغيّر البسيط .

٣ — في القسم الاول من القصة يسرع الزمن في سيره بينما الحوادث تبقى هي هي ، لا تتأثر بسير الزمن كثيراً . ولو ان المؤلف تجنب ذكر الزمن في كل فترة — من دون مناسبة — لما اصاب القصة شيء من الضعف او الاضطراب ولعلها كانت تبدو اكثر انسجاماً .

٤ — في اللقاء الاول بين الفتى وسكينة بعض الانحراف عن الواقعية ، تلاقيا عند المصلى ولم يدر بينهما اي كلام — هي ريفية وهو مدني — ثم تلاقيا بعد يومين في المكان نفسه ، فاذا بها — هي الريفية الحيية — تسأله « ألست هو ؟ » اي انها هي التي تبدأ الحديث ، فيجيبها بالايجاب فاذا كل شيء في مكانه واذا بالحب قد تغلغل في اعماقها .. هذا المشهد ابتعد كثيراً عن الواقع واحكام الظروف . ففيها اجتهد المؤلف في ان يرسم لوحة حب شعري رقيق العبارة عذب المعاني ، فجاء المشهد كأنه قصيدة شعرية لا تنقصها غير الاوزان . في حين نراه يصور مشهداً آخر بعد ذلك هو مشهد اللقاء بين البطل والسيدة (ف) بعيداً كل البعد عن المشهد الاول ! فبقدر ما بدا اللقاء الاول شاذاً غريباً لا يرتاح اليه العقل الواقعي ، بدا اللقاء الثاني مألوفاً صادقاً كأنه قطعة من الواقع الصرف . كما ان الحب الثاني لم يتغلغل في الاعماق منذ اللحظة الاولى ، بل تغلغل — كما هو في الواقع — رويداً رويداً ، وعلى مرّ الايام فاذا ما انكشف الستر عنه بدا للقارىء كأمر طبيعي فيه من الصدق الشيء الكثير .

٥ – في الفصل الرابع تعصف بأسرة سكينة عاصفة من القلق ، على اثر إصابة شقيقها بالتيفوس ، لكن العاصفة تنتهي بشفاء المريض فيأخذه الفتى من المصحة عائداً به الى اهله ثم يخرج هو – بعد ان يترك المريض في المسكن – ليبشر سكينة بشفاء شقيقها . بيد ان الفتاة بدل ان تهرع الى المسكن لرؤية شقيقها نراها تمثل فصلاً من الغرام العنيف ، إذ يعانقها الفتى ويقبلها . . أهذا وقت عناق وتقبيل ؟ ؟

٦ – في نهاية الفصل السادس يهرب الفتى من اسرته ومن حبيبته ، ومن الاسكندرية كلها . ان هذا الهرب لا يرتاح اليه القارىء لا سيما وانه فتى في مقتبل العمر ، وانه يحب سكينة حباً قوياً .

٧ – في الفصل السابع يتجه المؤلف نحو الابداع . لكن السرد يقوم وحده باداء المهمة ، حتى ليبدو للقارىء انه امام صور لشخصيات لا امام شخصيات حقيقية ! ذلك انهم لا ينطقون ! فالمؤلف حرم ابطاله ميزة النطق ، في حين ان النطق يكشف عن نفسية الابطال خيراً مما يكشف الوصف ، لان الوصف (خارجي) مهما تغلغل في الاعماق ، والنطق (داخلي) مهما تناول من شؤون خارجية .

٨ – والقصة بعد ذلك مصبوغة بصبغة كئيبة ، توحي بالقنوط والتشاؤم . وفي بعض الاماكن يتجه السرد الى نواح فلسفية ، فيستطرد المؤلف في تحليل امور ليست من اختصاص القصة مهما بلغت من روعة التحليل ولا يمكن تجاهل رسالة السيدة (ف) فقد جاءت قوية معبرة، ناطقة بالحيوية، مشبعة بالانسانية ، وان كانت تضحية السيدة فيها بعض البعد عن المألوف .

٩ – فصول القصة غير واضحة المعالم والاجواء ، ففي الفصل الواحد انتقالات سريعة الى اجواء مختلفة ونواح متعددة. ثم ان الحوار القليل مختلط مع السرد ، بحيث لا يميز القارىء بينهما إلا بمشقة . وقد كان على المؤلف ان يُعنى بهاتين النقطتين المهمتين . فالقصة تفقد الكثير من ميزاتها اذا كتبت بدون نظام او ترتيب .

فقصة « شمس الخريف » مع كل ما ذكرت، تبشر بنضج هذا القلم الجديد ، الذي مهما قلنا عنه لا يمكننا تجاهل طريقته الخاصة ، وصفاته المميزة ، واسلوبه الحديث .

البحرين

كارنيك جورج ميناسيان

« صاحب جريدة الخميلة »

الغليونُ العاجيّ

غليونـك العـاجيُّ يا فضّية الآهات
ناي يبثُّ شجونه = متأوّه النغمات ..
فكأن لفح وميضه رجعُ الحنين الذاتي
مَرِحٌ ، يؤجُّ معربداً بلواعج الزفرات ..
وتطلُّ روحك من فم الغليون بالرعشات
تروي اساطير الهوى تمضي مع النسمات ،
تلتفُّ صاعدةً كأسراب من اللهفات
تنساق نحو القبة الخضراء مضطربات
وأنا على همس العقيق ، مشرّد الخطرات
ناي يبثُّك شجوه متألق النبرات
ويودّ لو يغشاكِ بالألحان والقبلات ..

* * *

غنيت فوق مجامر الأشواق لحن حياتي
ولمحت في شفتيكِ ما يطفي لظى شهواتي ..
أيحق للغليون ان يسطو على جنّاتي
وأنا على مضض من الحرمان انهش ذاتي ؟ .
يا حارس الشفتين لا تحجب سنى البسماتِ
لي في الشفاه رسالة عطريّةُ الهمساتِ ..

مصطفى محمود

[من أسرة الجبل الملهم]

مرآة النفوس البشرية

قصة جديدة بقلم فارس زرزور

لقد اعتدنا ان نرى الجماجم البشرية في المتاحف والقبور المنبوشة وخزانات الاطباء، وان نشاهد صورها في منعطفات الطرق وعلى خزانات الكهرباء. اما ان نراها محمولة على الصدور، فذلك منظر شاذ غريب ومرعب. ولعل اول جمجمة رأيتها في حياتي كانت في خزانة التطبيقات في مدرسة خالد بن الوليد. وأعترف بانني حملتها بيدي ودرست اقسامها جميعاً، وادخلت اصبعي في محجرها والصقت عيني مكان الاذن لأتتبع بالدقة ثقوب اجهزة السمع. لقد فعلت كل ذلك دون ان يخطر في نفسي شعور بالخوف او التهيب. ولم افكر في ان جمجمتي قد تحمل يوماً بيد اطفال صغار يدرسون اقسامها ويحكمون على ان صاحبها كان متوسط الذكاء. لقد حملت تلك الجمجمة كما احمل قلم رصاص، دون ان اتساءل على الاقل: ترى هل هي لذكر ام انثى، وذلك لانني كنت طفلاً. اما الآن وكلما تذكرت ذلك تعتريني هزة ترعد كياني، فاثني على شجاعتي التي كانت فائقة. واستطيع ان اقول الآن بكثير من الجرأة ان للجماجم البشرية فلسفة خاصة وتعبيرات مخيفة ساخرة وانها تنطق وتعبر عن شيء. وبالاختصار يمكنني ان اجزم بان الجمجمة البشرية هي مرآة نرى فيها انفسنا على حقيقتها الصادقة بل نرى بمكبر دقيق وحساس قلب ضميرنا تنخره ملايين الديدان الصغيرة.

ان جمجمة ميت تريك نفس انسان.. أليس ذلك رائعاً؟

لقد حدث ذلك ذات يوم من ايام الربيع وكان المصطافون في الربوة، جالسين وسائرين، يملأون افواههم بالصياح والطعام وينتشرون زاحفين كالنمل في الثقوب وعلى المنحدرات وبين الشجر، متغلغلين في جميع الاتجاهات كيوم النشور. وحل المساء فانسابت كتلهم تتحرك نحو الطريق العام. ومر «باص» كبير. وقبل ان يتوقف تسلقه الركاب من الابواب والنوافذ واخذت النساء تتدافع بالارجل والمناكب. وبكى الاطفال المساكين المحمولون على السواعد. وتأرجحت رؤوسهم يمنة ويسرة ثم اعتصرت بين صدور وظهور. وتصايحت الامهات وراحت الافواه تقذف حممها من الشتائم والسباب. واوقعت امرأة صرة طعامها عند مدخل السيارة ثم انحنت لتلم الزيتون وفضلات الخبز فشكلت حاجزاً يصعب اختراقه. وبسرعة، ودون ان تدري، وجدت نفسها تداس بالنعال الخشنة واللطيفة على السواء. وكان صياحها يضيع وسط الضجة فلم يلتفت اليها او الى صياحها احد، وكانت هي وحدها التي تحس بانها تدور بين حجري مطحنة كبيرة. وامتلأت مقاعد السيارة ورصف الممر بالناس وتكدسوا في كل شبر من الارض وبين المقاعد. وفوق اكتاف السائق تسلق طفل اضاعته امه فنسي ان يبكي. ولم يبق مكان لحشرة صغيرة وانتهى الامر.

وعلى بعد خطوتين من السيارة اجتمعت كومة من الناس تنعش المرأة المطحونة وكانت نائمة ونصف عارية. ولكن السائق ابى ان يتحرك راجياً ان ينزل الواقفون ويظل الجالسون وحدهم، خوفاً من المخالفة الجديدة. وقال بحزن ان الشرطي الاشقر يتربص له بدراجته وراء الشجرة على الطريق وبيده دفتره وصفارته. ثم لعن هذه المهنة بحماسة شديدة وبصق بين قدميه بتذمر وثورة بالغتين. ونظر الواقفون بعضهم الى بعض، ولوى رجل رقبته وتظاهر بالصمم، وتطلع آخر من النافذة بلا ادنى اهتمام، واقسمت امرأة بصوت خشن، وكانت محصورة بين رجلين، بان لا تنزل مهما كلفها الامر، وغمغمت بغيظ شديد كلمات مبهمة.

وظلت السيارة واقفة لا تتزحزح، وصاح شاب من الخلف: «انزلوا يا شباب لنركب بالباص القادم»، فصاح آخر من الامام: «انزل حضرتك بالاول»، فتململ الخلفي بضيق وهو يكاد يختنق. وتسلل رجل شهم من الباب الأمامي بعد ان ازاح من طريقه امرأة سمينة كالفيل. ثم تبعه آخر.. وكان معظم الواقفين من الرجال طبعاً. وخلا الممر من الناس ما عدا المرأة السمينة فقد احتجت في باديء الأمر، ثم صاحت تطلب الشجار. وقبل ان تتحرك قوائمها الغليظة القت على المقاعد نظرة اخيرة ثم شخرت من انفها العظيم متجهة نحو الباب وهي تجر وراءها سلة كبيرة نصف فارغة. وتنفس الجالسون الصعداء، واعطى المعاون الايعاز للسائق بالمسير.

ولكن هذا لم يتحرك بل راح ينظر الى الباب بجمود. ثم مد يده يساعد رجلاً على الصعود، وصعد رجل يسند على صدره حملاً خفيفاً وبسيطاً للغاية: كان يسند على صدره لوحاً خشبياً

مربوطاً الى نطاق من الكاوتشوك ومعلقاً في رقبته . وعلى هذا اللوح الخشبي تكومت كتلة بشرية صغيرة لا يتجاوز حجمها حجم القطة . كانت هذه الكتلةعبارة عن جمجمة وساقين واشياء اخرى : كانت الساقان متعامدتين تنتهي كل منهما برجل صغيرة مكورة واصابع دقيقة متقلصة غير كاملة النمو ، وفوق الساقين اعتلت جمجمة تبدو غير ثابتة تماماً ، إذ انها تهتز الى الامام والى الوراء وكأنها تكاد تسقط ، ويفصل الجمجمة عن الساقين قضيب رفيع وقصير من العظم والجلد ومن هذا القضيب البشري تهدل كمّان قصيران باليان ينتهي احدهما ببراعم صغيرة تشبه اصابع الاطفال غير انها متداخلة فيما بينها بحيث يصعب عدها ، وينتهي الكم الآخر ببراعم اخرى اطول من الاولى ممسكة بتفاحة ذابلة . وكانت الجمجمة صماء لا تتحرك الا من الاهتزازات . اما هي نفسها فلم تكن لها قدرة على الحركة ، وقد غرز في جبهتها انف دقيق ذو فوهة واحدة وعلى جانبيها نبتت اذنان مفرطتان في الصغر ،وتحت الانف كان يوجد فم عادي معلق وفوقه عينان ثاقبتان كبيرتان تتجولان كميزان الزئبق . ولعل هاتين العينين هما كل ما تبقى في هـذه الكتلة البشرية من معالم الحياة .

ووقف الرجل في مقدمة السيارة دون ان يكترث باحد وراح بعينيه يفتش عن مكان شاغر . لم يكن يهدد احداًبمسدسه على الاطلاق ، ولكن كان كمن يهدد الراكبين باهوال مرعبة مخيفة . وتعلقت اعين الركاب بهـذا الشيء المحمول ثم استقر في اعماقها فزع رهيب . وجمدت الأعين ، ولكن الوجوه بدأ يرتسم على صفحاتها صور بشعة وظلال سوداء قاتمة . وسرت في الابدان رعدة عنيفة كأنما اتصل بينها سلك كهربائي ذو تيار كبير .

ولم يعد باستطاعة احد من الراكبين ان يتحرك ،فقد جمدت اجسادهم وحبست انفاسهم فغدوا كالتماثيل . غير ان وجوههم وحدها اخذت تتقلص وتحيا من جديد . واخذت وجوههم تحيا الحياة التي يعيشونها في ذواتهم . وراح كل منهم يتذكر نفسه ويستعرض جرائمه وآثامه . لم تكن شفاههم تتحرك ، ولكن تقاطيع وجوههم اخذت تعكس الصور وتتحدث بلسان اخرس .

كانت عظام الساقين بارزة بيضاء وكأنها لسانٌ حي يطل من جمجمة ميت . ولولا تلك الجلدة الرقيقة المثقوبة مكان العينين والتي تستر ذلك الهيكل لما قال انسان ان هذا مخلوق حي .

والواقع ان هذا الانسان كان حياً وحياً الى درجة مؤثرة . كان حياً ولكن ليس كبقية الاحياء الذين يسيرون في الشوارع بل كان من نوع آخر . كان هذا الحي يسكن في نفس كل انسان بل كان هو الانسان الداخلي لكل حي .

ولعل تلك الجلدة الشاحبة هي وحدها التي منعت الاسنان من البروز وإلا لما بقي احد في السيارة إلا وقذف بنفسه من النافذة على قارعة الطريق . وظن بعضهم ان هذا الشيء المحمول ربما كان من نوع تلك الاعلانات التحذيرية التي يكتب عليها (احذر خطر الموت) ، غير انه في هذه المرة اعلان حي متحرك .

كان الرجل حامل الاعلان يقف جانب السائق شامخ الانف بارز الصدر طويل القامة يرتدي لباس الحمالين . ويبدو على سيمائه الاعتزاز والفخر وكأنه بطل ُقلد وسام الشرف .

واخلي للبطل مكان في الصف الخلفي،فسار بين صفوف المقاعد بخطى وئيدة يلتمس مكانه . ثم انحنى ونزع النطاق عن كاهله ووضع حمله على الارض وبين قدميه . كل هذا والحمل لا يتحرك . ولكنه عندما احس انه صار على الارض وانه اصبح في مكان لا يرى فيه سائر الناس من عل وانه اضحى بين الاقدام بدرت منه حركة مفاجئةغيرت معالم الوجوه وحركت زناد الألسنة المبكمة . فقد اهتزت الجمجمة من تلقاء نفسها ورفعت عينيها الى الاعلى واخذت تتأمل الوجوه .

وقال رجل يجلس الى أقصى اليمين : «إلـهي غفرانك .. » وغطى وجهه بيديه العريضتين . وتمتم عشرة رجال معاً بكلمات غامضة المعالم ثم مدوا ايديهم الى جيوبهم ليدخنوا السيكارات . وانتحبت امرأة في اقصى اليسار ثم اغمي عليها . ونهضت عجوز من مكانها لتهرب ثم سقطت من تلقاء نفسها في مقعدها ذاهلة خرساء ، وقد ارتسم على وجهها شبح السنين الغوابر . وبينما كان الراكبون يعترفون باعمالهم ويمثلونها في وجوههم خير تمثيل ارتفع الكم ذو التفاحة الى الفم واخذت التفاحة تفقد شيئاً فشيئاً من اقسامها . فأطل طفل من وراء كتف امه واخذ يتمعن ببراءة ودهشة هذا المخلوق الذي لا يشبهه ولكنه يقضم مثله التفاحة . وفجأة صاح الطفل: « ماما .. انظري انه يأكل » فضمت الام طفلها الى صدرها وعصرته بقوة لتسد حلقه،ولكنه ناضل وتسلق مرة ثانية كتف امه فأشاحت بوجهها وقد تقلصت زوايا فمها واعتراها شحوب شديد المرارة .

كانت السيارة تسير ببطء شديد وفي داخلها تمثل رواية انسانية . كأن السائق نفسه كان يخشى وقوع كارثة . والى جانب الحمال كان يجلس شاب في مقتبل عمره قرأ قليلاً من الكتب وحصل على بعض الشهادات فأخذ يتفرس في وجه المخلوق العجيب ويفكر : « لماذا يا إلهي .. خلقت هذه الانقاض التي تمد الروح الحية بالشعور بالحرمان والنقص والعاهة ؟ وغرست هاتين العينين لترويا العالم فلا تعودا بغير الحسرة والالم ؟ وفتحت هاتين الاذنين لتسمعا الاغاني والضجيج فلا تفهما شيئاً ؟ وهذا الفم الذي لا ينطق بشيء . ان هذه الحواس جميعاً تنقل الى الروح السجينة اخباراً مدهشة ، غير ان هذه الروح تنطوي على نفسها لتجمع جمجمة وعظمتين وتتألم .. »

واستبدّ بالشاب الفضول واحس بأنه اكتشف شيئاً استعصى على الجميع اكتشافه ، فتملكته جرأة منقطعة النظير فأراد ان يتفلسف . قال للحمال :

— كيف يعيش هذا الانسان ؟

فحدجه الحمال بعينين ساخرتين واراد ألا يجيب . غير انه انعم في محدثه النظر . وخطر له اخيراً ان يشبع فضوله فقال برزانة القادة العظام :

— انه يعيش كما تعيش انت .

— انه يسمعنا ويرانا ، أليس كذلك ؟ .

— كما تسمع انت وترى .

— ولكني افرح واتألم واستطيع ان اعبر عن ذلك . .

— وهو ايضاً يتألم ويفرح .

— ترى هل تعصف بجمجمته زوابع الالم كلما احس بالنقص ؟

— من يدري ؟ انني لم اعش في رأسه .

— والآن عندما صاح الطفل ؟

— ألم تنظر الى وجهه . ؟

— لقد نظرت فلم أر شيئاً على الاطلاق .

— وعلى كل حال انك لم تنظر جيداً .

— مسكين .. اين وجدته .. ؟

قال الحمال وقد نفد صبره ..

— انه اخي .. انه ابن امي .

وانهى الحمال حديثه بأن اخرج من جيبه زجاجة فيها سائل ابيض وافرغها في جوفه دفعة واحدة .

وفجأة سُمعت صفرة حادة فتوقفت السيارة . وصعد الشرطي اليها :

— اعطني اوراقك بسرعة ..

— لماذا يا افندي ؟

— انك تركب بين المقاعد . ؟

— اين . ؟ انا لم اركب احداً .

— اتكذب ايضاً . ؟ هناك رجل . .

قالها بصيحة وانفعال :

— ولكن يا افندي انه ليس رجلاً .. انه ..

— افرضه كلباً فأنت مخالف . ماذا تريد ايضاً ؟ ..

— انني مستعد ان اعطيك اوراقي ولكن اريدك ان تتأكد من انني مخالف . .

وارتسمت على سحنة الشرطي امارات غيظ شديد ، فخطا الى آخر السيارة بسرعة . وفجأة جمد في مكانه لحظة . ثم قذف بنفسه من الباب وتوارى بين الاشجار .

وبعد لحظة اطلق صفيراً حاداً جارحاً كنصول السكاكين .

دمشق **فارس زرزور**

تطور فكرة الوحدة العالمية

بقلم فؤاد طرزي

في كل سنة تمر يبدولنا من خلال المظاهر ومن اتساع مدى الأحداث ان الانسانية تكاد تكون مجتمعاً واحداً. وهـذا يعني انه غـدا من الضروري ان يكون هناك نظام عالمي عام. فلقد أصبحت الكرة الأرضية بأسرها الآن مجتمعاً اقتصادياً واحداً. ولكي تستغل مصادرها الطبيعية استغلالاً كاملاً يجب ان يعين لها اتجاه عام. فان هذه القوى المتزايدة، وهذه الآفاق المتسعة التي حققتها الاكتشافات غدت بسبب توجه الجهود البشرية المبذولة في هذا النظام الذي يجمع رقعاً صغيرة منفصلة وإدارات متنازعة متخاصمة — عناصر خطرة مدمرة. فالمؤسسات المالية والنقدية التي باتت مصالح عالمية يجب، لكي تعالج علاجاً ناجحاً، ان تسير وفق منهج عالمي. وان الأمراض المعدية المنتشرة وازدياد هجرات السكان اصبحت كما هو واضح مشاكل كبرى تتطلب حلولاً عالمية حكيمة. وان القوى الجبارة المتزايدة والفعاليات الانسانيـة المتكاثرة جعلت الحرب من اكثر الوسائل إنتاجاً للفوضى والخراب كما انها اصبحت غير ذات فائدة حتى كطريقة سيئة لحل المشاكل بين الحكومات والشعوب.

فكل هذه الأمور تدعو بقوة لاحلال سلطات وقيادات اوسع سلطاناً واوسع شمولاً من أية حكومة موجـودة الى الآن. ولكن هذا لا يعني أن حل هـذه المشاكل يكون في قيام حكومة عليا فوق الحكومـات تتولى السلطة بالقوة او باتحاد الحكومات الموجودة. فبالقياس الى الأنظمة الحاليـة يفكر الناس في برلمان يضم نواباً يمثلون المجتمع البشري، او في كونغرس عالمي، وفي رئيس جمهورية او امبراطور للكرة الأرضية، إذ ان أولى الانعكاسات الطبيعية التي تنعكس في عقولنا تتجه الى هذه النتيجة. إلا ان البحوث والتجارب طوال نصف قرن ضجّ بالافتراضات والمحاولات لا تشجع بصورة تامة على الاعتقاد بهذه الفكرة الأولى الواضحة. فالفكرة العالمية لا تتضح ولا تطبق إلا باقرار عدد من الهيئات والتنظيمات الخاصة في شكل اتحادات وقوى عالمية تمثل فيها الحكومات الموجودة لادارة الشؤون العامة وتعين داخلها سلطات مسؤولة عن إدارة الثروة الطبيعية وتكون من مبادئها العدالة في شروط العمل وتثبيت دعائم السلم العالمي وصهر الشعوب العالمية في مستوى واحد.

فالعالم يجب ان يدرك ان جميع مصالحه العامة يجب ان تدار كمشروع واحد لأنه الآن لا يزال فاشلاً في إدراك وجود حكومة عالمية. ولكن قبل ان نصل الى تحقيق هذه الوحـدة الانسانية وقبل ان نضع هذه التنظيمات الدولية فوق شكوك العصبيات الوطنية وعواطف الحقـد والحسد والبغض، من الضروري ان تمثل فكرة الوحدة الانسانية العقل البشري العام وتتملكه، وان تصبح الفكرة الداعية الى ان تكون الانسانيـة كأسرة واحـدة رسالة التعليم والثقافة العالميتين. وفي داخـل حدود الدول وخارجها ستكافح روح الديانات العالمية الكبرى لتثبيت فكرة الأخوة الانسانية الشاملة وتوسيعها. ولكن الاحقاد والضغائن والعصبيات القبلية والاحتكاكات القوميـة والجنسية تعوق — وهي تعوق بنجاح — الآراء التي تنظر الى آفاق رحبة وتقف في وجه البواعث الكريمة التي تريـد ان تجعل من كل إنسان خادماً للانسانية.

ان فكرة الاخوة الانسانية تكافح الآن لتسيطر عـلى الروح الانساني كفاحاً يشبه ذلك الكفاح الذي عانتـه الفكرة المسيحية في محاولاتها للسيطرة على الروح الاوروبي في وسـط فوضى واضطراب القرنين السادس والسابع بعـد عصر المسيح، ويشبه ايضاً الكفاح الذي عانته الفكرة الاسلامية للتغلب على الروح الجاهلي في الجزيرة العربية. ان انجاح مثل هذه الافكار يجب ان يكون قبلـة جهاد المؤسسات العالمية التي ينبغي ان تكرس جهودها وتضاعف اعمالها لبلوغ هذه الاهـداف. ولا يوجد اي كاتب يستطيع ان يتنبأ بمدى النجاح الذي سيلاقيـه مثل هذا العمل وما هي المشقات المعدة له، فالمسائل الاجتماعية والاقتصادية تبدو متلازمة ومرتبطة بالمسألة العالمية، وان الحل المقدر لكل حالة يمكن ان يتوسل اليـه الانسان بالروح التي تبث التضحية والتي تستطيع وحدها ان تفتـح الطريق وتلهم القلب الانساني، إذ أن الريبة والجموح والاثرة التي تلازم الامم تمثل الريبة والجموح والاثرة التي تلازم الفرد المالك والفرد العامل وتدفعه الى الوقوف بها في وجه المصلحة العامة، فان التطرف

في فسح المجال للتملك الفردي ليس إلا جزءاً من جشع الامم والأباطرة. إنها منتجات نفس الميول الغريزية ونفس العادات والجهالات .

فالعالمية تعني اشتراكية القوميات وليس هناك من المشتغلين بهذه الامور من يشعر بان هذه الافكار غريبة على علم النفس اذ انه ليس من الميسور تطبيقها بالوسائل والتنظيمات التعليمية للوصول الى حل نهائي وحقيقي يقرر هـذا التعاون البشري الذي يبدو لغزاً من الألغاز . وإن وضعنا بالنسبة لاقرار نظام سلمي حقيقي فعال للعالم كالوضع الذي وجد فيه الناس انفسهم في عام ١٨٢٠ عندما أرادوا ان يضعوا خطة لنظـام القاطرة الكهربائية . ولكننا نعلم بان هذا الشيء عملي وانه قريب وفي متناول ايدينا ، ومع ذلك فليس هناك من يستطيع ان يجاوز حدود معرفته ، وليست هناك فكرة تقدر ان تتجاوز الفكرة الحديثـة ، ولهذا فمن الصعب بالنسبة الينا ان نخمن وان نرى ونقرر كم من الأجيال الانسانيـة سيعيش في الحرب والفوضى والشقاء قبل ان يتحقق السلام الأعظم ، سلام في القلب وسلام في العالم . ذلك السلام الذي ظل التاريخ يهدف اليه في جميع ادواره لينهي هذا الليل الذي ينشر الخراب ويعبث بالحياة .

إن حلولنا المقترحة لا تزال غامضة غير واضحـة يحيط بها الهوى ويلفها الشك ، وان المهمة العظيمة التي يقوم بها التطور العقلي لا تزال تتقدم ، ولا شك انها لا تزال غير كاملة ، ولكن إدراكاتنا تنمو بصورة أكثر وضوحاً وأكثر دقة ، ببـطء وبسرعة . ولكن كما انهـا تنمو نمواً متزايداً فهي تقدم القوة للعقول ، وتجمع خيالات الانسان وان افتقارها الى التماسك في العصر الحديث يعزى الى افتقارها الى الامان والحـق الصحيحين اللذين اسيء فهمهما بالنظر الى طغيان الفوضى الحالية عليهما الآن . إلا انه بالدقة والاحكام والتحديد ستحصل النظرة الجديدة الى العـالم على قوة ملزمـة . وان المهمة العظيمة التي تتمثل في إعادة تنظيم برامج التعلـيم يجب ان تستهدي منطقياً وبالضرورة هذا الادراك الجديد للعالم.

بغداد **فؤاد طرزي المحامي**

الدمية المخلدة

جنارُ جنة ونارْ
أسطورة من البحار
يُحدّثون أنها
تبلورت على الرمالْ
وأنها كانت خيالْ
من قبلُ في سر الجمال

***

جنارُ لحنيَ
وخمرُ دني
جنار مِني
نسج التمني
ووحي ظني

ارسلتُها أغنيةً
منسابةً في كل فمْ
لها الفضاء الرحبُ
والبيد الحوادي والقمم
وكل قلب والهٍ
وكل جفن لم ينم

ذوّبتُ في انفاسها
عطر السلاف الأعتق

وفي تلوّي خصرها
الناحل غنجَ الزنبق

والكحل في الهدب الشرود
من مدى تشوّقي

فأيُّ سحر عندما
أبدعتها لم يُخلَقِ ؟

***

جنار من زهو الصبا
ومن جمالٍ سرمدي

لا الامس يشقيها ولا
سرٌ على ثغر الغدِ

لها من الربيع ألفُ
موسمٍ مجدَّدِ
وبالربيع غيرةٌ
من حسنها المخلّدِ !

فهل تُراها في خريفي
تتناسى من أنا

وهل ترى تُنكرني
شيخاً سؤوماً مُوهَنا

ومن دمي أطعمتُها
دِفئاً ، ومن عيني سنا ؟

جنارُ لحني
وخمرُ دني
جنار مِني
نسج التمني
ووحي ظني

اللاذقية **رياض الازهري**

جوائز الشعراء والادباء عند العرب

بقلم روكس بن زائد العزيزي

نطلع في كتب الادب ، وفي كتب التاريخ ، على أخبار الجوائز التي كان الخلفاء والامراء يغدقونها على الشعراء وعلى الادباء ، فنقف حائرين في أمر هذه الجوائز وفي حقيقة إنفاقها من خزانة الدولة . ونجد أحياناً ان بعض الخلفاء أمر ان يملأ فم الشاعر المجيد جوهراً كما صنع الوليد بن يزيد الاموي ، وكما صنعت زبيدة زوج هارون الرشيد يوم أجازت سلماً الخاسر بملء فمه دراً ، باعه بعشرين الف دينار ، إذ مدح ابنها الامين يوم بايعه ابوه الرشيد بولاية العهد . وكما فعل المعتصم بالله العباسي في بعض هباته . نقرأ ذلك فنكبر الواهب ونغبط الموهوب له ونتمنى لو كنا في زمانه ، او لو كان زماننا مثل زمانه !

نحن لا نستبعد ان يحدث مثل هذا العطاء في عصر من العصور مرة أو عدة مرات في اثناء خلافة احد الخلفاء . فقد حدث في عصرنا ان أجيز شاعر بثلاثة آلاف دينار من أجل قصيدة ، لكن الذي لا يمكن الاطمئنان اليه هو ان يستمر الخليفة على مثل هذا العطاء المغرق في الاسراف والتبذير، فنحن لو صدقنا ذلك لاضطررنا الى الاعتقاد ان الخزانة المالية لابد لها ان تمنى بالافلاس وشيكا .

والذي نعتقده ان هذه الجوائز كانت جوائز اسمية من اجل المبالغة بعظمة الشاعر ، وعظمة الخليفة الذي أمر له بالجائزة . وبعد ان يُذاع في الناس أمر هذه الجائزة يراضى الشاعر بالنزر اليسير من تلك الجائزة الضخمة في اسمها ، كما حصل مع الشاب الذيساير المنصور في المدينة ، فأنه وعد في اليوم الاول بألفين وفي اليوم الثاني بألف ، فلما عاتب ولام قيل له : « ألف تحصل خير من ألفين لا سبيل الى الحصول عليهما . »

وكما حصل مع أبي محمد اليمني يوم مدح محمداً الامين بقصيدة أطربته ، فأمر الامين الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالاً .

قال له الفضل : « انت مجنون ؟ من أين لنا مال يملأ زورقك ؟ . » ثم صالحه على مائة درهم . وهذه المصالحة التي يذكرها الاصفهاني في الجزء الثاني عشر من أغانيه في الصفحة الثانية عشرة بعد المائة من طبعة بولاق ، ويؤمن بها العلامة الصامت جرجي زيدان في تمدنه ، لا نستطيع نحن ان نطمئن اليها ، وإلا ظهر عندنا أنه أعطاه الف درهم وهو مبلغ يعادل ثمانية وأربعين ديناراً من نقدنا اليوم ، وهذا شيء معقول بالنسبة الى قوة المال الشرائية في ذلك الزمن ، لان هذا المبلغ وإن ظهر لنا تافهاً اليوم ، وانه لا يصلح ان يكون جائزة ملك ؛ كان ذا قيمة في ذلك العصر ، لان التاريخ يخبرنا ان الجمل كان يباع في زمن المنصور بدرهم ، كما بيعت ثماني النعاج في زمن المنصور بدرهم .

وفوق ذلك فقد كانت الضرائب نفسها قليلة لا تسمح بالتبسط في النفقة الى الحد الذي يذكرونه ، فلقد كانت ضرائب الديار الاردنية — وكانت تعرف بجند الاردن — في الدور العباسي على ما يخبرنا ابن خلدون في مقدمته سبعة وتسعين ألف دينار ، وكانت ضرائب جند فلسطين ثلاثمئة ألف دينار ، وعشرة آلاف دينار نقداً ما عدا الزيت ؟

فاذا صدقنا رواية ابن خلدون هذه — ولا شك عندنا في انها صادقة — لانها مبنية على أرقام مثبتة ، أقول إذا صدقنا روايته هذه استحال علينا ان نصدق ان معاوية بن أبي سفيان بذل لعبدالله بن جعفر مائة ألف درهم على شرط ان يسمي الغلام الذي رزقه عبدالله — معاوية . فرضي عبدالله بن جعفر بذلك لكنه وهب المال كله للذي بشره بالغلام . إننا نقبل هذه الرواية بمنتهى الحذر والريبة . كما نقابل بالحذر الشديد ما يروى من أن المنصور الخليفة العباسي الثاني المشهور بالتوفير الى حد البخل ، ان جوائزه بلغت عشرة ملايين من الدراهم ، مع ان كل ما وفر في مدة خلافته — وهي بضع وعشرون سنة — بلغ واحداً وثمانين مليون درهم ، فليس من المعقول أن يهب هذا الخليفة مثل هذه الملايين وهو الذي كان إذا أراد مكافأة شاعر جمع مكافأته من بني العباس بالدرهم . وكان شديد التدقيق في الناحية المالية حتى عرف بالدوانيقي ، أي الذي يحاسب على الدانق وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدرهم ، والدرهم نحو ثمانية وأربعين فلساً من نقد الديار الاردنية الحاضر .

جاء في المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي ان الرشيد فرق في يوم واحد مليوناً وثلثمئة وخمسين ألف دينار، وأنه طرب فنثر على الناس ستة ملايين درهم، وان المهادي أعطى عبدالملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسل به اليه على أربعمئة بغل موقرة. إن هذه الاقوال تجعلنا نشك في صدق ما يقول الادباء والمؤرخون على جوائز الادباء والشعراء ومقاديرها. والذي نعتقده ان المسألة كانت مجرد إذاعة لمحامد الواهب وتعظيم لمنزلة الموهوب له. بدليل ما تقدم بيانه من مصالحة الشاب الذي ساير المنصور، ومصالحة التيمي، وبدليل قول أبي بكر الخوارزمي:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكنى ومن الالقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم	ما كان يرضى به للحشر بوابا
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا	هذا فأنفق في الاقوام ألقابا

أما الذي يخبرنا به الادباء والمؤرخون عن جود البرامكة فلا نجده دون ما يذكر عن كرم الخلفاء ومقدار جوائزهم مبالغة. فمن قولهم ان خالد بن برمك وهب لبشار بن برد عن كل بيت الف درهم لأنه مدحه بقوله:

حذا خالد في فعله حذو برمك	فمجد له مستطرف واصيل
وكان ذوو الحاجات يدعون قبله	بلفظ الى الاعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن	وان كان فيهم نابه وجليل
فسمّاهم الزوّار ستراً عليهم	فآثاره في المهتدين سدول

ومع شكنا في اقوال المؤرخين والادباء نميل نوعاً من الميل الى تصديق ما يقال من ان بني العباس أجازوا مروان بن ابي حفصة عن كل بيت الف درهم، نميل الى تصديق ذلك بعض الميل لان بني العباس اتخذوا ذلك الرجل بوقاً لهم وآلة لتدمير شيعة علي ابن ابي طالب فكان بمنزلة الجريدة الحزبية التي يمدها الحزب بالمال لنشر آرائه ومبادئه.

أما ان توزع الجوائز والهبات، وهذه الملايين التي لا تعد ولا تحصى على نكرات بشرية بلا غاية، فهذا ما نشك فيه أعظم الشك. لا نقول هذا انكاراً منا للكرم العربي، والسخاء الشرقي لكنا نقوله انصافاً للعقل، وانصافاً لكرامة التاريخ.

نقول هذا وإن كنا نعرف من باع أضراسه الذهبية لكي يكرم ضيوفه، وان كان قد ذكر لنا الثقات ان رجلاً ذبح كل ما يملك من الغنم ليكرم ابن شعلان فينال حسن الذكر وطيب الأحدوثة[1]. لكن إذا فعل ذلك أفراد يطلبون السمعة الحسنة فما اظن ذلك يحدث في أموال أمة وخزانة دولة باستمرار.

خلاصة ما نريد ان نقول: إن الشك الجارف يحوط كل ما رواه المؤرخون والادباء بخصوص تلك الجوائز والهبات، والذي نعتقده ان تلك الجوائز كانت تسمى، ولا تدفع. وغاية ما في الأمر أنهم كانوا يصالحون الموهوب له بشيء من المال، فيشيع هو ما نطق به الخليفة الأمير من ضخامة الجائزة ليعلو بذلك ذكره، وينبه اسمه وهو نوع من الاحتيال على الشهرة.

وما زال الشعراء الطوافون المرتزقون من البدو يبالغون في وصف هبات ممدوحيهم ليخدعوا غيرهم عن أنفسهم وينالوا منهم جوائز ذات قيمة. ولقد رأينا احياناً بعض الصحف التي تستجدي الناس تضع بين اسماء المتبرعين اسم متبرع متكتم يجود عادة بأكثر من الذي جاد به الذين ذكرت اسماؤهم جميعاً، لغاية لا تخفى على أحد.

فعسى ان نعود الى رواياتنا التاريخية والأدبية فنحققها على ضوء العقل والمنطق حتى لا تظل تلك الروايات وسيلة للتضليل؛ وعسى أن نفرق بين ما كان يبذل لتأسيس الدولة وما كان يبذل إحساناً أو ما يشبه الاحسان.

روكس بن زائد العزيزي

مكتبة المقال

١ – الأغاني – لأبي الفرج الاصفهاني.
٢ – المستطرف في كل من مستظرف – للأبشيهي.
٣ – التمدن الاسلامي – لزيدان.
٤ – نخب الذخائر – تحقيق الأب الكرملي.
٥ – المعجم الاردني (مخطوط) – للعزيزي.
٦ – الخلاصة التاريخية – للعزيزي.
٧ – فوائد مسجلة – للعزيزي.
٨ – مجلة العرفان – احمد عارف الزين.

(١) رجل من الكرك اسمه مرار العزيزات، وهو جد المهندس توفيق مرار.

من القراء وإليهم ...

ايهـا العندليب الصغير

متى ستفكر بي يا عنـدليبي الصغير؟أهناك حواجز تفصل بيني وبينك ؟! إني كنت أتحسس عن كثب تلك الهمسات التي كان النسيم يبعثها اليك لحناً موسيقياً مرحاً يدفعك إلى الاتحاد بالاوراق والزهور حين تهوي بمنقارك الحاد تلتقط نقرة اونقرتين تبقي لك الحياة وتسمو بوجودك بها ! ما لي أراك لا تنقر قلبي بوخزة من هذه الوخزات العذبة التي يحسها الورق وهو يغنى في كيانك الجميل الطروب ، اما أنا فأبقى خالياً من الوجدان لأنك تخشى إيلامي وإشعاري بشيء من الاضطراب والانفعال.

لمَ تخاف الاضطراب عليّ يا عنـدليبي الحبيب؟ ألأني فشلت في كل انفعال حرّك قلبي وجسدي بما مضى من سني حياتي الشقية المسرفة بالشقاء ؟ لمَ لا تجرح قلبي لأداويه بشيء من حسراتي وآلامي كما كنت افعل من قبل؟ لمَ لاتعلمني الهداية بالألم كما كنت تعلمني الضلال ؟

أيصعب عليك ولوج قلب شغله العراة والبائسون والمشردون والمضطهدون ؟ أتريد منه ان لا يفكر في هؤلاء ؟ أتريد من الدجاجة ان لا ترتفع رأسها عالياً بعد شرب الماء ؟ أتريد من الاديب ان لا يغمس قلمه بدم القلب؟ أتريد من العاري والبائس ان يحدثك عن الدمقس والحرير وعن ليالي الرشيد الحمراء؟ أتريد من المشرد والمضطهد ان يحدثك عن السعادة والحرية وفي يديه قيود الذل والهوان ؟ فان كنت تعطف عليّ عطفك على اي انسان يتوق إلى جروح القلب .أيروقك ان تحرمني من الانشغال بجروح الضحايا من النفوس والاجساد ؟ علام تجعـل جرحك الحبيب رمزاً للعبودية والآثام والانانية ؟

أيروتك ان تفصل بشراً عن البشرية ، وتبعـد قلبا عن القلوب ؟ ألا يسعك ان تفكر بي كقلب أغرقه الحب وعقل منغمر بآلام الناس ؟

بغداد ـ **سامي يوسف داود**

احلام ضائعة

رددي يا امسيات
وابيحي يا نجومْ
اين تلك الامنيات
لم تعد غير هموم

اين ولتْ وانطوت احلام هاتيك الاماني
اين نجوى خافقينا تتغنى كل آن ??

وشعاع البـدر بسام بهاتيك المغـاني
وخرير الماء كالهمس عـلى ثغر الحسان

وتسابيح الطيورْ
بين احضانِ المساء
لحنها الساجي يسير
هائماً عبر الفضاءْ

اين يا ليل أغاريدي واحبابي وكأسي ؟
اين اطيـاف مسراتي ولذاتي وانسي ؟
اين يا ليل أمانٍ كنّ لي من قبل امسي ؟
حلُمٌ ولىّ هبـاءً بين آلامي وبؤسي

ناصرية (العراق)

فاضل السيد مهدي الناصري

نبضات الحنين

الى عازفة عمياء .. اهدي هذا القصيد

يا ابنة الالحان مغناك الدجى | فابعثي للصب آيـات النغم
الصدى المنغوم يذكي في الحشا | حشرجات الروح والقلب الاصم

*

عابث بالقلب حيران الصدى | نغم يصرخ في جوفِ الظلام
ثائر الالحان مكلوم الحشا | ملهم الآهات مشبوب الغرام
انما الالحان من وحي الاله | نبضة ولَهى واحلام عظام
انما الأنغام في هذي الحياة | شعلة حمرا وأسرار جسام

تونس **نور الدين حمود**

انت نور ونوار

الصبا الباسم ادمى وجنتيكِ | من لهيب الذكريـات
والندى الوسنان روّى شفتيك | من خمـور الصبـوات
انت يا ليلاي نجوى في نشيدي | انت نـورٌ ونـوار
وجلالٌ يزدهي حول وجودي | وشعـاعٌ وازدهـار

وصفاء وافتتان وغناء للزمـان
يا منى الحب المقدس •يا ناي القصيد

القاهرة **عبد السلام هاشم حافظ**

انانية الانسان

لا ينكر ان القانون والنظام يكفلان الامن والحماية ، إن كان مفعولهما نافذاً ، وسيطرتها قوية . ولكن هذا وحـده لا يكفي ، ان لم يكن هناك وعي عـام لفهم مغزى ما يرمي

اليه القانون ، ففي فقدان هذه السيطرة فوتها ونفوذها مثلاً ، يُفْقَد الأمن وتسود الفوضى والاضطراب . فلو كانت هناك ثقافة عامة ، تجعل لحياة الانسان معنى سامياً ، وتوجد لها غاية ، لتمخض عنها وازع وجداني يحول دون استهتار الفرد بالقيم الانسانية ، ولرأينا العالم وحدة متعاونة تعمل لأجل الرفاه العام ولأنقذت الانسانيــة من الشرور والمآسي ، ولاهتم اولئك المتمدنون الاقوياء — الذين استغلوا العلم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على الشعوب — بشؤون الشعوب المتأخرة ، وتوفير الامكانيات لتقدمها واسعادها ، بدل استعمارهم لها ، واهتمامهم بالتسلح والاستعداد الحربي ابتغاء السيطرة والتوسع .

هذه الانانية وإن تقلصت في الأفراد وضعفت قوتها فيهم بفضل الحضارة القائمة ، إلا انها انصهرت في بوتقة الجماعة ، فتحولت الى انانية جماعية سببت استعباد شعب لآخر ، وفرض سياسة الافناء عليه مادياً ومعنوياً ، من اجل توسيع المدى الحيوي ، ونشأت عن ذلك منافسة شديدة بين الاقوياء ، ادت الى الحروب التي تجرعتِ في سبيلها البشرية الويلات والمصائب .

بغداد — سهام عباس

يأس

بالامس قلبي كان يزخر بالامانيّ العذاب
واليوم مثل الشاطيء المهجور دوماً في اكتئاب
لا شيء في دنياه غير الذكريات من الشباب
يا لتني من غير ما قلب خلقت ولا صواب

*

وغدي المؤمَّل ما تراه ؟؟ امشرقٌ ام أربدُ
اترى سيبسم لي به وجه الحياة واسعد
ام انه داج كئيب مثل يومي اسود
يا ليت اني كنت اعرف ما يخبئه الغد

*

سيان عندي بعد ان ودعت اطياف الرجاء
إن اشرقت شمس الضحى او اطبقت سحب السماء
إن غرّد القمريّ او ناح الحمام لدى العشاء
يا ليتني لم تكتحل عيناي يوما بالضياء

بغداد — عبد الكريم حميد عطار

سراب

وراء الوراء وقبل الازل
سُقيت الشقاء بخمر الملل
كؤوساً دهاقاً
وذقت وذاقا
هوىً واشتياقا
وضج الامل
فأينع واخضلّ حتى ذبل
وغنت شفاهك عند القُبل
تُرى نتلاقى ؟
ونُروى عناقا ؟
وراء الوراء ونُسقى الهناء
كؤوساً دهاقاً ؟
شحوب شحوب وهمٌّ أبد
تضجّ الدروب به والامد
كثيف أليم
وغاب النعيم
بقبر قديم بقفر الكمد
ومائي دون العذارى جمد
ونوري دون الدراري خمد
بليل بهيم شقي رجيم
وراء الوراء أ أسقى الهناء
كؤوساً دهاقاً ؟
ومرّ الزمان كحلم يلوح
وما كان كان وتبقى الجروح
كعين تفيضْ
بروض أريضْ
غدا كالحضيضْ
وعيناك كالنبع هل تهدءان ؟
وقد عربدت فيهما دمعتانْ
لكي تستعيض
بعهد بغيض
وراء الوراء وقبل الازل
سقيت الشقاء به والملل
كؤوساً دهاقاً

يحيى الدراجي



ترجمها ولخصها صباح محيي الدين

تعريف بالكاتب

يعرّف ارنست همنغواي (ولد عام ١٨٩٨) غاية الفنان بانها «التعبير عن تجربته الشخصية المعاشة بصدق ودقة تصبح معها رمزية وعامة » (ثلوج كيليمنجارو) . وواضح ان هدف همنغواي يختلف تمام الاختلاف عن أهداف الواقعيين والطبيعيين الذين ظلوا أسياد الرواية وقتاً طويلاً . ووفقاً لبديهية هذه النظرية ، لا شك في ان نجاح الفنان يتوقف الى حد بعيد على قيمة اللحظات المُعاشة . ولعل في ذلك ناحية الضعف من فن همنغواي ، فهو قد استغل تجربته اعمق مما استغل اي كاتب تجربته ، ولكن هذه التجربة ضيقة الآفاق. وقد ُولد همنغواي بالقرب من شيكاغو وقضى سنواته الاولى في غابات ميشيغان حيث كان أبوه طبيباً وصياداً ، وقد حمل كتابه « في عصرنا » وصفاً رائعاً لهذه الطفولة . وقبل ان تدخل الولايات المتحدة الحرب الأولى ، وبعد فترة من الزمن قضاها كصحفي متجول ، التحق بالجيش الايطالي ، فخرجت من هذه التجربة روايته «وداع السلاح» . وعاش في باريس بين ١٩٢١ و ١٩٢٧ فكتب خير رواية عن الجيل الضائع « ... ولا تزال الشمس تشرق » . وعاد عام ١٩٣٠ فسكن في كاي وست جنوب فلوريدا وكتب رواية عن صيادي السمك والمفكرين الخائبين « ملكٌ او حرمان » . وفي عام ١٩٣٦ توجه الى اسبانيا فشارك الجمهوريين الاسبان آلامهم، وتعرّف عن كثب إلى الرجال الذين قهروا الأنانية في سبيل قضيتهم وكتب روايته « لمن تُدق الأجراس » ؛ ورافق بعد ذلك ، في الحروب الماضية ، عدة معارك في الساحات كمراسل حربي ، حتى إذا انتهى القتال عاد الى اميركا .

ووجوه الشبه بين بايرون وهمنغواي كثيرة : فان كلاً منهما ينعم بحساسية شاعرية وحمّياً عنيفة ، وتتميز آثار كل منهما بالقلق نفسه الذي هو قلق العصر ، وبالمثالية نفسها تحميها «القسوة» والسخرية. ولكن بينما تخنق صناعة بيرون البلاغية كل تجربة في حياته ، فان همنغواي يتذكر دائماً انه شاعر وكاتب دقيق وفنان قبل كل شيء.

وأقوى ما تصوره روايات همنغواي وحدة الانسان المعاصر وعزلته وعلاقة هذه الوحدة والعزلة بالعنف . غير ان هذه الوحدة جدار بيننا وبين الآخرين ينبغي هدمه ، اوهي على الأصح مرآة نقائصنا وأنانيتنا، ويجب تحطيمها كيلا تقضي علينا . ان الوحدة تفضي إما الى العنف وإما الى الموت . وحين يصور همنغواي هذه الوحدة، فهو يصور مظهراً من مظاهر الشخصية الأميركية بل من مظاهر مصير الانسان المعاصر كله . ولكن يأتي وقت يصبح احتمال هذه الوحدة فيه أمراً مستحيلاً ، كما هو الشأن في فلسفة سارتر ، فيصبح أمر العنف او الانتحار قبولاً بسيطاً لعبء الانسانية المشترك .

وبين يدي القاريء الآن تلخيص آخر كتاب لهمنغواي، وقد عدّه النقاد الاميركيون اعظم كتاب صدر هذا العام ، وفيه جمع الكاتب تجارب حياته الطويلة ، فجاء الكتاب بسيط العقدة والاسلوب ، الا انه يحمل زبدة الحكمة الانسانية . وهو دفاع عن كرامة الانسان وتمجيد لجهده وان فشل موقتاً. اذ أنّ الانتصار الحق هو الانتصار على الضعف والتعب واليأس ، وليست الاعمال بنتائجها بل بما تحشده من ارادة وعبقرية انسانية .

« الآداب »

الشيخ والبحر

The Old Man and the Sea

كان ... ما كان ...

كان في أحد الأيام رجل عجوز ، يصطاد وحيداً في وسط « الغولف ستريم » ، ولم يكن قد التقط سمكة واحدة منذ اربعة وثمانين يوماً ...

وفي الأيام الأربعين الأولى ، كان يصحبه إلى البحر غلام صغير، ولكن أهل الغلام اعلنوا - في اليوم الحادي والأربعين - أن الشيخ لا شك منحوس نحساً لا دواء له ، فنقلوا الغلام إلى قارب آخر ، عاد بثلاث سمكات جميلة في اسبوع واحد . وما كان الغلام لينسى الشيخ إذ كانت تربطه به أواصر صداقة متينة ، فكان ينزل إلى الميناء كل مساء ، فاذا أقبل الشيخ في قاربه ، ساعده في حمل شباكه وطي شراعه .

أما الشيخ فكان معروقاً جافاً ، تملأ عنقه تجاعيد كأنها طعنات موسى ، وتخدّد يديه شقوق عميقة مما خلفته الأمراس التي تخبطت في نهايتها مئات الاسماك الثقيلة . وكان كل شيء فيه عجوزاً إلا نظراته، فكانت فرحة طيبة، في لون البحر وصفائه.

وكان الشيخ والغلام يجتمعان كل مساء ويتحدثان طويلاً ، فيعتذر الغلام إلى صديقه لأنه تخلى عنه نزولاً عند أمر والده ، ويعرض عليه ان يصطاد له بعض اسماك السردين لتكون طعماً لصيد الغد . ويستعيد الاثنان ذكرياتها ، يوم خرج الغلام ، وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره ، لاول مرة مع الشيخ فاصطادا سمكة كادت تحطم القارب بضربات ذنبها .

ومنذ ان هبط النحس على الشيخ، احس الغلام بانه مسؤول عن صديقه الذي يعيش وحيداً في كوخ منعزل،فهو يأتيه بالطعام كل مساء، يستدينه من مقهى على المرفأ، ويعد له القهوة كل صباح ويساعده في تهيئة أطعامه وأمراسه وفي دفع القارب الى البحر.

وفي هذا اليوم الخامس والثمانين ،خرج الشيخ باكراً بقاربه من الميناء وهو على علم بانه سيذهب بعيداً . وأخذ قاربه يمخر وسط الاشنة* المتلألئة ويشق طريقه بين طبقات القريدس والاسماك التي تصعد ليلاً الى سطح البحر .

وما ابتعد الشيخ الا قليلاً عن اليابسة حتى اخذ الفجر يذر قرنه ، والحياة تدب في البحر الذي اخذ يتحرك ويتنفس ، وتملأه الاسماك الطيارة حركة حين تقفز وتخبط الماء إذ تسقط . واستمر الشيخ يجذّف ، وسطح البحر أملس إلا من تجاعيد يأتي بها التيار من آن إلى آخر ، وحين بدا النهار وجد انه قد سار أبعد مما كان يؤمل .

وقبل ان يتكامل نور النهار أرخى الشيخ لقاربه العنان في التيار ، وأنزل أطعامه - وكانت عامرة كأنها عناقيد من الاسماك الصغيرة المتلألئة بحيث لا يبدو من معدن الصنارة

* شيء نباتي يتكون على الشجر والصخور .

مليمتر واحد - واخذ يجذف ببطء ويراقب العيدان الرفيعة التي التفت حولها امراس الأطعام ، بحيث تكون الخيوط عمودية مشدودة ، فتنزل الصنارات الى أعمق ما يمكن .

وبزغت الشمس اخيراً فرأى الشيخ قوارب اخرى قابعة على مستوى البحر في مجرى التيار ، ثم تعالت الشمس فأحرقت باشعتها اليم ولطمت عيني الشيخ ، ولكنه ظل يجذف محوّلاً رأسه عن الوهج ومخاطباً نفسه :

- لعل هذا اليوم يوم السعد المنتظر !

وإذ مضى على شروق الشمس ساعتان، لم يعد في مرمى نظر الشيخ سوى ثلاثة قوارب بعيدة عنه ، قريبة من الشاطيء ، فأحسّ بالوحدة تشمله بين أديمي الماء والسماء . وأخذت الساعات تمر كسالى، لا يؤنس وحدتها سوى نسر يحلّق في كبد السماء ويهوي كالجلمود على فرائسه من السمك وبعض السلاحف الخضر من ذوات المناقير ، او افواج من رئات البحار ذوات السُم ، أو قافلة من اسماك التنّ ...

واعتلت الشمس قبة السماء واخذت تحرق قفا الشيخ ، وغاب عنه خط الساحل فبات لايتبيّن سوى قمم التلال الخضر والسحب تكللها كأنها جبال سامقة من الثلج . وارتدى البحر لوناً داكناً ، واخذ النور يقطع في الماء مواشير من الضياء . وقدّر الشيخ ان عمق البحر الف متر على الاقل في هذه المنطقة. واشتد حرُّ الشمس فسال العرق في ظهر الشيخ ، فقال : « في امكاني ان ارخي قاربي للتيار وأغفو قليلاً ويكفي ان ألف الخيط على رأس اصبع قدمي حتى يوقظني اذا جدّ شيء..» ثم عاد يقول : « ولكنّ هذا يومي الخامس والثمانون ، ويجب ان لا اترك شيئاً للصدفة » .

وفي هذه اللحظة بعينها ، غطست احدى العيدان التي تقوم مقام الطوّافات رأسها فجأة في الماء فصاح الشيخ :

يالله ! ها أنا آت .

وانحنى برفق على الخيط وأخذه بيده اليمنى بين الابهام والسبابة فلم يحس بأي ثقل أو توتر فيه ، فاطبق يده على الخيط بخفة . وهنا شعر بان ثمة شيئاً يشد شدّاً رفيقاً لا يكاد يحس ، ولكن الشيخ عرف على التحقيق ما هو ذلك الشيء ، فعلى عمق مئة قدم كان سيف * يأكل اسماك السردين التي تغطي الصنارة قبل ان يبتلع المعدن المعقوف .

وأخذ فكر الشيخ يعمل بسرعة :

* نوع من الأسماك الضخمة .

– بالنظر الى الموسم والى بعدي عن الشاطيء – فلا شك في ان هذه السمكة ضخمة جداً .

ثم اخذ يخاطب السمكة :

– كلي يا سمكة ، كلي هنيئاً مريئاً ! لاجلك بيَّتُّ الطعم في اعماق الماء ولاجلك تجشمت الصعاب .

واهتز الخيط هزَّة خفيفة ثم اخرى ابين منها .. ثم سكنت النأمة . وقال الشيخ بصوت عال :

– تعالي ، تعالي .. ذوقي هذا ، أليس أكلة نفيسة .. كلي ما تشائين من السردين اللذيذ .. لا تخافي يا صغيرتي ، كلي وتمتعي !

★

وازدرد السيف الطعم بكامله وابتلع الصنارة الضخمة . و إذ احس بالمعدن يجرح شدقه هبط الى الاعماق كمن يلتمس فيها النجاة ، فعمد الشيخ الى خيطين كان احتاط بهما للطواريء ، طول كل منهما اربعون قامة ، فربطهما بالخيط الذي يحمل الصنارة ، كي يترك لصيده مجال الحركة علّه يتعب فيستسلم لمصيره .

واخذ السيف يشد الخيط والقارب معه بقوة عظيمة ، ثم أسرع في مسيره كأن الشيطان قد ركبه، فقال الشيخ :لكل أمر نهاية ، وليس في إمكانه ان يظل على هذه السرعة حتى آخر الدنيا .

ومضت ساعات اربع ، والسمكة ما زالت تسبح نحو عرض البحر، تشد القارب خلفها ، والشيخ متقوس بكل قواه على جانب القارب ، والخيط مشدود على ظهره، يحز فيه ويؤلمه .

وقال الشيخ : لقد بلع هذا السيف الطعم عند الظهر ، وانا بعدُ لا ادري كيف هو واي شيء يشبه ، وها قد غابت اليابسة عن العيان وان كان لا يهمني هذا ، فما زالت امامي ساعتان قبل مغيب الشمس . فاذا لم يصعد الى السطح الآن فسيصعد مع القمر ، وإلا فسيصعد غداً – وانا قوي... ولكن يا ليتني اراه ولو لحظة كي أعرف من هذا الذي أكافحه !

وجُنّ الليل دون ان يخفف السيف من سرعته او اتجاهه ، وظل يسحب القارب دون هوادة . واحس الشيخ بالتعب يغزوه فقال :

– ليت الغلام معي ، إذن لاعانني ... ورأى هذا ..

وسمع الدلافين تلعب في البحر وتقفز ثم تغطس في مرح ، فأحس بالكآبة للسمكة التي تعاني سكرات الموت في الاعماق وناجى نفسه : – لقد خدعتها وسقتها الى هذا المصير بما نصبته لها من حبائل... انها كانت في الاعماق ، بعيدة عن الخونة امثالي، فجئتها وبحثت عنها ، وسرت اليها ابعد من اي صياد قبلي . وها نحن الآن متحدان،مرتبطان منذ منتصف النهار، لا ننتظر العون او الشفقة من احد .

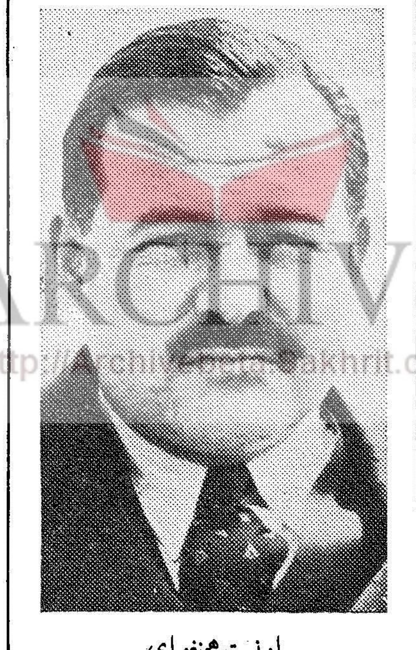
★

وعند الفجر قطع الشيخ كل الخيوط الباقية وربطها بالخيط الرئيسي . . وطلع الفجر بارداً رطباً ، ثم اعتلت الشمس كبد السماء ، ولم يبد على السمكة تعب او وهن ، وان كان انحناء الخيط يدل على انها تسبح على عمق اقل من ذي قبل . وابتهل الشيخ الى الله :

– ربِّ اجعلها تقفز فتمتليء بالهواء الأكياس الموجودة تحت ظهرها فلا تستطيع ان تغوص فتموت في قعر الماء وتذهب كل جهودي هباء .

ولم يكن يجرؤ على شدّ الخيط وتقصيره خشية ان تخرج الصنارة من شدق السمكة، واخذ يخاطب السمكة من جديد :

– يا سمكة انا احبك واحترمك .. احترمك جداً ولكني سأسلخ جلدك قبل اخر النهار (أو هذا ما أؤمله).. قالها بينه وبين نفسه .



ارنست همنغواي

ولم يبدُ على السمكة ما يدل على انها ستغير سرعتها او اتجاهها ، وظل الشيخ متيقظاً ، يرقب الخيط علّه يأتي بجديد. وحطّ على الخيط عصفور صغير فآنس الشيخ في وحدته وانساه بعض الالم الذي يحز في ظهره وعنقه ، فقال للعصفور :

– ابق معي قليلاً ..

وأوشك ان يبدأ معه في حديث طويل .

وفي هذه اللحظة قفزت السمكة قفزة هائلة القت بالشيخ على وجهه في قعر القارب وأدمت جبينه وجرحت يده، وكادت

ان تلقيه في البحر لولا ان تمسك بجانب القارب. وطار العصفور دون ان يراه الشيخ اذ شغل بيده فانزلها في المـاء كي يلتئم الجرح فيهـا ، واحس إذ ذاك ان سرعة القارب قد خفت كثيراً .

وشعر الشيخ بأن يـده التي تمسك الخيط اخذت تتقلص وتؤلمه ألماً يكاد لا يطاق فقال :

– يا ليت الغلام معي اذن لفركّ يدي وقبضتي فعاد اليها الدم ... ولكنه ليس هنا ، فلأتجلد !!

وفجأة، وقبـل ان يرى اي تغير في انحناء الخيط ، احس بتبدل في توتره ، ورآه يرتفع فقال :

– ها هو يصعد ..

واخذ الخيط يعلو بانتظام ، رويداً رويداً ، وارتفـع الاوقيانوس في مقـدم القارب وبدا السيف خارجاً من الماء ، كأنه لن ينتهي لطوله ، والماء يسيل على اعطافه اللامعة في نور الشمس .وكان رأسه وظهره بنفسجيين داكنين والشمس تضيء الخطوط البنفسجية العريضة على جوانبه. اما انفه فكان طويلاً ، طويلاً كأنه مضرب « بيزبول » *

وظهر السيف بكامله لحظة ، ثم عاد الى الغوص بسهـولة السابح الماهر ، ولكن الشيخ استطاع – في هـذه الفترة القصيرة – ان يرى ذنبه المِنْجَلِيّ الكبير وهو يغوص . . . بينما عاد الخيط الى الكرّ . وقال الشيخ بدهشة عظيمة :

– انه أطول من القارب بقدمين ! !

وكان الشيخ قد لاقى كميات من سمكات السيف ، يزن بعضها خمسمئة كيلوغرام ، واصطاد منها اثنتين في حياتـه . ولكنه لم يكن وحيداً آنذاك ، اما اليوم فهو وحيد ، وقـد غاب الشاطيء عن عينيه منذ زمن طويل ، وها هو قـد علـّق أضخم سمكة شاهدها في عمره الطويل .

واحس انه بحاجة الى من يساعده فأخذ يتمتم :

– لست بمتمكن من قضايا الدين ولكني مستعـد لقول عشرة « ابانا » وعشرة « السلام عليك يا مريم » لاصطاد هـذه السمكة . اما اذا اصطدتها فنذر عليّ ان أحج الى مزار العذراء في المدينة .

وأخذ يصلي آلياً . وحين فرغ من صلاته شعر انـه أنشط وأصح وأقوى على النضال .

ومـالت الشمس الى المغيب ، ودبّ التعب في الشيخ ، وعلم ان الليل قريب ، وانطلق فكره الى السمكة التي تناضل الموت في الاعماق ، فشعر نحوها بشفقة اخوية وقال :

– لو ان لي الخيار لفضلت ان اكون مكانها ... هذا إذا لم تأتها الاقراش * ... فعند ذلك يرحمها ويرحمني الله .

واستمر القارب يمخر في الاتجاه الذي اختـاره السَّيْفُ ، فانتهز الشيخ الفرصة ليأكل لقيمات ويشرب جرعة من الماء .

واتى الليل من جديد فأحس بآلامه تزداد في ظهره حيث الخيط يأكل في لحمه ، فاستند إلى جانب القارب واستراح هنيهة دون أن ينزل الخيط عن ظهره، وما عتم ان غلبه النعاس والجهد فأغفى واخذ يحلم بالقرية وانه نائم في فراشه في الكوخ .

وكان القمر قد طلع منذ زمن ، والسمكة ما تزال تسحب القارب والشيخ الغافي في انطلاقة منتظمة . وعلى حين غرّة ، انتفض الشيخ كأنه نال لطمة على وجهه ، وأحس بالخيط يسلخ جلد يده اليمنى ، فحشد قواه ليوقف الخيط ثم قبض عليه بيده اليسرى وضغط عليه بظهره .

وفي هذه اللحظة قفز السيف قفزة فتحت فجوة عريضة في الاوقيانوس ثم هوى بثقل ، وعاد يقفز من جـديد ويسحب القارب بسرعة عظيمة على الرغم من طول الخيط الذي ما انفك الشيخ يرخيه له ، وعلى الرغم من جهوده في الشد على الخيط في حدود قواه . وألقى النضال العنيف الشيخ على وجهه في قعر القارب فبات لا يستطيع حراكاً . ولم يكن باستطاعتـه ان يرى السمكة الا انه كان يسمع صوت قفزها وسقوطها،والخيط يكر بسرعة هائلة فيحز يديه ويسلخ جلدهما، وتمنى لو ان الغلام كان معه لبلّ الخيوط . وردد بصوت عال:

– ليته كان هنا .

واستمر الخيط في كرّه ، غير ان سرعته اخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً واستطاع الشيخ ان يرفع رأسه ويستوي قـائماً ، فأخذ يقاوم شد السمكة ويقول :

– لقد قفزت اكثر من عشر مرات وملأت بالهواء الاكياس التي تحت ظهرها ، وليس في استطاعتها بعدُ ان تغوص وتموت في الأعماق بحيث لا استطيع استخراجها ، وهي لا شك ستبدأ قريباً بالدوران في حلقات ! وعندهـا ستكون الكلمة لي .. فأقودها حيث أشاء ..

★

* Baseball

* جمع قرش : نوع من الاسماك المفترسة .

وبزغت الشمس للمرة الثالثة علـى الشيخ وقاربه ، وبدأ السيف يدور حلقات حول القارب . ثم مضت ساعتان طويلتان، نضح فيهما العَرقُ الشيخ وارهقه الجهد حتى العظم ، ولكن الحلقات اخذت تضيق تدريجاً ، وبدا – من ميلان الخيط – ان السيف بدأ يقترب من سطح البحر .

وكان الشيخ ، منذ ساعة ، يرى بقعاً سوداء تتراقص امام عينه ، ويحس بالعَرق يسيل في عينيه فيحرقهما ملحُه ، ويحرق الجروح التي خلّفها في جبينه سقوطه على أرض القارب ، كما انه شعر مرتين بحسر ودوار .

... ثم بدت السمكة للعيان ، كظل اسود باديء الأمر، يمرّ تحت القارب . ولم يصدق الشيخ عينيه وقال :

– ليس هذا بممكن . ليس ممكناً ان تكون في هـذا الحجم .

ولكن الواقع انها كانت في ذلك الحجم .. وحين خرجت من الماء بكاملها على مسافة خمسة وعشرين متراً من القارب ، رأى الشيخ ان ذنبها المنتصب اعلى من سنان منجل كبير .

وكان الشيخ يسيل عرقاً من الحرّ والجهد ، ولكنه كان يكسب طولاً من الخيط كلما دارت السمكة مرّة ، ولم يعـد بينه وبينها سوى مقدار دورتين كي يطعنها بالخطّاف .

وكان الخطّاف مهيئاً منذ زمن طويل ، مربوطاً بلفافة من المرس الرفيع الملفوف في سلةٍ مدورة ، وطرفه معقود الى مقدّم القارب .

ومرت الدقائق ثقيلة متعبة ، يحاول الشيخ ان يقرب السمكة الى مرمى الخطّاف والسمكة تخادع وتدور ، فخاطبها باستسلام :

– انك تريدين قتلي .. وهـذا حقك يا صاحبتي ، فانا لم اشاهد اضخم منك ولا انبل او ابدع .. هيا اقتليني فلم يعـد يهمني من منا يقتل الآخر .

ثم قال بصوت يكاد لا يسمع :

– احتفظ بهدوئك يا شيخ .. احتفظ بهدوئك ..

ودارت السمكـة مرتين اخريين حاول الشيخ فيهما ان يطعنها بالخطّاف ، ولكن دون نتيجة وشعر انه عـلى وشك الاغماء فقال :

– لست ادري ما بي .. سأحاول مرة اخرى .

وجمع كل ما تبقى لديه من قوة وشجاعة وعنفوان ، والقى بها ضد السمكة المحتضرة اذ اقتربت من القارب وهي تسبح برفق وانفها يمسّ جانب القارب ، وكادت ان تخلفه وراءها من جديد . وعندئذ رفع الشيخ خطّافه الى اعـلى ما امكنه ، وبقواه جميعها ، مضافاً اليها كل يأسه وأمله ، اغمد الخطّاف في جانب السمكة خلف الزعانف الصدرية ، واحس بالحديد يشق اللحم ، فضغط عليه ومال بكل ثقله كي يـدخل الى اعمق مدى ممكن .

وشعرت السمكة بالموت يمزق احشاءها فعادت اليها الحياة. وفي انتفاضة اخيرة رائعـه قفزت قفزة هائـلة وظلت معلقة في الهواء فوق الشيـخ والقارب مدة ثانية ، ثم هوت بثقل في اليم . وغمر الرشاش الشيخ وقاربه كأنه ميزاب من المطر .

وكان الشيخ مجهداً الى آخر حد ، لا يكاد يرى بعينيه . وحين عاد نظره اليه ، كانت السمكة ملقاة على ظهرها، وبطنها الفضي يلمع في الشمس . وشرب الشيخ جرعة من الماء ثم جمع شتات قـواه فربط السمكة الى جـانب القارب ، وكانت من الضخامة بحيث خيل اليه ان قاربه الصغير يجر حذاءه قاربـاً اطول واوسع . ثم فرَد الشراع واتجه نحو البر تقوده الرياح الموسمية ، واصطاد بعض القريدس فأكله وشرب جرعتين من الماء ثم استراح برهة .

ومضت فترة طويلة قبل ان يدرك الشيـخ انه لم يحلم بـل اصطاد حقاً هذه السمكة الهائلة ...

★

وبعد ساعة من الزمن اقبل اول قرش ، متتبعاً أثر الدم الذي كان يسيل من السيف . ونظر الشيخ إلى فمه الذي يضم ثمانية صفوف من الانياب الحادة التي يبلغ طول واحدهـا الاصبع ، فهيأ خطافه للطعن ، وأحس بأنه هاديء الاعصاب ، ممتليء حيوية . ولم يكن ليتوهم أنه سيخرج منتصراً من المعركة التي أوشكت ان تبدأ ، بل كان يقينه انه خاسر ، إن لم يكن امام هذا القرش ، فأمام المئات من اقرانه التي ستشم رائحـة الدم فتتبع القارب والصيد .

وأخرج القرش رأسه من الماء واطبق فكيه عـلى جانب السيف فمزق الجلد واللحم . فأطلق الشيخ خطافـه بقوة وحنق وحقد ، فاستقر في عين الوحش الذي انقلب على جانبه من هول الطعنة وعلم الشيخ انه نال منه مقتلاً . ثم انتفض القرش انتفاضة الموت فقطع مَرَسَة الخطاف وغاص به الى الاعماق .

وقال الشيخ :

– لقد اخذ هذا الكلب خطافي.. و ٤٠ قدماً من المرس، والآن سيأتي الآخرون ...

ولم تعد فيه رغبة للنظر الى السمكة المشوهة وشعر كأن القرش قد نهش احشاءه حين قضم جانب السيف واخذ يتمتم :

– يا ليت الامر كله كان حلماً .. يا ليتني لم اصطد هذا السيف ... يا ليتني كنت في سريري !!

★

ولكن انتصاره المؤقت على العدو ملأ رأسه بدم الشباب :

– الرجل من لا يعترف بالهزيمة ... فهو قد يُدمَّر ولكنه لا يُهزَم ... شدّ ما انا آسف لقتلي السيف ... والمعركة لم تنته بعد، ولم يعد لدي سلاح . ولكني سأربط سكيني بمجذاف ... لا شك في أني شيخ هرم، ولكني سأناضل ..

وسار القارب مدة ساعتين، ثم أبصر الشيخ أول القرشين.. ثم ثانيهما . وكان الوحشان في حالة ظاهرة من الهياج والجوع. فقبض الشيخ على المجذاف الذي ربط به سكينه ورفعه في الهواء برفق لان راحتيه كانتا تؤلمانه ألماً فظيعاً .

وكان القرشان من نوع نهم لا يتورع عن نهش المجاذيف وخشب القوارب ومهاجمة الانسان اذا كانت رائحته رائحة سمك او دم .

وهجم الاثنان معاً، فنزل الاول تحت القارب واخذ ينهش السيف، فيهتز القارب بأكمله لكل نهشة، بينما ظل الثاني يرقب الشيخ بعين صفراء قذرة، ثم انقض بدوره على القسم المنهوش من السيف، فبادره الشيخ بطعنة اتبعها باخرى، فانفغر شدقه وغاص في اللجة . وعندها حول الشيخ سير القارب فاضطر القرش الثاني الى الظهور، وطعنه عندها طعنة لم يبد انها اصابت منه مقتلا، اذ عاد الى الهجوم من جديد . وحين بدت قمة رأسه، انزل الشيخ سكينه في مكان أول طعنة، ولكن القرش لم يرخ فكيه ؛ ففقأ الشيخ عينه ولكن القرش لم يتحرك ... فأغمد الشيخ سكينه بين الفقار والدماغ واحس بالغضروف ينشق تحت طعناته ثم ارتخى القرش وغاص الى الاعماق ..

وتنفس الشيخ بارتياح ومسح سكينه، ثم عاد الى قاربه يسيره في اتجاه البر، وهو يتنهد قائلا :

– لقد أكلوا ربع السمكة على الاقل..واطيب ما فيها . يا ليتني كنت في حلم ... ولم اصطد هذا السيف .

ولم يعد يملك الشجاعة للنظر الى السمكة وقال :

– انا حزين من اجلك يا سمكة ... ما كان لي ان اذهب بعيداً كما فعلت . . لا من اجلي ولا من اجلك .. عفوك يا سمكة .

★

وأقبل القرش التالي منفرداً واندفع نحو السيف كخنزير نحو معلفه، لو ان للخنزير شدقاً يسع رأس رجل . وتركه الشيخ ينهش ثم اغمد سكينه في دماغه . وحين تلوّى القرش وهو يحتضر قفز الى الخلف فانكسر نصل السكين، ولم يبق في يد الشيخ سوى المجذاف فقال :

– لم يعد لديّ سوى المحجن،ولكنه ليس بذي فائدة ضد الأقراش..ثم لديّ المجذافان، ولديّ السُكان ولديّ الهراوة.

ولم يكن الشيخ ليجهل انه قد خسر المعركة ولكنه أبى ان يستسلم لليأس واخذ يصيح :

– لقد غلبوني، فأنا اهرم من ان اقتل الاقراش بالهراوة، ولكني سأناضل ... سأفعل ... ما دام فيّ رمق وما دام السكان والهراوة والمجذافان في يدي .

وغمس يديه من جديد في البحر علّ آلامها تخف قليلاً . وكان النهار قد مال نحو الاصيل واخذت الريح تهب نحو البرّ، فأمّل الشيخ ان يرى الشاطىء بعد قليل .

★

ولم تعد الاقراش الى الهجوم الا عند المساء، إذ ابصر الشيخ زعنفتين تتجهان معاً نحو القارب، فقبض على هراوته، وكانت مصنوعة من قبضة مجذاف طولها نحو متر، ولا يمكن استعمالها إلا بيد واحدة . وانقض القرشان معاً على السمكة، وحين أطبق اولها فكيه على بطنها الفضي، رفع الشيخ هراوته ثم انزلها في ضربة قاصمة على رأسه العريض، ثم اتبعها باخرى حين انفصل الوحش عن السمكة وهوى الى الأعماق. أما الثاني فكان قد قضم اكثر من مرة من لحم السيف حين التفت اليه الشيخ وضربه، ولكنه لم يتحرك، فضربه من جديد ولكنه لم يصب منه سوى موضع مطاط من الرأس فابتعد عن القارب . وصاح به الشيخ : عد لأريك .

فعاد بسرعة البرق، فتلقاه الشيخ بضربة هائلة على عظم رأسه اتبعها بضربات ... وهوى القرش وفي فمه قطعة من السيف ..

واستمر الشيخ في نضاله ضد الاقراش ، دون هوادة او ملل ...

وأتى الليل كرة اخرى ، وخيل للشيخ انه مات وانتقل الى عالم آخر ، لا نور فيه ولا ضجة ، ولا صحبة سوى الريح والقارب . واستلقى نصف استلقاءة في قاربه واخذ يترقب انوار الشاطيء .

وحوالى الساعة العاشرة، بدت له هالة النور المنبعثة عن المدينة ، فوجه قاربه نحوها ، وقدّر انه ليس ببعيد عن حاشية التيار . وأدرك ان امره قد انتهى وان الاقراش لا شك عائدة قريباً .. ثم ماذا يصنع في الظلام وقد ذهب كل سلاحه ؟

وكان التعب قد اضناه ، وأيقظ برد الليل جراحه وآلام جسمه العاني فقال :

— كل رجائي ان لا اضطر الى ضربهم من جديد .

ولكن المعركة نشبت مرة اخرى لدى منتصف الليل،وكان الشيخ موقناً في قرارة نفسه ، من ان كل عمله غير مجد ، فالأقراش كانت قطيعاً كاملاً، ولم تكن العين تتبين سوى آثار الزعانف في الماء والمشحات الفوسفورية التي تخلفها الأقراش وهي تندفع نحو السمكة. واخذ الشيخ يخبط في الظلام على رؤوس الوحوش ، ويسمع قعقعة فكوكها ويحس تأرجح القارب على ظهورها . وكان الشيخ يدافع باستماتة ضد عدو يسمعه ويحسه ولكنه لا يراه .

وفجأة .. طارت الهراوة من يده ، فقد استولى عليها احد الأقراش عنوة .

وعندئذ حل الشيخ دفة السكان ، وقبض عليها بكلتا يديه وعاد يخبط من جديد خبط عشواء في غير اتجاه معين . ولكن الأقراش ما كانت تبالي ، وتتدافع إلى جانب القارب زرافات ووحداناً وتنطلق نحو السمكة فتنهش قطعاً منها .

ثم اقبل آخر قرش وهجم على الرأس ، فعلم الشيخ ان السيف قد اصبح هيكلاً اجرد ، فهز الدفة ثم اهوى بها على رأس القرش مرة ثم اخرى .. ثم عشر مرات، وتحطمت الدفة، ولكن الشيخ استمر يضرب بها وشعر انها تغوص في رأس الوحش الذي تلوّى ثم هوى الى الأعماق . وكان آخر واحد في القطيع إذ لم يعد في السمكة ما يؤكل .

وكان الشيخ يتنفس بصعوبة وملأ فمه طعم غريب، حديدي حلو في الوقت ذاته ، فبصق في البحر وقال للاقراش :

« ابتلعوا هذا ، واحلموا انكم قتلتم رجلاً . » ذلك انه ادرك انه خذل وهزم هزيمة لا مَردّ لها . وعاد الى مؤخر القارب فحاول ان يولج بقايا الدفة في شق السكان ، ولكنه وجد من المستحيل قيادة القارب ، فلفّ جسمه المضني في كيس من الخيش وضغط على السكان في اتجاه البر . وكان القارب خفيفاً جداً الآن ، بعد ان ذهب الثقل من جانبه . وفارق الشيخ كل شعور او تفكير ، وانفصل عمّا حواليه ولم يعد يرغب في غير شيء واحد ، وهو العودة بالقارب الى الميناء على خير وجه .

وفي الظلام ، كانت بعض الأقراش تأتي فتنهش هيكل السيف ، كالمساكين المتهافتين على بقايا الموائد . ولم يكن الشيخ يعيرها اي اهتمام ، إذ لم يكن يهتم لشيء غير شراعه . وكان القارب قد دخل مجرى التيار ، واخذ الشيخ يرى الأنوار المبعثرة على طول الشاطيء ، ولم يعد الرجوع الى الميناء سوى لعب اطفال ، واخذ يفكر :

— إن الريح معنا على الأقل ، وكذلك البحر .. والسرير . نعم السرير ! هذا صديق امين ، كم يلذني ان اتمدّد فيه . . . ثم قال : ما أسهل الأشياء بعد الفشل ، ما كنت أظن انها بهذه السهولة ! ولكن ما الذي جعلني اعود بخفي حنين ؟

واجاب على سؤاله :

— لا شيء ، سوى انني ذهبت أبعد مما يلزم .

★

وحين دخل الشيخ المرفأ كانت القرية نائمة فحلّ الصاري ولف الشراع عليه ، ثم حمله على كتفه واتجه نحو كوخه . وعندها احس بعظم تعبه فتوقف لحظة ثم انثنى فرأى على ضوء احد المصابيح ذنب السيف وهو يرتفع بعلو مقدم القارب ، وتبين عموده الفقري كالخيط الأبيض ، ورأسه الأسود وسيفه ، ثم الفراغ الواسع ما بين هذا كله .

واضطر الشيخ الى الجلوس خمس مرات قبل ان يصل الى كوخه . وحين وصل اليه أسند الصاري الى الجدار وشرب جرعة ماء من قنينة كانت هناك ثم سقط على السرير وسحب الغطاء على كتفيه واستلقى صدره ، وذراعاه مصلبتان ، ونام .

★

وكان الغلام يأتي كل يوم ليتفقد صديقه . وفي صبيحة هذا اليوم فتح الباب على عادته ومدّ رأسه من خصاصه فرأى الشيخ غارقاً في نومه فانحنى عليه ليتأكد من انه يتنفس. ثم نظر الى يديه المثخنتين بالجراح فبكى ، وخرج مسرعاً ليأتي بالقهوة. وكانت

الدموع تسيل من عينيه وهو يركض نحو المرفأ ، ولكنه لم يكن ليبالي بالدموع .

وكان الصيادون يحيطون بالقارب يفحصون ما يحمله الى جانبه بينما نزل احدهم الى الماء يقيس هيكل السمكة . وصاحوا بالغلام :

— كيف حال الشيخ ؟

فاجابهم : انه نائم .

فقال الذي قاس السمكة :

— ان طولها ستة امتار .

فردّ عليه الغلام : أو تستغرب هذا ؟

وعاد الغلام بالقهوة الساخنة الى الكوخ ، وظل قابعاً الى جانب الشيخ حتى يفتح عينيه . وبدا على الشيخ مرّة انه يستفيق ، ثم عاد الى سباته العميق . وعبر الغلام الشارع ليستدين بعض الحشب لتسخين القهوة . واخيراً تململ الشيخ على فراشه وفتح عينيه فقال له الغلام :

— لا تتحرك واشرب هذا .

ثم صبّ بعض القهوة في قدح ،فأخذه الشيخ وشرب ثم قال:

— لقد هزموني ! لقد هزموني .

فأجابه الغلام : ولكنه لم يهزمك هو (يعني السيف) .

— صحيح ! فانهم هزموني بعد ان تغلبت عليه ... شدّ ما وددت أن تكون معي في هذه المعركة .. وانت ماذا اصطدت ؟

— سمكة كبيرة اول يوم ، واخرى في اليوم الثاني ، واثنتين في اليوم الثالث .

— صيد حسن .

— لا عليك ، سنذهب الى الصيد معاً من جديد ، نحن الاثنين .

— لا ، لا .فاني منحوس ،وليس لي حظ بعد الذي حدث .

— الحظ لا يهمني ، فلديّ منه ما يكفي .

— وماذا سيقول اهلك ؟

— وهذا ايضاً لا يهمني .. ثم ، ما زالت امامي اشياء كثيرة ، يجب أن اتعلمها وأنت خير معلم لي .

فبدا في عيني الشيخ بارق من الارتياح وقال :

— سيلزمنا رمح لسفراتنا المقبلة ، مدبب متين ، فقد انكسرت سكيني في جسم الأقراش .

— سأجد لك سكيناً اخرى . والآن يجب ان تهتم بيديك وسآتيك ببعض المرهم من الصيدلية ، وبالطعام والصحف .

وحين خرج الغلام من الكوخ ، عاد الى البكاء .

★

وكانت القرية ، في ذلك اليوم ، تستقبل عدداً كبيراً من السياح ، جلسوا في المقهى قرب المرفأ ينظرون الى البحر والسفن . ورأت احدى السيدات عموداً فقرياً ابيض طويلاً ينتهي بذنب عظيم يرقص على البحر، فسألت الخادم «ما هذا؟» مشيرة إلى السيف الذي لم يبق منه سوى هيكل تتلاعب به الامواج،فأجابها بلغته الاسبانية : — هذا سيف ذهب ضحية الاقراش . فلم تفهم السيدة سوى الكلمة الاخيرة فقالت لرجل الى جانبها :

— ما كنت أظن ان للاقراش هذا الذّنب الجميل وهذا الشكل البديع .

فأجابها الرجل : — وانا كذلك .

★

وفي الكوخ ، هناك في اعلى القرية ،كان الشيخ قد عاد الى النوم وهو ما زال في استلقائه على صدره ، وجلس الغلام الى جانبه ينظر اليه في نومه ...

غرناطة — الاندلس

صباح محي الدين

هل يؤدي ادباء الشيوخ رسالتهم ؟

جواب الاستاذ محمد روحي فيصل

أخي رئيس التحرير

أحسب أن وضع السؤال على هذا النحو ، يسوق بلا ريب شيوخ الأدب جميعاً الى قفص الأتهام ! وأنت تعني ما تقول ، ولكني لا أحب لك ولا لغيرك من أدباء الشباب الثائر ان تحاسبوا هؤلاء الأعلام فيما لا يسمح به تكوين نفوسهم ومواهبهم من تصوير المجتمع الكبير الذي يحيون فيه ، ونفض أهدافه ، والتماس الحلول لمشاكله على الوجه الأتم الأكمل .

فلقد نشأوا في بيئات مختلفة متقاطعة محافظة ، واستمعوا الى أصوات خافتة ليست قوية الرنين ولا متجاوبة الاصداء ، ثم نضجوا من ثقافات ينبع اكثرها من الماضي القديم . فامتدت لهذا جذور آدابهم في أراض لا تساعد لغذائها الفقير على التحرر والانطلاق الا من عصم ربك من النفر الأصيل ، وما أقله في الشرق العربي الحديث .

وإذا كانت صورة الكفاح المضطرب للخلاص من الأسارين : الجمود والاستعمار ، تسم طوائف من جماهير الشعب في فترة الثلاثين السنة الماضية ، فلقد حاول بعض الشيوخ من أعلام الأدب اليوم ان يستجيبوا ، بقدر ما تسمح الظروف ، الى نداء الواقع العربي المؤلم او يحققوا شيئاً من مطالبه في الفكر والفن .

على أني أعلم أن من مضى منهم جريئاً عنيداً في النضال الى غايته ، قد وقع صريعاً في منتصف الطريق وسط المعركة ، وهو اليوم ميت او كالميت يلملم في نفسه ذيل الخمول ، وفي اسرته جراح الفقر . وما نجا فيما أعرف من الأدباء الأحرار إلا من صانع او هادن او استسلم .



لست في موقف الدفاع عن أحد من هؤلاء الأعلام الشيوخ . ولكنه التأريخ لفترة الانتقال ، والتقرير لتطور الأدب ، يضطرني كلاهما الى التماس العذر من بعض الوجوه لأدباء الطليعة في العالم العربي .

فأنا كما تعلم غير راض عنهم كل الرضى ، ولطالما جأرت بالشكوى من تخلف ادبهم وقلت انه كان في مكنة الواحد منهم ان ينهض برسالة الامة العربية باكثر مما نهض ، وأن يظل في حواشي اللهب ولا يحترق . ورحم الله مصطفى صادق الرافعي فهو صاحب هذا القول البارع .

فأن شئت الجواب الواضح على سؤالك الدقيق ، فاسمح لي ان اكون بجانبك ومع إخوانك من كتاب « الآداب » وانصار الالتزام . فأنت تقول هذا في العدد الاول من المجلة ، وسؤالك نفسه يملي علي وعلى غيري الجواب ...

ما كان جميع أعلام الأدب الشيوخ يؤدون في الماضي كل الرسالة التي يفرضها عليهم واقع بلادهم العربية وحاجاتها حتى يمتد بهم الاستمرار فيؤدوها اليوم ايضاً كاملة غير منقوصة . لقد التفتوا الى ذلك مضطرين ، وقاموا بمحاولات شتى ، وقصروا في الجملة عن المدى . وفق بعضهم الى ما يريد ، وفشل آخرون . ولكن احداً منهم لم يلتزم في غاية فنه رسالة الأدب في المجتمع كما تحب وترضى .

والرأي عندي ان هذه الرسالة القومية لايمكن النهوض بها حيال الامة العربية وحاجتها من الحياة العالية ، الا في جو من الحرية الاجتماعية والحرية السياسية ، وهي حرية مزدوجة كانت مفقودة فيما مضى ولكنها توفرت اليوم لأقلام الكتاب في مصر وسوريا ولبنان الى حد بعيد ، ولم تتوفر في العراق والاردن والشمال الافريقي إلا بمقدار .

فمن حقك إذن ان تدع شيوخ الأدب يمضون على نحو من الانحاء فيما تركزت عليه ملكاتهم من الوان الفن ، لتلتفت الى ادباء الشباب فتطلب اليهم أن يقوموا بقسطهم من الواجب نحو البلاد العربية . وأحسب أنهم مؤدون الرسالة المفروضة على خير الوجوه ، لاكتمال الوعي الاجتماعي في نفوسهم ، والتزام الأدب الموجه تحت أقلامهم .

هؤلاء الشباب الموهوبون هم امامنا المرتجى وعدتنا في المستقبل . اما اعلام الأدب الشيوخ فحسبهم أنهم مهدوا الطريق وكانوا جسراً للعابرين . وحسبنا أنا قرأنا لهم فأفدنا واستمتعنا وكنا من الأوفياء الصادقين .

جواب الاستاذ عباس خضر

إنهم الآن لا يؤدون هذه الرسالة ، وقد أدوها في مقتبل حياتهم الأدبية على نحو لا عم عصرهم ، ونحن الآن من ثمرات جهودهم تلك ... وبعد ذلك جذبتهم مطامع الحياة ، فرغبوا في المناصب والاموال ، وخافوا فآثروا السلامة . ومن جهة أخرى تطور المجتمع ولم تتغير نظرتهم الى حياة الشعب إذ نشأوا وعقدوا على انهم لسان الطبقة المتوسطة المنطامنة الى الطبقة العالية ، العاطفة على الطبقات العاملة الكادحة عطف المتعالي لا عطف المشارك في الاحساس .

جواب الاستاذ سامي الكيالي

اريد ان أعتقد ان في سؤالك شيئاً من الابهام ، الا اذا اردت من رسالة الاديب ان تكون اداة سحرية تمس كل النواحي التي تتصل بواقع البلاد العربية وحاجاتها من سياسة الى اجتماع ، الى اقتصاد ، الى ثقافة الى ما شئت مما يكون هذا الواقع وتنبثق عنه حاجاته ، وانها ، كالصحافة سواء بسواء .

يخيل الي انك قصدت هذا . واذا كانوا قد ادوا رسالتهم بالامس فما الذي يحول دون ادائها اليوم ، اللهم الا اذا اعتقدت ان شعلة نشاطهم قد خمدت وان حاضرهم لم يعد امتداداً لماضيهم ... وما اظن ذلك ...

فمن ادباء الشيوخ ، كما تعلم ، صحفيون مناضلون قد قاموا بواجبهم نحو البلاد العربية على اكمل وجه ولا يزالون يؤدون هذه الرسالة ... ومن ادباء الشيوخ سياسيون وقادة وزعماء قد اتخذوا الادب وسيلتهم للتعبير عما تحسه الجماهير العربية في نضالها وكفاحها وتمردها على الظلم والطغيان ... وما زالوا يتابعون رسالتهم ... ومن الادباء الشيوخ خطباء وشعراء قد هزوا ضمير الامة العربية ضد العتاة والمستعمرين وما زالوا يخطبون ويقولون الشعر ... ولن ينسى الشباب قصائد الشعراء الشيوخ الذين لم يتركوا ظاهرة من ظواهر الحياة القومية الا عبروا عنها بجرأة وقوة ... وما نقوله عن الشعراء نقوله عن الادباء ، ولا سيما الذين قادوا حركة التجديد ، فقد سيروا الفكر العربي والادب العربي في نهج قويم سواء بما رسموه من خطط ، او بما ابدعوه من

ادب او بما انتجوه من رسائل وكتب - ان انتاجهم الادبي هو الذي مهد للكثير من التيارات والحركات والثورات والانقلابات التي شاهدتها البلاد العربية في ايامها الاخيرة . واذا لم يشارك بعضهم او اكثرهم ، اليوم في الحركات القومية مباشرة فان البذور التي بذروها هي التي انتجت هذه الحركات، وكما كان ادبهم بالامس خميرة هذه النهضات فأدبهم اليوم مرآة هذه الحركات .

وجوابي بعد هذا الاستطراد ، ان اعلام الادب الشيوخ ، ما زالوا كما كانوا بالامس يؤدون رسالتهم باطمئنان .

جواب الاستاذ شاكر خصباك

إن الجواب على مثل هذا السؤال بـ « نعم » أو « لا » ينطوي على اجحاف بحق طائفة من اولئك الادباء ، ولكن لما كان المطلوب حكما عاماً على اتجاه اغلبيتهم ، فلست اتردد في الاجابة بكلمة « لا » بكل ثقة واطمئنان وكل أسف وألم . فالشعوب العربية الآن تمر بطور عصيب تعاني فيه من الصراع بين الجديد والقديم ، من القلق المتغلغل في نفوس افرادها ، من الاتجاهات السياسية والاقتصادية المتضاربة التي تتجاذبها طوعاً او كرهاً ، من الجوع والمرض والحياة البائسة التافهة، من فساد الاجهزة الحكومية المسيطرة على شؤونها وعقم اساليبها . فكم فرداً من ادبائنا الكبار عكس في ادبه هذه الصور الصارخة ؟ ! لقد شهدت مصر وعشت فيها ردحاً من الزمن ، وكنت اتجول احياناً في احيائها القديمة وأزقتها الضيقة العفنة ، فأتطلع الى بيوتها الواطئة المتهدمة التي تنبعث منها روائح تتقزز منها النفس ، واتصفح وجوه سكانها الصفر واجسامهم الضامرة المعروقة،وأسائل نفسي في عجب : أين ادباء مصر من هذه المادة الدسمة لأدبهم، ولم ينصرفون عنها الى البحث عن الاساطير القديمة والمشاكل الفلسفية البالية والعقد النفسية المزعومة ؟ !

وما قلته عن مصر اقوله عن لبنان وأقوله عن سوريا واقوله عن العراق ايضاً ، وان كان ادباؤه الكبار ، على قلتهم ، قد حاولوا جهد إمكانهم تصوير حياته الاجتماعية بصدق واخلاص .

اننا ، للأسف الشديد لا نستطيع ان نفاخر بأدبنا الحديث ، لأن هذا الادب انفصل عن محوره الاصلي - الشعب - فتجرد بذلك من الروح . فما قيمة الجسد بدون روح ؟ بل انه للسبب عينه فشل في تكوين شخصية خاصة ذات سمات واضحة .

ولست أفهم لماذا لم يتخذ هؤلاء الادباء كتاب الغرب امثولة يحتذون بها.. اولئك الذين كان أدبهم دائماً مرآة تعكس حياة شعوبهم . وإذا لم يتطور أدبنا على أيدي أدباء الجيل الثاني ويرق لمثل تلك المرتبة فسيظل على حاله صفراً الى الشمال بين الآداب العالمية .

جواب الاستاذ محمد النقاش

نعم . ولا ضرورة لان اسلك بضع طرق لأعطي الجواب . فالجواب كامن في السؤال نفسه . ذلك ان للبلدان العربية اليوم كما في الامس ، وكما سيكون لها في الغد ، حاجات كثيرة يفرضها واقع الساعة . وليس من اديب يستحق هذا الاسم - فكيف اذا كان علماً من اعلام الادب - الا ويلبي حاجة او اكثر ، من هذه الحاجات . ولو لم يفعل ، لو لم يلق حجراً في الاساس ، لو لم يزد لبنة في البناء ، لو لم يسد ثغرة في السقف ، لو لم يفتح كوة في الجدار ، لو لم ينقر على وتر من اوتار مجتمعه ويرجع صدى من اصدائه ، لتجاهله المجتمع وتركه او رماه في الظل ... ولما عده اديباً بين الادباء ، ثم علماً من الاعلام .

حاجات البلدان العربية ... من يستطيع ان يحصر هذه الحاجات ؟ اننا نكاد نكون في حاجة الى كل شيء ، الى كل ما يحويه ويوحيه اي لون ناجح من الوان الادب : تربية الذوق الجمالي ؛ الارتفاع نحو مثالية عملية تفسح للمناقب مجال ان تتحقق ؛ واقعية طاهرة تسمح للقول الجميل ان يصاهر العمل الجميل ؛تحفز فكري هو نقطة الانطلاق نحو التحرر من الجهل والفقر والمرض و... الاستعمار اذا شئتم ؛ احياء لغوي يحفظ جوهر اللغة وعبقريتها مع دفعها الى الجماهير اداة سائغة للتعبير ؛ تحقيق او تبسيط علمي ؛ يؤلف بين العقل العربي الحديث وبين العلم الحديث الخ ... الخ ...

وليس من علم بين اعلام الادب الشيوخ ، الا ويؤدي قسطه في سد واحدة او اكثر من هذه الحاجات . فلنقر لهم بالفضل ولا نتجن عليهم ، لئلا نرمى بنكران الجميل .

قد يرى ادباء الشباب الى حاجات اكثر الحاحاً وقد يطلبون اختصار الطريق الى الاصلاح . وهذا طبيعي ، وهذا هو حقلهم فليثبوا فيه ولينهبوا الارض نهباً ! لكن ليس عليهم، وليس لهم ان يكرهوا الشيوخ على الوثب والنهب... ولا ان يلوموهم اذا تخلفوا عن الركب ، ولا ان يتخذوا من وقوفهم حجة للوقوف . ان حقل الشباب هو غير حقل الشيخوخة ، وان اسوأ ما ينتظر امة من الامم ان يركض شيوخها ويجمد شبانها .

جواب الاستاذ محمد توفيق حسين

واقع البلاد العربية اليوم هو واقع استعمار اجنبي ، وتأخر اجتماعي واقتصادي، وتخلف ثقافي وحضاري محزن . وقد تعاونت قوى الظلم الخارجية والداخلية على استعباد الشعوب العربية، وهدر كرامة الفرد العربي الانسانية، وسحق حرياته وحقوقه الاساسية ؛ حريته في اعتناق الرأي الذي يشاء ، وفي التعبير عن هذا الرأي ، وفي اقامة الحكومة التي يريد . وحقه في العمل والحياة الانسانية المطمئنة السعيدة . وتريد البلاد العربية ان تخرج من هذا الواقع المظلم لتتحرر من سيطرة الاجانب ، وليعيش فيها الشعب ، كل الشعب، حياة انسانية ، متحضرة ، آمنة . ورسالة الادب العربي اليوم هي نقد كل عوامل التأخر والظلم ، والارشاد الى طريق الخلاص منها ، وفك قيود الجهل والخرافات والخدر الفكري والاستكانة الذليلة عن عقول الجماهير . رسالة الادب الحديث ان يربي في نفوس القراء الحقد المقدس على كل العوامل التي تذل شعبهم .

والحق ان اعلام الادب الشيوخ لا يؤدون رساله الادب هذه . فما كان لمعظمهم رسالة وهم شباب ، ولقد اصبح معظم الذين كانوا في شبابهم ادباء متحررين، جامدين ، يسندون الواقع القائم ، رهبة من الحاكمين، او حرصا على مصالح اكتسبوها ، او فزعا من الوعي الشعبي الصاعد . الق نظرة على انتاجهم ترهم يعيشون في رومانتيكية القرن التاسع عشر ، او على مائدة التاريخ العربي القديم . وما تقوله عن الادباء الشيوخ يصح على معظم الادباء الشباب . فما زال معظمهم فرديين ، قابعين من ابراجهم العاجية ، غير مهتمين بآلام الشعب والبلاد . ولكن الادب الجديد ، ادب الشباب اصحاب الرسالة الاجتماعية الانسانية ينمو ، ويقوى نفوذه بين القراء ، وسيكون المستقبل له حتماً .

جواب الاستاذ محمد يوسف نجم

- هذا السؤال يحتاج الى تفصيل وتخصيص . فما الذي نعنيه بأعلام الادب الشيوخ ، ومن هم هؤلاء الاعلام ؟ ثم ، هل يفرض واقع المجتمع وحاجاته شيئا على الاديب ؟ ام ان الاديب ينتج نتاجه الانساني في حوض الحرية والمدالة ؟ وهل للاديب وظيفة اجتماعية معينة مشروطة ، ام انه يؤدي هذه



قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم
الدكتور شكري فيصل

تمضي « الآداب » نحو هذه الغايات التي تلمحها ، سواء في أدب القصة أو في أدب المقالة ، وسواء في هذا الشعر الغنائي او الدراسات العامة .. إن العدد الرابع مزيج متآلف من ذلك كله ، تعاورت صياغته هذه القصص المترجمة والمؤلفة ، قصص من واقعنا العربي ومن حياة الناس الانسانية في كل قطر ومصر .. وهذه المقالات والابحاث المختلفة حول موضوع أدبي او فكرة تاريخية .. وهذه الباقة الشعرية التي كانت تتوزع صفحاته في عبير حلو ونغم محبّب .. وتضامّت مع ذلك كله هذه الابواب المختلفة .. أبواب النشاط الثقافي في البلاد العربية والغربية ، والتعريف بالنتاج الجديد ، والاستفتاء حول نكسة الشعر .

والعدد بهذه المجموعات واسع الشمول ، ولكنه تخلّى عن جزء أضحى اساسياً في صميم ثقافتنا الأدبية أعني به هذه الحياة العلمية ، مقالاتها وانباءها ، في شيء من التبسيط الذي يحبب لهذا الجيل الناشىء ان يقبل على العلم ، فإن لم يقبل عليه دارساً له مستفيداً منه ، لم يقصر عن متابعته ولم يعش بعيداً في بيداء من الفكر ليس فيها إلا هذه الواحات المتناثرة هنا وهناك .

والواقع أنه ما من شيء آخر أحرى باهتمامنا في مجتمعنا العربي اليوم من هذه الثقافة العلمية .. وقد يبدو غريباً أن اقول ان هذا الواجب إنما يقع على الأدباء ، وان المجلة الأدبية – على الازمات التي تعانيها – هي وحدها التي تعيش في وسطنا القارىء ، وهي التي تحمل الى الجيل الجديد ثقافته وغذاءه ، وهي التي تحبب اليه هذا الاتجاه او ذاك .. ومقالة واحدة فيها قد تثير موهبة ، وقد تبعث اطلاعاً ، وقد تساعد على اتجاه .. وهي بهذا المعنى مسؤولة لا عن الحياة الادبية فحسب بل عن الحياة العلمية .. عن اشاعة روح العلم والاقبال عليه والايمان به كعنصر من عناصر الحياة .. مسؤولة عن ايقاظ المنطق العلمي في مناقشاتنا وافكارنا .. مسؤولة عن تصحيح مناهجنا واقامة مفاهيمنا .. وذلك كله لن يتأتى عن طريق المقالة او القصة او الشعر فحسب ، ولكنه في حاجة الى قدر مثل ذلك من العلم وانبائه ، وكشوفه وارتياداته ، والآفاق البعيدة التي يضرب فيها والخير الكثير الذي يعود على

الوظيفة دون ان يشعر ، عندما يعيننا على فهم الحياة والأنسان ، وعندما يضطلع بتفسير الغوامض وجلاء المعميات ، وبذلك يوسع تجاربنا ، ويشق لنا سبلاً جديدة ، وبذلك تتوالد حياتنا ، وتتضاعف لحظات الأشراق والاستمتاع فيها .

اذا وقفنا من هذه الاسئلة جميعاً ، موقفا انسانياً عادلاً ، وقسمنا الادباء الى مبدعين ، وباحثين ، استطعنا ان نقول ، مجيبين على هذا السؤال ، إن الادب الإبداعي ، لا يفرض على الأديب شيئاً ، غير عمق الاحساس وصدق التعبير . والأديب يؤدي رسالته كاملة اذا إستطاع أن يفهم الحياة فهماً صحيحا ، وأن يتمثلها تمثلا واعياً ، وأن يعبر عن تجاربه ، اثناء عمليتي الفهم والتمثل ، بامأنة وإخلاص .

اما الكاتب الباحث ، ومجاله البحث الطويل ، والمقالة ، فيختلف عن الأديب المبدع في طريقة التعبير ، عن احساسه وتجاربه ، وان اشتركا في تجشم التجارب وتمثلها . إذ عليه أن يسوق اختباراته في اسلوب واضح جلي ، لا يخلو من التوجيه الصريح والوعظ الواضح ، وبهذا يؤدي وظيفته الاجتماعية ، كما نفهمها في استعمالنا الشائع اليوم .

ثم نعود إلى شيوخ أدبنا الحديث ، فنقول ، انهم حاولوا ، مبدعين ، أن يعبروا عن تجاربهم التي انتزعوها من واقع حياتهم ، ووفق اكثرهم ، بقدر ما أعانته الموهبة ، وهذا حسبهم . وفي أدب البحث ، ورجاله من الشيوخ كثر ، نجد ان الأغراض الاجتماعية واضحة بينة ، قوية في أكثر الأحيان ، وهم في ذلك ، يتناولون وجوها مختلفة من المجتمع ، ويصورونها وقد يتخلف بعضهم عن الركب ، وقد يسبق البعض الآخر ، الا انهم في كل ذلك صادقون مع أنفسهم ، مخلصون لمجتمعهم . فمجتمعنا اليوم ، مجتمع غير موحد ، ولا منسجم ، وفيه جوانب متعددة ، والوان متباينة ، تعرض لها ادباء البحث كل من زاويته الخاصة ، التي تحددها له تجاربه واختباراته الخاصة .

ثم نستدرك ونقول ، هل هنالك في مجالي الابداع والبحث أدب خير من أدب الشيوخ الأعلام ؟ قد لا أكون مخطئا إذا قلت : نعم : فنحن على أبواب نهضة أدبية شاملة ، يضطلع بها الأدباء الشبان ، ولكن المسرح لايزال مشغولاً بالممثلين القدامى . وهم يقدمون ، آخر ما يقدمون ، للممثلين الشبان ، دروساً مفيدة ومواعظ قيمة . والشبان ذوو مواهب وطاقات ، والشيوخ ذوو حكمة وتجارب ، وبتوفر الموهبة وإحاطة الحكمة لها ، وحدبها عليها سنبلغ في أدبنا شأواً بعيداً .

أصحابه معه .

إننا نواجه الدنيا على فترة من الحياة اليقظة .. ومن أجل ذلك تزدحم دروبنا بالأعباء ، ولم نؤول بعد الى شيء من التخصص في حياة مجلاتنا الرزينة .. ولهذا أحب ان ألقي على عاتق مجلاتنا الادبية هذا الواجب الجديد .. وما أدري ما هو رأي المشرفين على هذه المجلة والمجلات الاخرى .. ولكني أعرف في هذه السلسلة من المقالات التي تنشر عن ادب الالتزام ان هناك إيماناً عميقاً بمهمة الأدب ، لا في نطاق الحياة الشعورية فحسب بل في نطاق الفكر اليقظ ايضاً .. وهل شيء آخر أدعى الى يقظة الفكر من هذه الاثارات العلمية التي تحفل بها الحياة الحاضرة في المجتمعات الكبرى .

من أجل هذا نريد المقالة العلمية والنبأ العلمي . ونعيذ المجلات الأدبية ان تلجأ الى ذلك على انه سبيل للتنويع والتلوين وزخرفة البضاعة التي تقدم الى القارىء ، فليس هذا بشيء ، وانما نريد ذلك جزءاً اساسياً صلباً في مقومات العمل الأدبي الذي يريد النهضة بالفكر العربي والنفس العربية .

فاذا كنا مع مجلة الآداب على صعيد واحد من الايمان بذلك ، كان لنا ان نضيف الى المجلة باباً جديداً يولي الحياة العلمية اهتمامه تعريفاً بها وكشفاً عن جديدها وصلة بين القارىء العربي وبين كل آفاق المعرفة . ومن المؤكد ان مثل هذا الباب ، حين تتخذ له أساليبه المبسطة واهدافه المشوقة ، ستكون له آثاره العميقة ، وهي آثار تلتقي مع رسالة الأدب بل تكاد تكون جزءاً منه من حيث هو إثارة وتوجيه وتسام وتفتيح آفاق في الأنفس والأكوان على حد سواء .

***

وبعد فهذا حديث عن المجلة في هذا العدد الرابع لعل هيئة التحرير اولى به .. فلنعد الى التفاصيل .

— ١ —

ان الاستاذ انور المعداوي يبدو دائماً ضعيف الثقة بقرائه قدر ما هو شديد الثقة بنفسه .. والذين يعرفون الاستاذ المعداوي عن بعد يعجبون به والذين يعرفونه عن قرب يزدادون به إعجاباً .. انه يعيش « الرأي » الذي يفكر به بكل كيانه ، يملأ نفسه واحاديثه ، ومجلسه وسمره ، وسبحاته وتأملاته ... حتى إذا جاء يكتب ، كتب كل شيء واندفع في كل ركن .. وانتقل بك من الموضوع الذي يحدثك عنه الى تاريخ هذا الموضوع وإلى مستقبله كذلك .. ثم لا يكتفي ولكنه يحدثك عما حول الموضوع .. فما أكثر ما يحب ان يؤكد آراءه في الفن ، وجوهر هذا الفن ، وكيف يجب أن يكون ، والشرائط التي لا بد له منها ... عن الوجود الداخلي والخارجي ، عن الكون والنفس ، عن العقل والشعور ، عن اللقطة العقلية واللقطة النفسية .. إن صديقنا المعداوي لا يزال يصر على هذا الذي بدأه منذ بدأ أحاديثه الشيقة الممتعة في «الرسالة» حتى اليوم ... وهو محق في ذلك لأنه يرى إنه يؤصل لهذه المفاهيم الأدبية التي يعتنقها والتي يدعو اليها في حماسة الخطيب واندفاعة المؤمن وطريقة المدرس .. ولولا اننا نعرف الاستاذ المعداوي لقلنا انه يعاني التدريس .. ولكن بين المعداوي وبين التدريس من المدى البعيد ما كره اليه حتى ان يجلس إلى الاساتذة ، لأنه آثر ان يجلس لنفسه وإلى توقده وإلى مطالعاته .

وأحسب ان الرأي في أنوثة مي لا يزال في حاجة إلى كثير .. إن منطق الكاتب واندفاعه لم يكن لهما القدرة على أن ينساقا بنا هذا الانسياق البعيد .. ويبدو لي ان هذا الموضوع حري ان يُتناول تناولاً آخر بعد تناول الاستاذ المعداوي ، إن تتناوله إحدى الدارسات والباحثات من جنس مي ... فلعل الأنثى ان تكون أقدر على فهم الانثى واستبطاناً لعالمها المرهق .

ولست أحب ، سلفاً ، أن أخوض نقاشاً مع الاستاذ انور على شوقي لكل إخواننا في مصر ، في هذا الموضوع .. ولا أحسب ان القراء يحبون ذلك .. اننا في حاجة الى يد اخرى تقلب الموضوع وتتفحصه .. وقد تتصافح هذه اليد في نتائجها مع يد صديقنا وقد تهدي اليه وإلى القراء جديداً .

— ٢ —

والاستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري ، هذا الباحث المتأني ، جدير ان يتلقى إعجاب قرائه وتحيات إخوانه الذين يلتقون معه على الايمان بقوميتهم العربية .. إن ثقافته التاريخية العميقة ، ونظرته البصيرة المتأملة ، ونفسيته المرهفة ، كل اولئك يلقي عليه عبئاً كبيراً في نطاق هذه الحياة القومية .. ولن تغني هذه الجزئيات — على الحرص الذي يبدو في الربط بينها — عن اعفائه من عمل أكمل وأتم في هذا الموضوع .. إن النقلة التي تعانيها البلاد العربية من الماضي إلى المستقبل لا بد فيها من عمل هؤلاء الذين عرفوا الماضي وأدركوا الحاضر واستشرفوا المستقبل ، ولا بد

رباعيات جديدة

ما اضعف الارشادَ كلٌّ عتاده كلماتُ وعظٍ لا تصيب منالا
فاذا أردت الماكرين على الهدى فانصح، ولكن لا تكن محتالا
لم يحفظ التاريخُ قولةَ مصلح حتى تأكد صدقَها أفعالا
هيهات يقنعني وان يك بيّناً ما قيل الا ان ارى من قالا

تذمّرٌ من صرف الزمان تحدراً الى ما يلاقي من عوارض نحسه
وكيف يصيب الرغد والسعد حاسد تتيه به البغضاءُ في قفر يأسه
يريد من الناس السخاء تبرعاً باموالهم وهو الضنين بفلسه
اخفُّ العمى ان لا يرى المرء غيره واصعبه ان لا يرى غيرَ نفسه

حمّلت قلبك ما في الحقد من نصب فبات عقلكَ بالظلماء مشتملا
وعشت وحدك في دنيا مهدمةٍ تكابد الغمَّ والحرمان والفشلا
الذنب ذنبك فانظر - فالحياة لها وجهٌ جميل - ووجه يبعث الوجلا
والناس انت تراهم، حين تبغضهم ابالسا، واذا احببتهم رسلا

جرّدْ سبيل الناس من نكباته تغدُ الحياةُ من الفتور جهنما
ولربما رام الزمان لك الاذى فقضى عليك بان تعيش منعما
ومتى رمتك الحادثاتُ عبوسةً بنبالها، فاضحكْ لها متهكما
ما في بكائك ان فرحت بطولة ان البطولة ان تضام وتبسما

خاب الرجا فيكم وكان شبابكم املَ البلاد تحوطه الدعواتُ
يا ذائبين من الميوعة انكم في دربها نحو العلى عقبات
اياكم تحت الفجور يسوقها سوطُ البلى وعتادكم مرآة
يتبختر الطاووس في اثوابكم ونفوسُكم في ذلها حشرات

بونس ايريس **الياس قنصل**

فيها من عملهم جاداً دائباً حتى يستصفوا ويستخلصوا ويبدعوا .

وتلك هي المهمة الكلية التي تطالعنا دائماً وراء اسم الدكتور الدوري واخوانه .

— ٣ —

وأجوبة الاستفتاء عن الشعر المعاصر كانت مجموعة طريفة نظر فيها كل كاتب من نحوٍ، هو النحو الذي رسب في ذهنه عن هذا الشعر لا النحو الذي أراد الاستفتاء أن يثيره.. وأظن ان القراء جميعاً مشتركون في انهم خرجوا من هذه المشكلة بمشكلات جديدة .. إنهم لم ينتهوا — في اكثر الذي كتب — إلى رأي أو ما يشبه الرأي، محدد مضبوط.. ولكنهم أضافوا عشرات الاسئلة الاخرى، وقفز الى ذهنهم هذا الشعر : ماضيه وحاضره ومستقبله، فنونه وأنواعه المختلفة .

ولعل ذلك عائدٌ الى طبيعة الاستفتاء الذي يقصد إلى الاثارة باكثر مما يقصد الى التحديد والتقييد .

وليس بعد هذا الاستفتاء من سبيل الى الحديث عن الشعر الذي نشر في العدد الرابع .. انه في تلونه وتفرعه واختلافه هو هو في تنوع الاجابات واختلافها .

— ٤ —

ويكتب الاستاذ حسين مروة باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » بعد ان يحدّد النظر في العدد الثالث . ولكنه ينظر دائماً من وجه واحد .. ان ملاحظاته الدقيقة ملاحظات حيسوب ماهر يستفيد من فاتحة المجلة ليأخذ بها كتاب المجلة جميعا .. في شيء كثير من العنف ومن الاصرار .. لا يشفع عنده شيء .. لأن الادب عنده لون واحد، والفكر كما يبدو كذلك فكر واحد .. ان تعليقاته النافذة السريعة تنزع عن قوس معينة لترمي كل الاهداف الأخرى . وفي هذه التعليقات السريعة القصيرة تجد حلول كل المشكلات التي تملأ ذهن الانسان والتي يعالجها، تجد حلول كل القضايا الانسانية والقومية والفنية واللغوية .. انها حدّة الاستاذ مروة وتوثبه .

— ٥ —

ولست اجد مجالاً للحديث عن القصص .. إن قصة الاستاذ شوقي بغدادي تقف على الطرف الآخر من قصة الاستاذ مهدي عيسى الصقر .. والقصتان معاً دفعٌ نحو الثقة بمستقبل القصة العربية في مختلف اتجاهاتها .

ولن أنسى ان اشدّ على يدي الاستاذ عبدالله عبد الدائم في حديثه في فاتحة العدد عن رسالة الادب واثرها في نهضتنا القومية. وقرابة ما بيني وبين الدكتور ادريس تمنعني من الثناء على بحثه القيم عن القصة العراقية، هذا البحث الذي يقوم على جهد وتتبع بعيدين .

دمشق **شكري فيصل**

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

لمراسل « الاداب » الخاص

١ . معرضان فنيان هامان

تشهد باريس الآن – في متحف الفنون الحديثة – معرضين تفصل بينهما ٤٠ الف سنة من الزمن ، ولكنها اقرب ما يمكن ان يكون معرضان. فالأول – المخصص لما قبل التاريخ – يصور بدء الفن البشري ، والثاني – استعراض الفن التكعيبي – يحوي آخر حلقة في سلسلة التطور الفني .

ولم يكن في المستطاع اقامة المعرض الاول لولا جهود طلاب مدرسة الفنون الجميلة الذين نقلوا عن اصولها آثار الفن البدائي ، التي تملأ جوانب المغاور والتلال في فرنسا واسبانيا وافريقيا وغيرها .

ويرى الزائر ان الرسم والتصوير يختلفان في اساليبها وحيويتها باختلاف المناطق التي ازدهر فيها الفن البدائي ، وان كانت كل صور الفن تحمل طابعاً مشتركاً ، هو طابع الحياة الفطرية القائمة على كسب العيش في عالم حافل بالحيوانات الوحشية ، فجاءت التصاوير والتزاويق تدور حول الصيد والقنص والمطر والشمس وغيرها من مقومات حياة الانسان الاول .

وأول ما صنع الانسان في ميدان الفن لا يخرج عن جداول خطها باصبعه على الصلصال ، او احجار رأى فيها شبهاً بما يشاهده في حياته اليومية فعالجها بفأسه الصوانية ، محاولا ان يجعل منها تمثالا بدائياً . ثم تطور الفنان فأخذ يرسم الثيران والغزلان وغيرها ، فيأتي بالرائع من حسن التقاط الحركة والتوثب ، فاذا حيواناته ما تزال تنتفض في قفزها وركضها ، والوانه حية براقة على مر آلاف السنين .

ولم يعتم الفنان الاول ان انتقل من الفن التمثيلي الواقعي الى الفن الرمزي ، فتطور الثور الى رمز عن الثور يستخدم كتعويذة لجلب الصيد العميم الى القبيلة مثلا .

وتدل الابحاث التي جرت مؤخراً على ان الفن شاهد النور منذ ٤٠,٠٠٠ عام في المنطقة الواقعة بين جنوب فرنسا وشمالي اسبانيا ، وما عتم ان تبعه فن آخر يسود عليه طابع النور ، في شرقي اسبانيا . ثم ظهر الفن وازدهر في قلب صحراء افريقيا التي كانت خصبة مروية وعلى صخور افريقيا الجنوبية ، وفي اقاصي سكاندينافيا .

وقد ذهب هذا الفن بتغير الطقس في اوربا على اثر ذوبان الجليد الذي كان يغطي معظمها ولكن آثاره ما زالت باقية في المغاور ، وما زالت تقاليده حية في بعض ادغال افريقيا الجنوبية بين شعوب « البوشمان » .

٢ . استعراض للفن التكعيبي

اتى زمن – قبل الحرب العالمية الاولى وبعيد الحرب العالمية الثانية – كان فيه الفن التكعيبي موضع جدل حامي الوطيس ، انقسم فيه نقاد التصوير وارباب معسكرين كل يناضل عن افكاره . اما الآن فقد اصبح اكثر التكعيبين شيوخا من اساطين التصوير وملأت لوحاتهم متاحف العالم واصبحت لا تقدر بثمن .

ومن الممكن ان يناقش المرء في قيمة هذا المذهب في التصوير وصحته – ولكن ذلك لن يغير من الواقع شيئا ، وهو ان التكعيبية دخلت في التاريخ واحتلت مكانها فيه ، كأي مدرسة تصويرية اخرى .

وقد جاءت التكعيبية نتيجة ثورة بعض الفنانين الشبان – مثل (بيكاسو Picasso) و(براك Braque) و (غريس Gris) و(دران Derain) و (متزنغر Metzinger) وغيرهم – حوالي عام ١٩٠٨ على المدرسة الانطباعية Impressionnisme التي كانت تغرق في تصوير الواقع في دقائقه ، فتبعد عن الواقع وتعطي صورة مشوهة عنه .

فالتكعيبية اذاً – في جوهرها – محاولة لتصوير واقع الاشياء تصويراً اصدق مما تأتي به الانطباعية . والنظرية في حد ذاتها معقولة ولكن تطبيقها ألقي الى جمهرة من الشباب المندفعين ، فطبعها كل منهم بطابعه الخاص .

وتطورت النظرية ، فلم يعد اصحابها يرضون بتصوير الواقع . بل حاولوا ان يخلقوا الاشياء من جديد ، ويصوروا واقعها كما يرونه على ضوء تأملاتهم التي كانت مزيجا من الفلسفة والشعر والرياضيات والتصوير !!

ولذا جاء انتاجهم مختلفاً جد الاختلاف في فترة واخرى ولدى شخص وآخر.

والمعرض الذي نحن بصدده يقدم لنا استعراضا للفن التكعيبي منذ عام ١٩٠٨ – ١٩٠٨ حتى يومنا هذا ، ويعطينا صورة واضحة عن مدى نجاح التكعيبية في تحريرها التصوير من ربقة الانطباعية ، وفشلها في ان تستمر في تطورها اذ قضي عليها بالتوقف لدى حد شأنها في ذلك شأن كل المدارس الفنية.

٣ . عام رابليه Rabelais

قررت الحكومة الفرنسية ان يكون هذا العام (١٩٥٣) وقفا على تخليد ذكرى رابليه Rabelais الذي ولد في ١٤٩٠ او ١٤٦٥ وتوفي في ١٥٥٣ . وقد عاش رابليه حياة ملؤها المغامرات والبحث عن المعرفة ، فكان راهبا ثم طبيبا واخيراً كاتبا ، وهذا ما خلد اسمه في الادب الفرنسي والعالمي .

وقد ألف رابليه كتابي Gargantua و Pantagruel ، وهما قصتا شخصين خرافيين ، ضخمي الجثة الى حد كبير ، نهمين شرهين ، يحيط بها بلاط من الشخصيات الطريفة. وقد نجح رابليه في كتابيه وخاصة في بانتاغرويل في رسم صورة جد حية عن عصره ، ونقد المؤسسات والمجتمع والدين والعلم في اسلوب فكاهي فنجا من غضب الكنيسة والملك .

وقد حاول اساتذة السوربون – وهي آنذاك مؤسسة طويلة اليد منيعة الجانب – ان يلاحقوا رابليه لما راشه ضدهم من سهام النقد المرير ، ولكن ما كان يتمتع به الكاتب من حماية لدى كبار رجال العصر جعله في نجوة عن غضب الجامعة ورجالها .

٤ . عود الى الادب الافريقي

في مقال سابق ، تحدثنا عن كتاب محمد ديب الذي صدر في اللغة الفرنسية بعنوان « البيت الكبير » . وقد نال هذا الكتاب اخيراً جائزة Fénélon

الكبيرة وقدرها ٢٥٠ الفا من الفرنكات . وقد ولد محمد ديب عام ١٩٢٠ في تلمسان ، وعاش حياة قلقة تمرس خلالها باكثر المهن ، فعمل صانعا للسجاد وحاسبا ، ومعلما وصحفيا . وهو يساهم الآن في المجلات الفرنسية الصادرة في الجزائر ، وكتابه « البيت الكبير » اول ثلاثة اجزاء تصدر تحت عنوان « الجزائر » . وينتهي محمد ديب من تأليف الجزء الثاني الذي سيحمل عنوان « الحريق » .

وتهتم دور النشر في باريس كثيراً بالأدب الافريقي ، وسيصدر قريبا ، في مجموعة « البحر المتوسط » كتاب جديد باسم « الارض والدم » بقلم مولود فرعون ، يصف فيه الكاتب احوال العيش التي يعانيها العمال الجزائريون في فرنسا .

ومن المنتظر ان تعمل دار النشر Plon على اصدار مجموعة روائية اسلامية .

٥ . مولود معمّري في باريس

وسبق وتحدثنا عن الكاتب مولود معمري الذي حصلت روايته « التل المهجور » على جائزة فينا Fémina . وقد كلت روايته اخيراً من واحة بسكرة Biskra بجائزة ادبية هي جائزة اللجان الاربع Prix des Quatre Jurys .

والاستاذ معمري يزاول تعليم الادب في كلية بن عقنون في مدينة الجزائر ، وقد جاء باريس مؤخراً في فرصة المرافع ، واقام ناشرو (Plon) حفلة تعرف فيها ادباء باريس على هذا الوجه الجديد في عالم الرواية .

السّويد

قضية الكتاب

لم تتعود السويد المنازعات الادبية : وليس ذلك لأن السويديين لا يتناقشون في الادب ، وانما لأن قضية الكتاب هي في نظر السويدي قضية اجتماعية واقتصادية وحتى سياسية .

ولأسباب سياسية اولاً ، تدعمها اسباب اجتماعية وتجارية ، تألفت منذ حين لجنة حكومية عهد اليها درس وضع دور النشر بالاضافة الى اسعار الكتب وارباح المكتبات ومصادر عائدات المؤلفين ، ووضع الكتاب في حياة البلاد .

وقد ظهرت نتيجة هذا التحقيق الذي لم يتناول القيمة الادبية للمؤلفين على شكل تقرير يقع في ثلاثمئة صفحة تقوم اهميته على انه يعرض لوحة مفصلة عن الدور الاجتماعي للكتاب في حياة السويد . وقد كانت نقطة الانطلاق في التحقيق معرفة ما اذا كان من الممكن تأميم الطباعة والمكتبة في السويد او انشاء دار للطباعة تنفق عليها الحكومة وتراقبها وتنافس بها دور النشر الخاصة . وتساعد على تحسين النتاج الادبي وتخفيض اسعار الكتب .

وتنم النتائج التي انتهى اليها التقرير عن نزاهة اللجنة وعدم تعرضها ، فأنها تجيب نفياً على السؤالين اللذين طرحتها الحكومة . فهي لا توصي بتأميم الكتاب ولا بمنافسة الدولة لدور النشر الخاصة . ويصرح التقرير بان تدخل الدولة لا مبرر له الا اذا باتت الدور عاجزة عن المحافظة على المستوى الادبي القائم حتى الآن في السويد .

على ان المحققين قد درسوا القضية من جميع زواياها ليبلغوا هذه النتيجة . فلاحظوا اول الامر ان مهنة الكاتب ليست اوفر ربحاً في السويد منها في اي بلد آخر . وقد قدم مئة وثلاثة وثلاثون كاتباً سويدياً شهادات مفصلة اشاروا فيها الى ان الكاتب السويدي يجد مشقة كبيرة في العيش من قلمه وحده ، باستثناء ثلاثين كاتباً منهم يستطيعون ان يعيشوا مما يكتبون بصورة مناسبة .

ولكن ينبغي الا يستنتج من ذلك ان اصحاب المطابع والمكتبات في السويد يحققون ارباحاً فاحشة على حساب المؤلفين . فان ارباحهم تصبح معتدلة بعد ما يفرض عليها من ضرائب ونفقات انتاج وتوزيع : وهم لهذا لا يستطيعون تبرير تدخل الدولة التي تدرك الآن من جهتها ان القيام بمشروع التأميم لدوافع ايديولوجية او طلباً للربح يعني القيام بمغامرة ربما كلفت الخزينة شيئاً كثيراً .

ويقترح التقرير اقتراحين جديرين بالتقدير حول قضيتين عمليتين : اولاهما تتناول الفائدة التي يمكن للمؤلفين ان يجنوها من اعارة الكتب في المكتبات العامة . ففي السويد يعار كل عام اكثر من سبعة وعشرين مليون كتاب من المكتبات دون ان يفيد المؤلفون منها اية فائدة . وقد لاحظ المحققون انه اذا فرض ولو مبلغ ضئيل جداً على كل كتاب يعار ، فمن الممكن تحصيل مبلغ ضخم يقدم نصفه مباشرة الى المؤلفين بنسبة عدد الكتب المعارة ، ويستعمل النصف الباقي ، وهو ما يتجمع من اعارة الكتب المترجمة والمؤلفات القديمة على شكل منح ومساعدات للكتاب السويديين .

والمسألة الثانية التي تقدم اللجنة اقتراحاً عملياً بشأنها تتعلق بالضرائب التي تفرضها الدولة على مختلف المؤسسات والجوائز الادبية . فترى اللجنة ان الخزينة تتقاضى هذه الضرائب بصورة غير عادلة ، وان من الضروري تعديل القانون بشأنها .

وقد اثبتت دراسة مفصلة للعائدات السويدية ، قامت في جزء منها على تحقيق مؤسسة غالوب في السويد ، ان واحداً بالمئة من عائدات البلاد الوطنية ناتج عن الكتب والصحف والمجلات . وسوق الشعر تكاد تكون كاسدة في السويد ، بعكس سوق القصص والروايات . فقد صدر عام ١٩٤٨ ، وهو عام نموذجي لانتاج الكتب ، مئة وتسع وستون رواية كتبها كتاب سويديون وثلاثمئة اخرى ترجمت عن مؤلفين اجانب .

ولاحظت اللجنة ، بشأن قضية المنح التي تعطى للادباء وغالباً ما تؤمن لهم حياتهم ، ان مبلغ خمسة ملايين كورون قد منحت للكتاب السويديين منذ عام ١٨٩٠ (وهذا ما يعادل ٣٥ مليون ليرة لبنانية) وقد حصل بعض المؤلفين غير المشهورين في الخارج على اكثر من خمسين منحة ، وحصل احدهم على ١٩٧ الف كورون ، وآخر على ١٣٤ الفاً . وقد حصل الكاتب بار لاجركفيست ، الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٥١ ومقدارها ١٧٠ الف كورون ، على منح تبلغ قيمتها قبل عام ١٩٥٠ حوالي مئة الف كورون ، وتجمع بين يدي اوغست ستريندبرغ عام ١٩٠٩ بمناسبة بلوغه الستين من عمره مبلغ كبير من المال على اثر اكتتاب أجري على شرفه .

النشاط الثقافي في العالم العربي

سوريا

الحياة الأدبية

لمراسل « الآداب » الخاص

أين تتسرب القوى الأدبية في سورية وما هي المظاهر التي تبدو فيها ؟ ... كيف ينفق الأدباء نشاطهم الأدبي واين يلتقى المتذوقون للأدب والمتأدبون على الاستمتاع بهـذا النتاج والتعرف اليه ؟ ... أين نرصد الحياة الأدبية الحاضرة في سورية ؟

لقد تحدثت « الآداب » في عدد مضى (انظر العدد الاول كانون الثاني ١٩٥٣) عن الحياة الفنية ، وعرضت ، في كثير من الايجاز ، خطوطها الكبرى ... وحين نحاول اليوم مثل هذا الحديث في الحياة الادبية تبدو لنا ظاهرة واضحة تتمثل في امرين اثنين : احدهما « جزئية » النتاج الادبي . والثاني : انسراب هذا النتاج في النوادي الفنية وتوزعه بينها واعتماده عليها .

— ١ —

أما عن جزئية النتاج فذلك اننا لا نجد فيا بين ايدينا من النتاج في الحياة الأدبية « الكتاب » الذي يمثل الدراسة الكاملة والجهد المتصل ... ولكننا نجد « المحاضرة » التي تمثل هذه الملاحظ المتفرقة او تومىء إلى العناية بجانب من جوانب الموضوع ، او تدل على العرض السريع للموضوع الكامل ... إن « الكتاب » لا يبدو في النتاج الادبي إلا بين الحين والحين على فترات من الزمن وعلى كثير من الاستحياء ... ولكن المحاضرة هي التي تملأ جوانب الحياة الادبية ، وبها تتمثل هذه الحياة .

على إن المحاضرة من الكتاب بمنزلة النواة ... في جرمها الاصغر ينطوي جرمه الاكبر ، ومن خـلال عرضها السريع تطل آفاق بعيدة للدارس والسامع ... غير ان هذه المحـاضرة بهذا المعنى ليست هي التي تشغل المسرح الادبي وانما اضحى يزاحمها هذا الشيء الجديد الذي نسميه « الحديث » ... وهكذا تضيق حلقات السلسلة كلما تقدم الزمن ، وتضمر الساق كلما استطالت. ونغادر الكتاب الى المحاضرة ، ونمضي فنغادر المحاضرة الى الحديث .

ترى ما وراء ذلك وما دلالته ؟ ... لم يغيب الكتاب السوري ؟ اتمتص الجامعة جهد الادباء والاساتذة ؟ أيستنفد التدريس كل قوى هذا الجيل من المجازين الجامعيين ؟ ما صلة ذلك بالحياة الاقتصادية والحصار الذي تضربه وسائل المواصلات حـول دمشق ؟ وهل لا يزال الأثر النفسي الذي خلفته الحياة السياسية بعـد فلسطين يسيطر على الحياة الداخلية لهؤلاء الأدباء والدارسين للأدب ؟ !... ولم لم يظهر هذا الاثر النفسي في الحياة الادبية عملا ايجابياً على هذه الصورة او تلك ؟

ليس يتسع هذا الحيز لهذه المعالجة فنحن هنا في مقام الاشارة السريعة الى هذه الظواهر المختلفة .

— ٢ —

وأما عن انسراب هـذا النتاج في النوادي الفنية فذلك ان كل نشاطنا الادبي في سورية في هذه الفترة ، يظهر « ضيفاً » على النوادي الفنية ...وفي هذه النوادي يجد متنفسه ... إن المحاضرة والحديث والقصيدة لا تجد لها المجلة ولا النادي ولا القاعة ولكنك تستمع اليها في هذا النادي اوذاك من نوادي الفنون الجميلة الاخرى .

ان النشاط الادبي ، بهاتين الظاهرتين ، تتوزعه محاضرات الجامعة السورية من نحو ، ونشاط النوادي والجمعيات المختلفة من نحو آخر .

محاضرات الجامعة

أما محاضرات الجامعة السورية فهي صورة عن نشاط أساتذة الجامعة . وقد تحدثت « الآداب » في عددها الثالث عن المحاضرات الاربع الاولى.

وقد كانت المحاضرة الخامسة للدكتور نور الدين حاطوم استاذ التاريخ في كلية الآداب بعنوان « عبرة التاريخ » .

والقى المحاضرة السادسة الدكتور امجد طرابلسي استاذ الأدب العربي في كلية الآداب بعنوان « تضامن الفنون » .

والقى المحاضرة السابعة الاستاذ الزائر « أندريه مـاري لويس بران » استاذ الحقوق المدنية في كلية الحقوق بجامعة ليون في موضوع « الاتجاهات الحديثة في تشريع العمل » .

وكانت المحـاضرة الثامنة من نصيب الدراسات الحقوقية ايضاً. فقد تحدث الدكتور أسعد محاسن الاستاذ في كلية الحقوق عن « الحد من سلطان الارادة باعتباره مصدراً للالتزام » .

وأما المحاضرة التاسعة فقد كانت للاستاذ الزائر فوفيل لوك دانيال استاذ الاقتصاد السياسي في كلية الحقوق بجامعة ليل عن « مستقبل التبادل التجاري بين البلاد الزراعية والبلاد الصناعية » .

والقى المحاضرة العاشرة الاستاذ جورج شهلا رئيس دائرة التربية في الجامعة الاميركية في بيروت عن « التربية الخلقية عند العرب » .

النوادي والجمعيات

وتبدو الحياة الأدبية في مظهر آخر ، تبدو في هذه النوادي والجمعيات المختلفة :

١ — حلقة الزهراء من جمعية الرابطة الثقافية النسائية
٢ — الندوة الثقافية النسائية
٣ — مجمع اصدقاء الفنون
٤ — جمعية الفنون السورية
٥ — النادي العربي

حلقة الزهراء

تعقد الحلقة اجتماعاتها في السادس عشر من كل شهر ، ويلتقي المدعوون ، وهم عـدد قليل محدود ، على شكل حلقة يستمعون الى حديث نثري والى منتخبات شعرية ، والى شيء من التعليق والمناقشة حـول ما يثير الحديث من موضوعات وجدل .

وقد كان اول احاديث الحلقة هذا العام حديث القاه الدكتور عمر فروخ بعنوان « التربية التاريخية وأثرها في اصلاح المجتمع » .

ثم تتابعت بعد ذلك احاديث الدكتور سليم عادل مدير الآثار العـام عن « كيف يجب ان نحمي طبيعتنا » والدكتور سامي الدهان عن « حب على ضفاف العاصي » والاستاذة بديعة الاورفلي والسيدة القاصة الفة ادلبي «قصة»، ومختارات من شعر الاساتذة : ابو سلمى (عبد الغني الكرمي) وعدنان مردم بك ونذير عظمه .

النشاط الثقافي في العالم العربي

الندوة الثقافية النسائية

وافتتحت الندوة موسمها الادبي بمحاضرة للدكتور كاظم الداغستاني بعنوان « صورتان من الماضي » صورة للملكة ماري استيوارت وصورة اخرى للملكة ماري اليزابيت . وكان يهدف الى ان يقارن بين امرأة ملكت فمضت حيث أرادت لها عواطفها وانطلقت مع هذه العواطف لم تحل بينها وبين ان تتحقق وان تستعلي ففقدت العرش وخسرت التاج وماتت مقتولة وقد خسرت عطف الرأي العام وحبه — وامرأة اخرى كانت اكثر اتزاناً واشد هدوءاً... ملكت فلم تترك لعواطفها ان تملكها ... حدت منها وكبتت اندفاعاتها وقدمت في ذاتها الملكة على المرأة ورعت حق شعبها وبلادها وقفزت بوطنها الى الامام ، فكسبت التاج والناس جميعاً .

وتتابع على منبر الندوة في الاجتماع الثاني الدكتور ابراهيم كيلاني في محاضرة عن « شارلوت برونتي » الكاتبة الانكليزية عرف بها وعرض لمختارات من أدبها — والسيدة عزيزة هارون (اللاذقية) في مختارات من شعرها .

وألقى في الاجتماع الثالث الدكتور فاخر عاقل محاضرة عن الوراثة .

وكانت آخر جلسات الندوة هذه الجلسة التي توزعها العلم والادب : كان في الركن العلمي الاستاذ وجيه السمان في « جولة في عالم البعد الرابع » وكان في الركن الادبي السيدة الفة ادلبي في احدى قصصها اللطيفة .

مجمع اصدقاء الفنون

ويبدو مجمع اصدقاء الفنون هذا العام اكثر هذه الجماعات نشاطاً وتلوناً لهذا النشاط ... فهو يقيم في كل شهر سلسلة من الاجتماعات وحفلات السمر الموسيقية والغنائية الشرقية والكلاسيكية الغربية ويدعو قسمه الثقافي الى اجتماعين دوريين في كل شهر ويختار لكل اجتماع محدثاً وشاعراً او قاصاً .

وقد كان في اول اجتماعات هذا العام محاضرة للاستاذ شاكر مصطفى في موضوع « نحو ادب جديد » ومختارات شعرية للدكتور بديع حقي . ثم كانت بعد الاجتماعات التالية :

الاجتماع الثاني : الاستاذ نجاة قصاب حسن في موضوع (في الفن) والاستاذ مدحة عكاش في مختارات شعرية .

الاجتماع الثالث : الاستاذ احمد الجندي في موضوع (مشكلة الشعر العربي الحديث) والاستاذ نديم محمد في مختارات شعرية .

الاجتماع الرابع : الدكتور نور الدين حاطوم في موضوع (في الحضارة الحديثة) والاستاذ ابو سلمى في مختارات شعرية .

الاجتماع الخامس : الاستاذ بديع الكسم في موضوع (الفلسفة والحياة) والاستاذ كمال فوزي في مختارات شعرية .

الاجتماع السادس : الآنسة هدى حنا في موضوع (ام وامة) والاستاذ منير سليمان في (القصة بين الواقع والخيال) .

الاجتماع السابع : الدكتور سامي الدهان في موضوع (شاعر الغوطة) والاستاذ عدنان مردم بك في منتخبات شعرية .

الاجتماع الثامن : الاستاذ زكي الارسوزي في موضوع (فلسفة العرب مستمدة من لغتهم) والآنسة عارفة سلوم في احدى قصصها .

الاجتماع التاسع : الدكتور فاخر عاقل في موضوع (مدنيتنا بين علوم الطبيعة وعلوم الانسان) والسيدة انعام الجلاد الحلبي في موضوع (التلقين والوراثة)

الاجتماع العاشر : الدكتور صبيح الجزار في موضوع (مشاهدات في أمريكا مع عرض سينمائي خاص) والدكتور بديع حقي في إحدى قصصه .

جمعية الفنون السورية

ولجمعية الفنون السورية نشاطها ذو الشعب الثلاث : الرسم والموسيقى والمحاضرات . ففي الرسم اقامت بعض المعارض : معرض الفنان اليوغسلافي بوشوشه ، والفنان السوري محمود جلال .

وفي الموسيقى تعقد بعض الجلسات وتقدم بعض العازفين وتعرف ببعض اعلام الموسيقى . اما في المحاضرات فقد حاضر الاستاذ شاكر مصطفى في موضوع الانسان والحضارة الحديثة — والدكتور نظيم الموصلي في الادب الحديث والاستاذة ليلى صباغ في اديبة رومانتيكية « شارلوت برونتي » .

النادي العربي

والنادي العربي أضحى يولي النشاط الفني كذلك عناية خاصة وقد تمثل هذا النشاط في بعض المعارض (معرض رسوم الاستاذ عسلي) وفي بعض المحاضرات والمناظرات .

هذه هي الحياة الادبية في مظاهرها المختلفة ... ونحن في غنى ، بعد هذا العرض ، أن نذهب نعلق او نفسر ... ان الادب في سورية لا يحيا حياته « الكلية » ولا حياته « المستقلة » ... انها ظاهرة خطيرة جديرة ان تلفت الادباء ورجال الفكر المهتمين به ، وان تلفت الدولة قبل ان تلفت الادباء والمفكرين ... فعند الدولة من وسائل التشجيع واطلاق القوى الكامنة ما ليس عند غيرها .

المطبوعات

في نتاج المطبعة السورية او المؤلفين السوريين في هذه الفترة القريبة :

- الوجيز في تحليل المياه الدكتور راتب محلجي
- تربية الولد الدكتور حمدي محلجي
- حرمان (مجموعة قصص) السيدة سلمى الحفار (ومقدمة للاستاذ شفيق جبري)
- شعر النبط جمع الاستاذ محمد بن الفرج
- خيار ما يلتقط من شعر النبط
- العدد الثاني والثالث من كتاب الشهر الذي تصدره مجلة الدنيا .

ولكن ابرز ما في نتاج المطبعة السورية كتاب « الادب الفرنسي في عصره الذهبي » للاستاذ حسيب الحلوي « ماجستير في الآداب » وقد نشرته في حلب مكتبة السيد علي عرب

والكتاب مجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ولنشأة الادب الكلاسيكي فيه وتطوره ولحياة ادبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم مع نماذج مختارات من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم

وهو عمل ضخم وجهد كبير لم يدانه جهد حتى الأن في اللغة العربية عن الادب الفرنسي ، بما تضمن من دراسات وتراجم لعيون الادب المختارة .

الاستاذ الرئيس الراحل

وقد نعت دمشق الى العالم العربي شيخ أدبائها وعلمائها وقادتها في دنيا الفكر والادب الاستاذ الرئيس محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي وعضو المجامع الكبرى في العالم العربي والغربي .

النشاط الثقافي في العالم العربي

ووفاة الاستاذ الرئيس ليست خسارة المدينة الخالدة التي كانت تعتز بـه ويشيد لها فخارها العلمي ، ولكنها كذلك خسارة الحياة الفكرية العربية ، فقد كان الفقيد عنصر نشاط مستمر وحركة دائبة انقطع الى دراساته وكتبه ومقالاته في مجلة المجمع لا يصرفه عن ذلك شيء ، واقبلت عليه الدنيا ولكنه أشاح عنها وآثر هذا الخلود العميق على هذه المظاهر الزائفة .



الأدب يرحب بسعود

أثارت زيارة سمو الامير سعود،ولي عهد المملكة السعودية ، نشاطاً ظاهراً بين حملة الاقلام فحفلت الصحف اللبنانية على اختلاف نزعاتها بالمقالات الضافية مرحبة بقدوم الضيف السعودي ، وأقامت محطة الاذاعة اللبنانية برنامجاً خاصاً استمر اسبوعاً كاملاً،ساعة كل مساء ، تحدث فيه عدد من محدثي محطة الاذاعة.

وكانت زيارة الامير حافزة عـدداً من الشعراء الذين لم تتحرك لهواتهم منذ زمن بعيد...فقد انطق كرم الامير السعودي عدداً من شعراء لبنان ، نذكر منهم الاستاذ بشاره الخوزي « الأخطل الصغير » والدكتور نقولا فياض ، والاستاذ صـلاح لبابيدي ، والاستاذ سعيد عقـل ، والاستاذ صلاح الاسير .

اما المعاني التي دارت في رؤوس شعرائنا، فتكاد تكون واحدة ، وتكاد تكون مستعارة من زملائهم الاقدمين الذين وقفوا على عتبات القصور ... لقد افتتح الأخطل الصغير قصيدته مرحباً :

سعود ! يا ألف أهلاً . كل جارحة   من صدر لبنان ضمت قلب مفتون
مواكب من أهازيـج وزغردة   ملء الفضاء وطرق من رياحين
لم يتركوا زهرة تغفو على غصن   عروا البساتين من زهر البساتين

اما اللبابيدي فقد جعل الترحيب ختام قصيدته :

تراءى السعد يوم نزلت بشرى   على وطن تهل بـه رؤاكا
ويوم طلعت في لبنان وجهـاً   به الأضواء تحتبك احتباكا
يقول الفجر في لقياك مرحى   لأنسام الربيـع فيا هنـاكا

واجتمع الشاعران بشاره واللبابيدي في تصوير الامير امـلاً باسماً ، في ثغر محزون عند الاول ، ومبدداً للغيوم الحالكات العابسات عند الآخر : فقال بشاره :

سعود ! يا صارماً في كف معركة   حيناً ، ويا بسمة في ثغر محزون
سعود ! يا أملاً يفتر عن أمل   يضفي الشباب على العرب الميامين

وقال اللبابيدي :

وإن عبست غيوم حالـكات   بسمت لهـا فبددها حجـاكا
... هو الأمل الذي كنا ننادي   اذا ما اليأس أعيانا ارتبـاكا

ولم ينس كل منهما الارز والرياض ومـا بينهما من صلة لا تضعفها الايام فقال اللبابيدي :

- إخاء لا ينال الدهر منـه   تشد به عراه في عـراكا
إخال الباسقات اذا تهـادت   غصون الارز خضراً في ذراكا
- ولي العهد ما طيب الخزامى   وما نفح الرياض سوى شذاكا

غير ان بشاره ادخل صفير الحساسين في تهنئته (!) فقال ؛

خذها إليك ولي العهد تهنئـة   نفح الرياض وتطريب الحساسين
ارزية النسج يزدان الخلود بها   تبقى على الدهر في صدر الدواوين

اما سعيد عقل فكان الربط عنده بين نجد ولبنان على نحو اخر فقد قال :

قل لذاك الليث في آجامه   جارك الارز له فيـك افتتان
إن تك الرأس فلبنان النهى   او تك الرمح فلبنان السنان

ولا تحسبن ان شاعر قدموس قد استأسد ... فقد أطل في اول قصيدته رقيقاً يتثنى طرباً :

طرب الاملود في الدوح ولان   منذ ما هب عرار في الجنان
يا عباءات تحملـن الشـذا   من روابي نجد حياك اللبان
بين لبنان ونجد صـلة   بنياط القلب والعيـن تصان

ولكن هذه الصلة لا نريدها صلة لا قوة لها، ولا اثر لها في حاضر العرب ومستقبلهم ، فالتغني بالأخوة جميل ، ولكن الوقوف عند التغني بها قصور عن التعبير عن شعور العزب نحو كل مسؤول في البلاد العربية ، فالعربي يطالب ارباب الحكم في بلاده بالاتحاد الصادق ، والتعاون الصحيح ، واول ما ينبغي ان تثمر هذه الزيارات التي يقوم بها حكام العرب موقف موحد شريف تجاه المشكلات الدولية والعروض المغرية ، وسد لأية ثغرة يمكن ان تنفذ منها اسرائيل .

وهذا شيء سكت عنه شعراؤنا حين تحدثوا عن الامجاد والآمال ... غير ان الأخطل الصغير عبر عن شيء مما يختلج في قلوب العرب حين نفث نفثة عابرة كانت الضياء الذي اشع برهة في قصيدته :

فيستردون من حطين روعته   ويغرسون العوالي في فلسطين

ان على الشعر ، بوصفه فناً من فنون الادب ، واجبات نحو الامة التي يفيض على ألسنة ابنائها ... وفي مقدمتها ان يعبر عن آلامها ومتاعبها ... وما اكثر هذه الآلام والمتاعب ... فاذا لم ينطق الشعراء الا في المناسبات العابرة ، وإلا بين ايدي الامراء والحكام ... فهؤلاء يعيشون في دواوين الاخطل وابي تمام والمتني اكثرمما يعيشون في امة بعضها لاجيء ، وبعضها الآخر مستعمر ، وبعضها الثالث جاهل مريض ...

العالم العربي سنة ١٩٥٣

وبينما كان الشعر يلحق بركاب سمو الامير سعود ، ضيف لبنان ، كانت نخبة من رجال الفكر تبدأ في الندوة اللبنانية سلسلة من المحاضرات عن العالم العربي عام ١٩٥٣ ، والندوة اللبنانية ، ومعهـا بضعة دور للنشر ، تعتبر المراكز الاولى للحياة الفكرية في لبنان ، فيها يلتقي ارباب القلم ، وبواسطتها يعالج هؤلاء ما يشاؤون من مشكلات بلادهم..

وقد تكلم ، خلال ثمانية ايام ، ثمانية محاضرين .

● استعرض الاستاذ سامي الكيالي تاريخ سورية منذ اقدم الازمنة حـتى العصر الحـاضر ، اذ استطاع السوريون ان يستخلصوا استقلالهم من مخالب الاستعمار . ثم قـال : ولم نكد نصل الى ما وصلنا اليه حتى وقعت كارثة فلسطين . هذه الكارثة التي كانت السبب المباشر في قيام اول انقلاب عسكري في سوريا .

النشاط الثقافي في العالم العربي

وتحدث عن الجيش فقال: لقد بلغ جيشنا من القوة والبأس حداً يمكنه من رد اي عدوان على الوطن.

وتناول الوضع الاقتصادي مشيراً الى نشاط سوريا في تدعيم اقتصادياتها، فأنشأت مختلف الصناعات الضرورية التي يحتاجها شعبها. وبعد الاستقلال استطاعت ان تعدل ميزانها الاقتصادي.

وافاض في وصف الاصلاحات الداخلية بعد ان استقر وضعها عقب الانقلابات الثلاثة وقال: لقد منعت الحكومة الحاضرة الاستيراد، وكافحت الغلاء وفرضت الضرائب التصاعدية المباشرة، ووثقت العلاقات الاقتصادية مع الاقطار العربية.

وتحدث عن القطيعة الاقتصادية فرأى انها في طريق الزوال. وتحدث عن الحياة الثقافية فأشار الى ازدياد عدد المدارس والكليات، الذي سيكفل محو الامية بعد عشر سنوات. لقد تطور العقل السوري ونهض لمجابهة المشكلات الاجتماعية، فسوريا الآن تتعلم وتعلم وتأخذ من الحضارة احسن ما فيها.

● وتحدث الاستاذ فرحان شبيلات عن المملكة الاردنية، فاعتبر الدول الدمقراطيه هي المسؤولة عن تقسيم سوريا بعد الحرب الاولى وعن اسطورة اسرائيل، ومسؤولة ايضاً عن التصريح الثلاثي الذي وجد لحماية الاسطورة.

وفي حديثه عن الاقتصاد الاردني لاحظ ان الاردن لا ينتظر ان يكون بلداً مصدراً يستطيع ان يوازن ميزانه التجاري، الا اذا استغل ثروة البحر الميت وما يحتوي من معادن. وقال عن البترول انه موجود ولكن الشركة البريطانية وهي التي اخذت امتيازاً بالتنقيب عنه لا تحاول استخراجه، فاكتفت باخذ الامتياز لتمنع غيرها من مزاحمتها.

ودافع الاستاذ شبيلات عن الملك عبد الله قائلاً: لو ان العرب اخذوا برأيه وقبلوا مشروع برنادوت لاختلفت الحال. ولعل في موقف حكومات العرب اليوم لتسوية قضية فلسطين الدليل الاقوى على صحة رأيه.

● وكان المحاضر عن المملكة العربية السعودية هو الاستاذ بهيج باروردي الذي تحدث عن ماضي هذه المملكة وتاريخ نشأتها، فلما وصل الى حاضرها انتهت محاضرته ... دون ان يتنبه الى ان عنوان محاضرته هو المملكة السعودية عام ١٩٥٣.

● اما مصر عام ١٩٥٣ فقد تكلم عنها الاستاذ رينه حبشي مؤسس الندوة الفلسفية في القاهرة، وكان حديثه باللغة الفرنسية.

كان انقلاب اللواء محمد نجيب محور المحاضرة فقال ان الحركة كانت وليدة يقظة ثقافية تغلغلت في نفوس القادة الشبان بعد ما فقدوا كل امل في الاصلاح عند رجال العهد السابق.

ويرى المحاضر ان امام اللواء نجيب مهمة عسيرة بعد ان اثر خضوع مصر للحكم الاجنبي في الملايين من ابنائها فأضعفهم وقتل فيهم كل حيوية. ومن اجل ذلك على ارباب الحكم ان يحيطوا ثورتهم باطار من فلسفة حتى ينشأ لها عقيدة ترسخ في النفوس ويكون لها امتداد غير محدود في الزمن وفي مختلف الطبقات. وافاض المحاضر في شرح هذه العقيدة التي ترتكز على واقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب من جهة ومن كون مصر نقطة ارتكاز مهمة في الشرق الاوسط. ويلح على انه ينبغي ان تصبح اللغة العربية سلماً للارتقاء نحو التطور لا عنصر جمع واتحاد فحسب. ومن اجل ذلك على العرب ان يقووا لغتهم ويغذوها بالفيتامينات الحديثة لتظل مستعدة لاستقبال جميع التيارات.

ورأى المحاضر في الاحداث التي وقعت في العالم العربي دروساً يجب ان لا تضيع سدى، فالعاقل من يتعظ بما حدث له، فيحاول ان يتجدد ليخرج من دروس الماضي بفلسفة تساعده على استيعاب فلسفتي الحاضر والمستقبل، وتفهم الوضع الصحيح لنفسه ولغيره.

● وكانت المحاضرة الخامسة للدكتور فاضل الجمالي رئيس مجلس النواب العراقي. افتتح حديثه بعرض جغرافي عن مدن العراق وانهاره وسهوله وجباله. ثم تناول تاريخ العراق منذ كان مهداً لأول حضارة بشرية الى الآن.

وتحدث عن الثقافة في العراق فقال ان كلياته العالية قد تنتظم في جامعة قريباً. ومع ذلك فالعراق يعاني مشكلات كثيرة من ازدياد عدد الطلاب وقلة المدارس. ويعاني ازمة خاصة تتعلق بازدحام الطلاب في الكليات النظرية كالحقوق مثلاً مما يزيد من عدد المثقفين العاطلين.

وفي حديثه عن التطور الاجتماعي قال ان ابرز مظاهره النهضة النسائية التي تساهم المرأة فيها بنصيب ملموس في حقل الخدمة الاجتماعية، ونوه بجهود وزارة الشؤون الاجتماعية التي سنت قانوناً لحماية العمال، بجانب مئات البيوت التي انشئت من اجل سكناهم.

وعقد آمالاً كباراً على مجلس الاعمار الذي ينفق اموال النفط على الشؤون العمرانية، وقال ان نصف السكان لا يؤمنون بهذا المجلس ولا بأعماله لان الطبقة الطموح الواعية لا تطمئن الا اذا جارى العراق العصر بسرعة النفاثة لا بمشي البعير ...

واشار الى شكاوى العراق فذكر منها قلة الاتصال بين الحكومة والطبقة الواعية، وعدم استقرار الحكومات في الحكم، وضعف الكفاءات الفنية وانتشار المحسوبية والاقطاعية، وعدم معالجتها الى اليوم.

● وكانت المحاضرة السادسة للاستاذ احمد الشقيري امين الجامعة العربية المساعد، وموضوعها ما حققته الجامعة وما قصرت فيه ... ولكن الاستاذ الشقيري ارسل محاضرته مكتوبة واعتذر عن القدوم لأشغال طارئة ...

فما اشبه عمل الامين المساعد، بأعمال الجامعة كلها ... تعد العرب ولا تفي لهم، وتجيء ولكنها لا تصل الا متأخرة عن الموعد ... وهذه هي مشكلة الجامعة الرئيسية!

● وكان موضوع المحاضرة السابعة «لبنان والعالم العربي»، تناول فيها الاستاذ اميل البستاني نصيب لبنان من الثقافة وما قدمه لبنان الى البلاد العربية من فضل في تقدمها الثقافي، بما انشأ فيها من صحف كبرى وبما اوفد اليها من اساتذة.

ولما كان اتصال لبنان بالغرب وثيقاً لموقعه الجغرافي ولهجرة ابنائه فانه مدعو اكثر من غيره الى توجيه الثقافة في البلاد العربية. وشرح المحاضر ما يُفهمه من مهمة لبنان في هذه الناحية.

وعندما تناول المحاضر الجانب الاقتصادي تحدث عن اهم المشروعات الاقتصادية في العالم العربي وموقف لبنان منها.

ويعزو، حين يتناول الجانب السياسي، الخلافات بين ابناء لبنان طائفية واقطاعية، الى عهد الانتداب، ويدعو الى نبذ السياسة الطائفية والى فصل الدين عن الدولة، والى اغلاق ابواب البلاد العربية في وجه اسرائيل لتبقى في عزلة سياسية واقتصادية. ويعتبر اليهود القاطنين في البلاد العربية غير مخلصين، اكثريتهم الساحقة، بل كلهم يضمرون الخير لاسرائيل. ثم يدعو الى تنسيق الدفاع بين لبنان والاقطار العربية للاجهاز على اسرائيل.

● اما المحاضرة الاخيرة فكانت للدكتور قسطنطين زريق عن القضية العربية عام ١٩٥٣. ونرجو ان نذكر خلاصتها في العدد القادم.

« الشاعر المتفائل فرناند غريك »

بقية المنشور على الصفحة ٢٧

الاله نفسه ، الجاني الحقيقي ، إذا كان . .

لماذا ؟ لأن كل ما يجرحني يسرني .
كم ذا أحب كآبتي مع قلب محب لي !
وكم تغدو الحسرة عندي خيراً من الأمنية !
أحب ، حتى آلامي التي أريد الشفاء منها .
وليكن قدري حسناً أو سيئاً كيف يشاء ! »

ولقد تستحيل هذه الصوفية عند الشاعر إلى مادية تجسد الحياة بحسناء يغرق فيها حتى تنسيه واقع الحياة نفسه . فهذا شاعرنا يدعو غادته في « نسيان » :

« هذا هو المصباح ، في الصمت الطويل ، من غرفتنا يرسل اضواءه باهرة .

. . . اطرحي ، على عنقي ، ذراعيك العاجيتين !
ولننس الشتاء القاسي وما حولنا من شقاء !
وأنتن ... يا رعشات الانتظار ، وتأوهات السرور
ويا حرارة الأيدي أوقدتها الرغبة ، وعطرتها طيوب اللذات
وأنتن ... أيتها القبلات تعالين اهززن ضجرنا !
وامنحن قليلاً من الفرح نفوسنا المتعبة !
ودعننا ننسى ان العالم قبيح ! »

وقد تستولي على الشاعر غمرة من اليأس أحياناً ، فتجعله يشك في نفسه ، ويضجر من حياته ، لأنه لا يرى إلا الفراغ أمامه ، وكل ما يناديه سراب لا يروي ولا ينقع غلة ، فيطلب الارتواء ، والتعافي من الداء ، فيتساءل :

« هل أشفى ؟. أنت وحدك ، يا إلهي ! ، تعرف .
ولكن السماء جميلة في عيني ؟
فماذا أصنع أمام تجدد الحياة ؟
وماذا أجد هناك ؟ وأي حظ يكون حظي ؟
هل أرى ، قبل موتي العاجل أو الآجل ، أحلامي تتحقق ؟
وهل يأتيني من الحب أو المجد قليل من قليل ؟
وهل أغدو سعيداً ؟
ولكن العالم اللامتناهي اللامع ، ذا الأسرار يجذبني
ليكن ما يكون ! ما همي من ذلك ؟
إنني قاذف بنفسي فيه ... أريد أن أحيا ايضاً ... »

هذا هو وجه شاعرنا المتفائل في الحياة ، وإني لأرجو ان اكون قضيت للحياة بعض ما يجب علينا من حقوق حيال جمالها الذي لا يفنى .

حلب **خليل الهنداوي**

الكتب التي صدرت عن **دار القلم** في شهر نيسان ١٩٥٣

الحرب والسلام الكتاب الأول

تأليف الكاتب العالمي : ليو تولستوي

هذه الدرة اليتيمة ، التي يشع سناها لأول مرة في اجواء اللغة العربية ، ويصور فيها تولستوي الجبار دقائق الحياة المترفة في روسيا القيصرية والهوة السحيقة التي كانت تفصل بين طبقة وطبقة ، ويتحدث فيها عن الحرب واسبابها وبشاعتها وما يلعبه الحظ من الدور الكبير في نتائجها .

ترجمة اميل خليل بيدس وقدم له الدكتور جورج حنا . تصدر بقية الكتب تباعاً .

١٢٠ صفحة ٢٠٠ غ.ل

مع الناس

إنه الكتاب الاول من السلسلة الشهرية التي تصدرها رابطة الكتاب السوريين ، وهو مجموعة قصص ، بل مجموعة صور رائعة عن بسطاء الناس وكفاحهم لاجل الحياة ، تلك الصور التي اشتهر بها المؤلف الاستاذ حسيب الكيالي في قصصه .

قدم للكتاب مواهب الكيالي .

١٠٠ صفحة ١٠٠ غ.ل

وعلى الأرض السلام

إنه السلام الذي يتمناه كل انسان والذي نص عليه الانجيل والقرآن . انه يفضح أساليب مشعلي الحرب وخططهم التي يتبعونها لنيل مآربهم في سبيل المتاجرة بالأرواح . كحلف الاطلسي والدفاع المشترك وعلاقة دولة اسرائيل بهذه القضايا مع بيان مفصل مدعوم بالأرقام والبراهين عما جرته وتجره الاحلاف العسكرية على الشعوب والامم من كوارث .

وضع الكتاب الخوري طانيوس منعم وقدم له الشيخ عبدالله العلايلي .

١٢٠ صفحة ١٠٠ غ.ل

سنوات حاسمة

منذ عام ١٩٥١ دأب الكاتب السوفياتي الكبير ايليا أهرنبورغ على توديع العام الذاهب بتعليق عن الحوادث والذكريات التي جرت في ذلك العام

وكتاب سنوات حاسمة هو مجموعة التعاليق التي كتبت في بداية عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ - ١٩٥٣ بالاضافة الى تعليق كتبه في الشهر الماضي واسماه سنوات حاسمة .

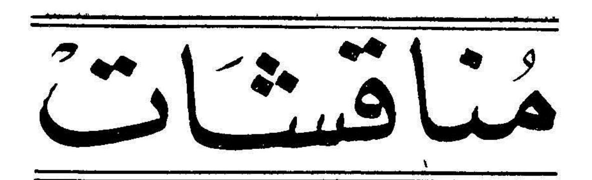
٦٤ صفحة نصف ليرة

الحرب والسلم (ملحمة شعرية)

تصور فظاعة الحرب ومآسيها وروعة السلم وآفاقها الزاهية باسلوب شعري مشرق . وقد ترجمت هذه القصيدة الى اللغات الروسية والافرنسية والانجليزية والاسبانية والالمانية ، ولأول مرة تنشر في لغتها الاصلية العربية .

وضعها الشاعر العراقي ، كاظم السماوي قدم لها الدكتور جورج حنا .

٤٠ صفحة من الورق الممتاز نصف ليرة لبنانية



مُناقشَات

في مشكلة مي

بقلم : صدر الدين شرف الدين

لا أدعي انني تفرغت لهذه المشكلة ، بل اعترف بأنني لم أعن بها عناية ذات بال .

ولكني وقعت في مجلة « الآداب » الغراء ، على بحث وقفه الاستاذ انور المعداوي على حلها، وكانت لي قراءات بعيدة في « قلب » مي: تلك العبقرية — حافظ على المصدرية — المبدعة ، فرأيت أن استعيدها بهذا البحث الطري الطلي ، يجتمع له توفر قلم واختصاصه ، او اضيف اليها منه ، ضوءاً يلقى على امرأة فكر ، كانت فتحـاً في ادبنا الحديث ، وستظل ركنا بين اركان تطوره وانتقاله .

الطري الطلي . انا لم اسلف البحث هذا الوصف قبل قراءته ، ولم اعطه اياه من عندي ، وانما خرجت به منه ، وخلعته عليه من حقيقته، والواقع ان للكاتب الفاضل جهداً سابراً ، يتخالج بالتجديد ، ويتطامح الى حل ما اسماه مشكلة ، حلّا يريد ان يضيف فيه العمق الى الطلاوة .

وانا إذ اسلم بطلاوة بحثه وطراوته ، اشك بعمقه واصابته ، ويخيل الي انه حمل الالفاظ فوق ما تحمل،حين استوحى رسائل «مي» في سبيل تجريدها من انوثتها ، وانتزاع قلبها من بين جنبيها ، وتركها عقلاً محضاً، لذته الكبرى انما هي الفكر . وطموحاً خالصاً ، هدفه الاسمى انما هو المجد والشهرة .

على اني حين اخالفه ، لا اجزم بصحة ما اذهب اليه في فهم النـص صحة مطلقة ، ففهم النص ، كانشائه ، عمل فني ، وانطباع « ذاتي » ، مبناهما الذوق ، وهذا لا يخضع لقواعد معينة ، تحدد مدلول النص تحديداً رياضياً ، ينفي عنه الخلاف ، واللبس ، والتباين، و « التفسير » — بناء على هذا — حر الا من هبة المفسر، وعبقرية الفكر في تلفته وتفاوته ، نعم تتقيد هذه الحرية بالمبادىء العامة حرصـاً على الصحة ، وتتمسك بمفادها منعا للفوضى ، ثم هي تتجوهر بالمعاناة ، والممارسة ، والاطلاع .

وفي صدد الدفاع عن (قلب) مي ، عن انوثتها المتكبرة ، عن دموعها الضاحكة ، عن ضحكاتها الباكية ، ما اظنني محتاجا الى الاستنجاد بالذاكرة ، ولا الى التماس الادلة فيما تفرق من اخبار « مي » واثارها ، وبحسبي ما اورده الاستاذ المعداوي من وثائق ايد بها ـ فيما زعم ـ مدعاه ، فانها بالذات تمدك على « مي » طبيعـة الانثى الكاملة ، شرط التأكد من حقيقة واحدة ، هي ان للأنثى الممتازة جبروتا لا يخضع للمقاييس التي اخضع اليها الكاتب الفاضل صاحبته ، للانثى طاقة ضخمة من الصبر وقـوة الارادة تقدرها على ضبط اعصابها ، وحفظ توازنها ، اذا عصفت عاطفتها او اضطرمت ، فقد تغـلي احشاؤها وتلتهب، ولكنها تظهر متزنة ، او ابية جامحة . بل ربما كان الجموح ذاته في لغتها تعبيراً سلبياً عن حب طاغية ، وعاطفة حمقـاء . انه يكون في كثير من الاحيان دلالاً ، مصدره غريزة الترفع . والاحساس بالكرامة الاصيلان عند المرأة . فاذا رأينا امرأة تغلب نفسها في مقاومة الرجال ، فلا ينبغي ان نثأر منها بالحكم على انوثتها بالخمود ، او الموت، بل علينا ان نكبر عظيم جهادها، ونضع صبرها في اطاره الحق ، وعلينا ان نلتمس في نفسها عقدة غير موت طبيعتها ، تبرر جموحها اذا اطرد واستمر ، فاذا انتهينا الى شذوذ ما ، فانما مرد هذا الشذوذ حيوية الانوثة الملحة، لا فقدان الانوثة، ومن هنا يكون الشذوذ اذا ثبت ، ظاهرة وجود ، لا آية عدم .

وما لي أعمم القول ، واجاوزه القدر الذي اردت من هذه الكلمة . ولم اقصد بها الى اكثر من تفسير نصوص « مي » تفسيراً يناقض تفسير الاستاذ المداوي،ثم يماشيه في الكشف عن جانب من حياة«مي».

الـكاتب الفاضل يرى في « مي » قبراً وئدت فيه الانوثـة ، او يرى الانوثة في « مي » خامدة قتيلا ، على حد تعبيره .

خاطرة غريبة ! غرابتها انزلتها من نفسه منزلة الرأي ، وسيطرت عليه ، وهو يدرس النصوص في سبيل اثباتها ، فأرته من عنف الانوثه ، واحتدام معركتها نقيض ذلك . ولو تحرر من هذه « الغرابة » لأخذ في اغلب الظن، بغير ما اخذ من هذه النصوص ، ولانتهى من دراسته الى نتيجة يطمئن فيها بالحكم على « مي » بانوثة يعذبها الحرمان ، ويرفعها التعفف ، ويعقدها سوء الظن بالرجل .

ابتدأ خاطرته من (صالون) مي، فوجدها امرأة تجالس الرجال كاحدهم لا يزلزل انوثتها، ولا يغريها استدعاؤهم ، او استدعاء نداءاتهم المختلفة ، ثم رأى من هدوئها ما اطمعه بالاستدلال على جمودها، فاذا هو يختار في هـذا السبيل اشخاصا مروا بحياتها، فلم يحركوا شوقها . وينتخب نصوصا من رسائلها زعم انها كشفت عن شأنها .

اما الاشخاص فهم ولي الدين يكن ، والرافعي ، وجبران، واما النصوص فخمس رسائل ، او خمس قطع من حديثها الى جبران .

ولنبدأ بولي الدين والرافعي كما بدأ ، ثم لنتمهل قليلًا امامها خلافا لما فعل ، فانه ليبدو ان الخلاف بيننا وبينه يبدأ من اول الطريق، فنحن نرى عند هذين الاديبين سراً خطيراً يغير مجرى التفكير في فهم هذا الجانب من حياة مي ، ولو اعاره الـكاتب بعض الاهتمام ، لأفاد منه لبحثه فائدة اكثر انسجاما مع طبائع الأمور وحقائق الاشياء .

الخطورة فـيما نقله عن الرجلين تظهر في امكان اعتبارهما نواة لعقدة « احتقار الرجل » ... نوع الرجل ، في نفس « مي » ، ذلك انها ارادها متعة ، ينعمان منها بلذة الجسد ، ومن المعقول ، في هذه الحال ، ان تحدث في نفسها الرجة ، وتضع على عينيها منظاراً ترى من خلاله في تعميم الى الرجـل ظالما ، انانيا ، غادراً ، نهماً ، لا ورعا ، ولا متحرجا ، وكان لا بد لها ، مـع هذا الرأي ، من تضحية ، اذا لم يكن بد من الترفع ، والتسامي ، والارتباط « بالخلقية » الشرقية ، فكان حبس انوثتهـا فداء لترفعها ، وثمنا لكرامتها ، ثم كان اثباتا لوجود نسوي قوي يدحض الرأي « البشاري » ويضرب به وجوه الرجال من اتباعه .

وانا اذ استشهد نصي الرجلين على ما استنتج ، اشير الى انهما يجتمعان في هذا المدى ، ثم هما مفترقان في المنطق الفني ، والتقويم الذاتي،لا يصح ضربهما بعصا واحدة كما فعل الـكاتب .

روى الكاتبُ الفاضل عن ولي الدين رسالة « شعرية » جاء في آخرها : « ... والآن عندي قبلة . هي اجل زهرة في ربيـع الامل ، اضعها تحت قدمين ، إن تقبليها تزيدي كرما ، وان ترديها فقصاراي الامتثال ، وبعد فاني في انتظار بشائر رضاك » .

اما الذي اخذه الكاتب على هذه الرسالة، فهو انها من الحب الذليل،والادب المصنوع، ثم لم يشر بشيء الى ما فيها من الابتذال الذي ينافي السمو ،والسوقية التي تجرح الكبرياء ، والشراهة التي تصدم العفة ، وظني ان « مي » لوحققت امنية صاحبها لكانت عند صاحبي انثى عظيمة الحظ من الانوثة .

وروى عن الرافعي رسالة جاء فيها : « ... نقــول الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فاذا انت تريدين ان نراك من مرصد فلكي ، واي بليغ يراك ولا يرى فيــك جديداً في حسن معانيه ، ومبانيه ، ويعرفك ولا يرى فيك ابدع البديع فيا يعانيه من افتتانــه . لله الحمد ان جعلنا نتلقى الماء ، ولم يجشمنا ان نصعد من اجله الى السماء » .

ويضع الكاتب هذه الرسالة الى جنب سابقتها من الحب الذليل ، والادب المصنوع ، وهي مثالها عــلى معنى التعرض للحب « النواسي » ثم تزيد عليها بادلال صاحبها ، واعتداده وفحولته ، وباغرائها « مياً » ان تنزل من سماء تصونها ، الى ارض اللــذة . ونحن لا ننتظر نجاحا لهذا النحو من الحب عند « مي » لا لما ذهب اليه صاحبنا من ذلة الحب ، ففي حب الرافعي عزة ، ومن انطفاء الشعاع الادبي ، فعند الرافعي قدرة على ابداع فني كما سمعت من رسالته ، ولكنه يريد « ان يتلقى الماء » .. ، ومن « موت الانوثة » ففي اقبالها على هذا وذاك بعد هذه المكاشفة الجريئة ، عمل انثوي صريح . نحن لاننتظر حظوة الرسالتين عند « مي » لا لشيء من هذا كله ، بل للمقدة ، لرد الفعل الذي تركته هذه المحاولات الحمراء في نفسها ، وادت بها الى احتقار الرجل ، والاكتفاء من الانوثة بان تظل مصدر وحي وكوة إلهام .

اذا صح هذا ، وهو عندي صحيح ، جاز ان يكون مرتكزا يعدل كثيراً من فهم رسائل مي لجبران على وجه آخر ، غير الذي ذهب اليــه صاحبنا ، وجاز ان يؤخذ منه لا من (الشيء) الذي سألت عنه مي جبرانا — كما سيجيء — وما ادري لماذا اضاع الكاتب هنا هذا المفتاح ، واجل لقياه الى ما بعد ؟ ولعل في سيطرة (الغرابة) ... غرابة الخاطرة ، عمــلا في اضاعته ، للاستعاضة عنه بمفتاح تعطيل الحس الانثوي عند مي .

ومهما يكن من امر فان الاهتداء الى هذا المفتاح ، اذا كان رشيداً ، يقود الى فهم « مي » فهما ارفع على الصعيد الفني، وعلى الصعيد الانساني جميعاً.

والان انقل الى الجزء الثاني من المقال ، وهو الأهم ، فاحاكم موقف « مي » من جبران على هذا الضوء ، ولكني سأقتصر على تقديم نموذجين من فهم النصوص الخمسة مراعاة للاختصار ، ولن يصعب تفسير بقية النصوص — بعد — بهذا الفهم، وكل رجائي ان تعود الى النصوص مرة اخرى في مقال الاستاذ المعداوي من العدد الفائت .

مي اعجبت بجبران دون شك، واحبته في هذه النصوص الخمسة على الاقل ولا مراء، ووجدت في رمزه الفني، وادبه الاخلاقي مثلا للرجل لو سبق اليها لبدل رأيها المفجوع ، ونفست برسائلها عن كثير من الكبت الذي منيت به ، ولكن تلك العقدة ظلت تحفر بينها وبين الرجل ، فلم تستطع ان تتحرر منها وهي تستوحي جبران من ضبابه ، الا انها استطاعت ان تثور على عقدتها المركبة بصراخ انثوي ، اتيح لها من جبران ، اسمعه يدوي في النصوص التي اختارها الكاتب لخنق انوثتها .

هذا لا بد من وضعه في الحساب لفهم النصوص فهما جذريا ، واني لأرى الى موقفها من جبران ، موقف التمنع ، نتيجة للمقدمات التي سبقت في تجربة الرافعي وولي الدين . وكل شيء في النصوص يشير الى هذا بخصائصه الفنية ، وبمشاعره النفسانية .

خذ الآن رسالة الحلاق . وهي اولى النصوص .

هذه الرسالة عندي قصة رفيعة تجتمع لها عناصر القصة الذاتية على اتم وجه هي قصة « مي » في هذه المأساة كلها ، تصورها انثى مرهفة الانوثة ، ناقة على الرجل من اجل انوثتها الأسيرة .

فهي فيها تبكي انوثتها بحزن الثاكل على ذوائبها المقصوصة ، وتسخر بفن

بيان من « الآداب »

تنقت المجلة بضعة ردود وتعليقات على بحث رئيس التحرير الدكتور سهيل ادريس حول « القصة العراقية الحديثة » ، وقد ارجيء نشر هذه الردود والتعليقات الى العدد القادم في انتظار سائر الملاحظات على البحث ، حتى يتمكن رئيس التحرير من التعليق عليها جملة واحدة .

« جاحظي » من جبران الذي هو الحلاق ، تسخر منه بوصفه رجلا مسئولاً عن اسر انوثتها، وتظهر هذه العقدة واضحة اذ تسأل الحلاق — وهو يتغزل برأسها بعد القص : « الى كم امرأة قلت كل هذه الكلمات » .

وقد حسب الــكاتب الفاضل هذه الرسالة على انها حدث واقع ، فتح عليه في التعليق بجناس ذكر فيه الشعر والشعر !

ثم خذ النموذج الثاني حسب تسلسله عند الكاتب ، واقرأ رسالة من « مي» الى جبران تتحدث فيها عن حبها اياه ، وفي الفصل المنشور منها ميدان عجيب لانفعالاتها النفسية ، ولصراع مستحر بــين عقلها وقلبها ، واهم ما نأخذ من ذلك امور :

١ — حبها لجبران حباً قوياً ثابتاً في تردد ، ان صح التعبير .
٢ — نقمتها على الرجل نقمة مركزة .
٣ — انوثة طاغية تتخيل الخجل من البوح لتتمثل هروب الانثى وملاحقة الرجل لها .
٤ — امتزاج الحب بالنقمة في مظهر يدل عليه خوفها من الحب الذي بسطته في كثير من الدقة ، والانفعال ، والملح .

وعند ذكر الخوف ننتهي الى عقدة المقال الرئيسية ، واعني بها (الشيء) الذي ظنه الــكاتب إلغازاً عن (موت الانوثة) ونحن اذ نرى « مي » تحــذر الحب وتخشاه ، لا نكاد نفهم ، او نفهم انها حريصة على ان تظل (إلهة) حــتى اذا استفهمت جبرانا عن « شيء هو ابعد من الوراثة » — اي افعل منها — بعد ان لامت نفسها على الكتابة ، وبعد ان تذكرت مذهب الشرقيين في ابقاء البنات اميات،فاذا نحن من ذلك (الشيء)، امام السر الرهيب ، واذا هو يفسر لنا خوفها من الحب ، ويلقي لنا ضوءاً جديداً على احتقارها للرجل ، ويرينا الى انها انما تدافع حب جبران بعمل تلك العقدة التي فرضت عليها الرهبانية في غير ترهب ، فاذا هي تتمنى الجهل لأن العلم ورطها (بشيء) او عرضها لشيء ، او هي تتمنى الجهل لأن العلم اراهــا قبح الغدر في الرجل ، ومنعها ان تغفر له اذا أساء. وما ندري فقد يكون في اعماق هذا (الشيء) امر لا تريد ان يطلع عليه جبران اذا التقيا كما يحبهو.

وما ابعد ما اكتشفه الكاتب في هــذا « الشيء » ... هو يرى « الشيء » موت الانوثة ، رغم هــذه الحركة الضاجة ، ورغم هذا الصراع الهائل ، ورغم هذه النقمة الحاقدة ، ورغم الانوثة التي تواجهك متطلعة مترفعة ناقة انى التفت من نصوصها المثبتة في المقال .

واكتفي بهذا القدر من الوقوف الى النصوص ، مطمئناً الى امكان المضي بها على هذا النحو الى النهاية، وان كان لا بد من ذكر شيء آخر ، فاني اشير الى الاستطراد في خاتمة المقال ويبدو لي ان الذي عرض له في هذه الخاتمة من تحديد الفن ، يصح ان يكون جزءاً من دراسة مستقلة لجبران الفنان .

وبعد فهذه خواطر عابرة عرضت لي اثناء القراءة ، فانني غير ضامن لاكثر من كونها تفسيراً من زاويتي ، ولئن ناقضت تفسير المعداوي ، فانها تماشي ، في الجوهر ، غرضه النبيل في خدمة الادب ، والكشف عن الحقيقة .

صدر الدين شرف الدين

انوثة مي زياده

بقلم : رشيد يزبك

كتب الاستاذ انور المداوي في العدد الماضي من « الآداب » يتحدث عن انوثة مي . وقد عجبت للأدلة التي اتى بها ليثبت ان طبيعة مي الأنثوية كانت مقتوله. واحسب ان الكاتب الفاضل خدع برقدة العاطفة عند الفيلسوفة، ونسي ان الطبيعة لا تنام وان العاطفة التي كانت تتجاهلها مي ، المسيطر عقلها على قلبها ، كانت تظهر من خلال كتاباتها .

وان في كتب مي كثيراً من العبارات التي يصرخ فيها نداء الأمومة ؛ فكيف يريد الأستاذ المداوي ان تدعو الى الأمومة امرأة ناقصة الأنوثة ؟ وقد قالت جوليت طعمه تصف مي التي عرفتها عن كثب : « لقد كانت مي شديدة العناية باساليب الزينة والتبرج ، وكانت تنحي باللائمة على كل من يقف في سبيل المرأة وينكرعليها هذا السلاح الذي هو حق من حقوقها المشروعة» افلا يدل ذلك على انوثتها الطاغية ؟

ولقد استشهد الكاتب بمقاطع من رسائل مي الى جبران كان في تفسيرها له مغالطة ، فقال : « من رساله لمي الى جبران : انك محبوبي واني اخاف الحب . اني انتظر من الحب كثيراً فأخاف الا يأتيني بكل ما انتظر . اقول هذا مع علمي بان القليل من الحب كثير ، ولكن القليل في الحب لا يرضيني . الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير . » ولا يمكن لأحد ان يقرأ هذه الجملة ويتهم قائلتها في انوثتها . بل على العكس ، ان هذه الرسالة تفضح امرأة مشبوبة العاطفة ، تضع في الحب كل آمالها لأطفاء شهواتها القوية ، ولكنها تخاف الا يستطيع محبوبها اشباع نهمها من السعادة ...

وقد قالت مي لجبران في رسالة اخرى : « الحمد لله انك الآن بعيد ، لأنك لو كنت امامي لاضطررت ان اهرب خجلاً منك ، وليس ما ابديه هنا اثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء ابعد من الوراثة . ما هو ؟ قل انت ما هو هذا ؟ » لقد كان في هذا القول مبعث الشك لدى الكاتب، ولكن مي ارادت ان ترجع بهذا الخجل الغريزي في الحقيقة ، لا الى ما ورثته عن اهلها ، بل الى ما فطرت عليه المرأة، وكان من ضمن تكوينها الحياء والخفر لتستر الشوق الى الذكر . الا ترى كيف توقظ انثى الحيوان ذكرها ، فاذا ما جاءها تهاربت؟ اني لم اسمع بختنثى تحب الرجال الى درجة العبادة وتناجي ذكرها بمثل ما تتابع في رسالة مي : « وسواء كنت مخطئة او غير مخطئة ، فان قلبي يسير اليك ويظل حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك . غابت الشمس وراء الافق، ومن خلال السحب العجيبة الاشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة ، نجمة واحدة هي الزهرة المتالحب.أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وجد فيها من هي مثلي لها واحد جبران حلو بعيد بعيد هو القريب القريب تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم ان الظلام يخلف الشفق وان النور يتبع الظلام وان الليل سيخلف النهار والنهار سيخلف الليل مرات عديدة قبل ان ترى الذي تحبه فتتسرب اليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران »

الست ترى هذه الرسالة تحمل نداء ظاهراً من انثى كاملة الأنوثة الى ذكر بعيد حبيب تستعطفه المجيء اليها ؟

وبعد ان مات جبران، أفاقت مي فوجدت انها منبوذة في المنزل الذي شهد تفجرها وجدها فوجمت وتساءلت : « اين ابي وامي ، اين صحي واين صباي ونفوذي بل اين جبران رفيق روحي ومبدد وحشتي » فاعتزلت العالم تبكي حتى انطفأت ولم يبق منها الا هيكل نحيل يحطمه الزمان يوماً بعد يوم، فخطر لها ان تسافر لعلها تنسى ، ولكنها بالرغم من اسفارها العديدة لم تجد الترويح الذي تطلبه ، فكتبت الى نسيبها الدكتور جوزيف زياده شاكية تقول : « انني اتعذب عذاباً شديداً ولا ادري السبب ، فانا اكثر من مريضة ويبنغي خلق تعبير جديد لتفسير ما احسه في وحولي . اني لم اتألم ابداً في حياتي كما اتألم اليوم... ووددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكني لم اسأل احداً الا وكان جوابه لا شيء. انه وهم شعري تمكن مني. لا لا يا جوزيف ان هناك امراً يمزق احشائي ويميتني في كل يوم، بل في كل دقيقة » ان القضية واضحة جداً : لقد اشتد المرض على مي تحت تأثير يأس العوانس ، وما هذا الأمر الذي تسأل عنه نسيبها سوى هذا اليأس، هذا الجوع الى الأمومة الذي يصيب العوانس العاطفيات عند مناهزة الخمسين .

واني اختم هذه الكلمة بقول زكي مبارك فيها « مي شخصية نسائية في كل شيء . قلبها قلب امرأة وعواطفها عواطف امرأة ، واسلوبها في الكتابة والخطابة والحديث اسلوب فتاة خلوب تعرف كيف تغزو الصدور والقلوب»

رشيد يزبك